جَواسيسُ وخوَنة

SPIES & TRAITORS

بقلم كورت سنجر



جواسيس وخونة

بقلم

كورت سنجر

from:

SPY OMNIBUS

اصدار شركة آلن بلندن

١٩٦٥

مقـــــدمة

حفنة جديدة من قصص الجاسوسية والجواسيس ، وقد لا تكون بى من حاجة الى أن أقول بأن هذه كلها ليست ترجمة لكتاب يحمل العنوان الذى وسم به الكتاب لا بالعربية ولا بالانجليزية وأن كانت هذه القصص كلها فى الواقع من قلم كورت سنجر الرجل الذى يرجع اليه أصلا فضل كتابتها مباشرة فى الكثير من مؤلفاته ...

ولكن الكتاب فى الترجمة العربية قد حصل على هذا العنوان من طبيعة القصص نفسها ... فلم تخلو قصة من عمل من أعمال الجاسوسية ... كما لم تخلو من مواطنين ضعاف المعنويات ساعدوا هؤلاء الجواسيس لدوافع كانت « العقيدة السياسية » احيانا كما كان «المال» فى أحيان اخرى العامل الاساسى البارز وراء هذه المعاونة ...

على أن هذه « الدراســات » ولا أقول « القصص » مليئــة فى الواقع بالدروس التى يمكن أن نستنبطها ونخرج بها منها ، ففى الدراسة الاولى التى وسمت بعنوان « الانتظار الطويل » نجد مثلا ..

١ ـ أهمية اعداد الجاسوس وتدريبه الطويل للمهنة التى سيستخدمها كغطاء له ..

٢ ـ دقة اختيار المكان الذى يعيش فيه الجاسوس على مقربة من الغرض الذى يعمل للحصول على معلومات عنه .

٣ ـ كيف يمكن الربط بين المعلومات الصغيرة التى يتسقطها صاحب متجر حريص داهية من عملائه السليمى النية ..

٤ ـ أهمية اكتساب الجاسوس لود الناس الذين يعيش بينهم وخاصة بمظهره الودى وبما يقوم به نحوهم من معاونة ٠٠

٥ ـ استغلال عواطف الناس فى النكبات والمصائب ٠٠

٦ ـ أهمية عدم بقاء الجاسوس فى منطقة العمل بمجرد انتهاء مهمته

والواقع أنه لما كان الهدف من اختيار هذه الدراسات هو استنباط الدروس التى تتضمنها ، فاننا نعنى هنا بتوجيه النظر الى أحد العوامل الخطرة المضرة بالامن ، عامل استخدام بعض ذوى العقائد السياسية المنحرفة فى الاماكن الحساسة من الاداة الحكومية وخاصة فى الادارات التى يطلع العاملون فيها بحكم عملهم على أمور لها وزنها ٠٠٠

والشىء الذى يستحق الذكر بخاصة هو أن الانسان ـ رجلا كان أو امرأة ـ من الممكن أن يخطىء ، ومن الممكن أن يتعثر فى الحياة ماديا أو معنويا ، ولكن الخطر كل الخطر أن ينساق فى الغواية مرغما عندما تستغل سقطاته لتهديده وابتزازه لا للحصول منه على المال بل لدفعه للحصول على المعلومات ٠

وفى نفس الصورة يجىء التنكب العاطفى ، أن الانسان يتبع نداء القلب ٠٠ أو يلبى نداء البدن مافى هذا من شك ، ولكن الواجب أن يسيطر الانسان على عاطفته ويجب الا يسير مغمض العينين الى حيث تقوده عاطفته حتى لان يتنكب فيما يؤدى به الى الهاوية ٠٠

ان « الضعف البشرى » من الحقائق الثابتة ، ولكن التحصين القوى هو الذى يمنع من أن يصل به الضعف الى حد ارتكاب جريمة مخلة بالشرف هذا التحصين هو الوعى الذى يجب أن يبث فى المواطنين عامة ، والانتفاع بالحوادث لاذكائه فيهم فيسرع من يواجه موقفا معقدا ـ حتى فى حياته الخاصة ـ الى المسئولين لرد عادية العدو عنه ومنع استغلاله ٠٠

قد يكون من الخطأ أن يتنكب شخص مافي مسألة عاطفية أو جنسية ، ولكنه مع هذا يمكن أن يجد الملايين الذين يتسمحون في خطئة وتتسع افاقهم لتقبل ضعفه والعمل على الاخذ بيده ، ولكنه لن يجد فردا واحدا يتسمح معه عندما ينطوي على مشكلته ولا يجد من سبيل للفكاك من قبضة العدو الا بالخضوع والاستسلام له ..

وفي هذا الكتاب أكثر من قصة تدعم هذا وتؤكده .

* * *

على أننا يجب أن نشير هنا الى أن الدراستين الاخيرتين من هذاالكتاب :

⊙ أعظم جواسيس ونستون تشرشل .

⊙ أعظم الجواسيس السوفييت .

سبق أن عرضنا لهما في كتاب سابق من هذه السلسلة ، كتاب : « صناعة المخابرات » بقلم رونالد سيث ، ولكننا نعرضهما هنا من زاوية أخرى غير التي عرضهما منها رونالدسيث ومن الطبيعي أن عرض الموضوع الواحد من زوايا مختلفة يمكن من زيادة مدى الدروس التي يمكن استنباطها وفي هذا نفعة دون ماشك ..

المحتويات

الصفحة

١

« جاسوس لحساب هتلر »

الانتظار الطويل

نقل الأميرال كارل دونتز قائد أسطول الغواصات الالمانية فى فجر الحرب العالمية الثانية عينيه عن الخريطة الكبيرة التى تغطى جدار غرفته وصوبهما على القائد البحرى الشاب الذى كان يقف منتصبا فى جواره ٠

كان اليوم يوم أحد من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٩ وكانت الحرب قد قطعت شهرا واحدا من عمرها الذى طال لست سنوات ٠

وتكلم دونتز بصوت أجش عميق وبنبرات حادة قاطعة ٠

ــ ان كل شىء يتوقف على الهجوم السريع المفاجىء ، ان لميناء « سكابا فلو » سبعة مداخل وقائد الغواصة القوى الارادة يستطيع أن بقوم بالاختراق برغم التيارات السريعة الغادرة ٠

وصمت دونتز للحظات قصار وقد علت شفتيه ابتسامة شاذة ثم تابع حديثه ٠

ــ ان الامبرالية البريطانية تعتقد أن السفن الثلاثة التى أغرقتها هنا ــ ومد أصبعه مشيرا الى مكان على الخريطة الكبيرة ــ عند (كيرك ساوند) تكفى لوقاية البوارج التى تلقى مرساها داخل الميناء ٠

وهز قائد الغواصة جونتر بريين رئيسا للدلالة على أنه قد فهم ما يعنيه رئيسه ، كان هو الآخر مليئا بالروح الحماسية التى تتقد فى عينى الاميرال وكان يدرى أن مهمته مهمة تتطلب الجرأة وأنها لو تحققت فستكسبه مكانة كبيرة بل وربما تؤدى الى أن يمنح وساما من يد الفوهرر نفسه ٠

وعاد دونتز الى مكتبه وأمسك بمجموعة من الاوراق المليئة برسوم التى تعطى وصفا دقيقا جيدا لدفاعات سكابا فلو وقد وضعت عليها علامات تدل على اماكن السفن المفرقة التى تسد مدخل الميناء وأسلاك الصلب التى تربط بينها والانوار المختلفة لها ثم قال :

ـ انها عملية يمكن أن تتم واثق بأنك الرجل الذى يستطيع هذا ، خذ كل هذه الأوراق معك وادرسها بعناية وثق بكل المعلومات التى بها فلقد جاءنا بها عملاؤنا المهرة ، حللها كما تريد ثم أخبرنى برأيك فيما بعد ، واعرف أنك مخير فى القرار الذى تنتهى اليه ولن نعيب عليك أن تقول أنك لا تستطيع القيام بهذه العملية ، وعلى أية حال أمامك حتى يوم الثلاثاء لتعطنى اجابتك ·

وقضى القبطان بريين اليومين التاليين يدرس المصورات والرسوم بعناية ، وكلما ازداد فى دراستها كلما ازداد حماسة ، وفى يوم الثلاثاء عندما عاد الى الاميرال دونتز كانت الكلمات الوحيدة التى نطق بها ·· أنه على استعداد للعمل فى أى لحظة ·

وكان اغراق البارجة آرك رويال بخسارة ٨٣٣ من ضباطها وبحارتها فى ساعات فجر يوم ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٩ من أهم حوادث الحرب العالمية الثانية ، ولكن الوسيلة التى حصل بها الاميرال دونتز والبحرية الالمانية على المعلومات التى مكنت الغواصة « ى ـ ٤٧ » على التسرب لداخل عتق (كيرك ساوند) وقذف البارجة آرك رويال حمولة ٢٩٠٠٠ طن بأكثر من طوربيد ، كانت هذه الوسيلة عملا أكثر مهارة وجهدا من العملية نفسها ودليل مهارة وصبر الجاسوس الذى بقى لسنوات طوال يعمل فى هدوء حتى جمع كل هذه المعلومات ·

* * *

ففى سنة ١٩٢٧ قبل اثنى عشر عاما من بدء قيام هتلر بمحاولته للسيطرة على العالم جاء الى بريطانيا من سويسرة رجل صغير الحجم يضع منظارا مزدوجا على عينيه قال أن اسمه « آلبرت أورتيل » ، وقال لضابط الهجرة أنه صانع ساعات وأنه يود أن يتابع صناعته فى المملكة المتحدة ، وتابع كلماته :

ــ ان فى سويسرة الكثير من صناع الساعات ولكن قيل لى أننى أستطيع أن أجد مكانا لى هنا فى بريطانيا ، واذا أمكن فاننى أود بخاصة أن أجد عملا فى اسكتلندة ببحيراتها وجبالها التى تذكرنى بوطنى سويسرة •

وفى الحقيقة لم يكن الرجل سويسريا ، ولم يكن اسمه الحقيقى البرت أورتيل وان كان هذا هو الاسم المكتوب فى جواز سفره ، وكان الرجل هو «الفريد وهرنج» Alfred Wehring ضابط بحرى سابق فى البحرية الالمانية سنة ١٩١٨ لم يكن هناك أى متسع للضباط القدامى ، وقضى وهرنج السنوات الاربع التالية بلا عمل •

وفى سنة ١٩٢٣ عندما كان الاميرال كناريس يعيد انشاء نظام الجاسوسية الالمانية كانت لديه فكرة طيبة عن الضابط البحرى السابق ومن ثم استدعاه وعينه فى منظمته ، كان عملا جديدا بالنسبة له ولكنه كان شاكرا لان يعاود النشاط من جديد •

وبأوامر كناريس عمل وهرنج ممثلا لاحد مصانع الساعات الالمانية وبهذه الوسيلة زار عدة بلاد أوروبية بتعليمات ليجد أى تفاصيل عن منشئات بحرية جديدة ، وبعد ثلاثة سنوات أرسل الى سويسرة ليتعلم السويسرى الجنسية ثم بعث به الى بريطانيا ، وبعد قليل ترل وهرنج مدينة « كير كوول » فى أقليم «أوركنى» على مقربة من سكابا فلو •

وسرعان مامهر وهرنج بعد أن تتلمذ على صانع سويسرى ماهر ، وزوده كناريس بجواز سفر سويسرى يحمل اسم البرت أوروتيل السويسرى الجنسية ثم بعث به الى بريطانيا ، وبعد قليل نزل وهرنج مدينة « كيركوول » فى أقليم «أوركنى» على مقربة من سكابا فلو •

وقد عمل فى البداية عند جوهرى محلى حثه على أن يعد قسما لاصلاح الساعات بدلا من أن يرسلها الناس الى «ليث» Lith لاصلاحها ، وكان عمله جيدا حتى أنه سرعان ما وصل الى الشهرة ، وعندئذ افتتح لنفسه حانوتا صغيرا فى طريق خلفى ضيق وكان يبيع فيه بعض البضائع الصغيرة والهدايا ويقوم باصلاح الساعات •

وبدأ الناس من حوله يحبونه كان رضى الخلق هادىء الطبع أمينا فى مظهره ، وكان كثيرون من عملائه يدعونه الى منازلهم وصار له اصدقاء كثير وفي سنة ١٩٣٢ اتم أورتل المدة الكافية قانونا وصار انجليزى الرعوية بحكم الاقامة المتصلة لخمس سنوات ٠

على أنه ربما كانت مشاعر الناس حوله تختلف لوأنهم عرفوا أنصانع الساعات الطيب الامين هــو ألماني الجنس وانه كان ضابط مخابرات فى أسطول القيصر ، وكان هناك الكثير الذى لا يعرفه عنه الناس من حــوله ، فهم مثلا لايعرفون أن « **قطع** » **المعلومات** التى يحصل عليها من عملائه الذين يجيئون الى حانوته لشراء الهدايا أو لاصلاح ساعاتهم تقيد بعناية فى كراسة يحفظها داخل خزانة خشبية مغلقة فى غرفة نومه التى تعلو الحانوت ، ولم يكونوا يعرفون أيضا أن هذا الراديو القديم كان يخفى جهاز أرسال قوى على الموجة القصيرة وأنه كان فى ليالى كثيرة بعد انتهاء ساعات العمل يصعد الى غرفة نومه ليرسل مايجمعه من المعلومات على جهاز الارسال اللاسلكى الى القبطان بارون فون بلو الملحق البحرى الالمانى بهولندة ، كما أنهم لم يحذروا أن هذه الخطابات البرئية المظهر التى يتسلمها من سويسرة انما تحوى تعليمات مرسلة بالشفرة من الاميرال كناريس ومن الخدمة السرية الالمانية ٠

وكان أورتيل يعمل بحذر حتى لايثير شكوك الناس باحاديثه ولا بشغفه بالبحر والسؤال عن السفن الكبيرة التى تدخل أو تخرج من سكابا فلو ولم يشكو حتى به عندما كان يزرع الارض على الساحل أو يحدق بمنظارة المكبر فى البحر الفسيح ، كانت الحياة فى كيركوول حياة سلمية هادئة فلم يكن من سبب لان يشكو بحماس وأعمال رجل هادىء جاء ليعيش بينهم ويعتبر نفسه واحدا منهم ٠ ثم أعلنت الحرب ٠٠

وفي يوم الاحد ذاك الذى لايمكن أن ينسى عندما كانت صفارات الانزار فى بريطانيا تبعث بصفيرها لتجربة اجراءات الدفاع المدنى فى أغارة جوية وهمية على بريطانيا ، فى ذلك اليوم جاء الى أورتيل خطاب يحمل طوابع وخاتم بريد سويسرة ، ولقد قال لاصدقائه الذين كانوا قد دعـوه لتناول طعام الغذاء ذلك اليوم انها رسالة من ابيه الشيخ ينبئه بأن أمه العجوز **التى بلغت الثمانين من العمر قد أصيبت بمرض خطر وأنها تصرخ مطالبة برؤية ابنها الصغير** وامتلأت عيناه بالدموع وهو يقول « قد لا أراها ثانية أن هذه الحرب لن تمنعنى من رؤية أمى العجوز ٠٠

وبعد يومين أثنين أبحر أورتيل من ليث على سفينة متجهة الى روتردام وقد أخفى بعناية فى (بطانة) سترته ومعطفه الخفيف الخرائط السرية والرسوم لسكابا فلو والتى رسمها فى ليال طويلة فى غرفة أعلى الحانوت ٠

وكانت الرسالة التى وصلته رسالة سرية من الاميرال كناريس يوجهه فيها لان يسلم كل مالديه من وثائق ورسوم الى فون بيلو فى هولندة ، وكان رئيس المخابرات الالمانية قد عرف منه أن الرسوم قد تمت ، ووصول الخطاب اليه يوم أعلان بريطانيا للحرب كان مجرد صدفه ، فلقد كان من المفروض أن يصله قبل هذا ولكنه تعطل ٠

وبوصوله الى روتردام أسرع الى فندق التجارة حيث طلب مقابلة الهر فريتز بورلر وكان بورلرهو العميل هـ ٤٣٢ فى الخدمة السرية الالمانية بهولندة الذى سافر به بالسيارة الى لهاى لمقابلة بارون فون بلو ٠

والقى بيلو نظرات سريعة على الرسوم حتى صاح فى دهشة ــ قبطان الفريد وهرنج أننى أهنئك لقد قمت بعمل طيب جدا ، سأرسل هذه الاوراق فورا الى الاميرال كناريس دون تعطيل للحظة واحدة هايل هتلر ٠

ورد وهرنج التحية ، وفى تلك اللحظة لم يكن هو صانع الساعات الهادىء الطبع الذى عرفه الناس فى كيركوول بل كان ثانية ضابط البحرية الالمانية بوجهه الجامد المتصلب ، وكان الشىء الوحيد الباقى فيه من طابعه القديم هو نظارته التى يشع من وراء زجاجها وميض عينيه ٠

ومع وصول الوثائق الى أيدى رؤسائه كان من الممكن أن تتصور أن مهمة أورتيل قد انتهت وانه من الممكن أن يختفى ولكن النازيين كانوا أمهر من أن يسمحوا له بأن يتبخر مع الريح ، فان غيابه قد يثير الشكوك وقد يسبب فشل المهمة فى آخر مراحلها ، ثم أنه لازال هناك الكثير الذى يجب أن يتم **ذلك هو آخر المعلومات التى يجب استمرار الحصول عليها حتى قبل تنفيذ المشروع بساعات قليلة ٠**

وفي مدى أسبوع واحد عاد صانع الساعات المزيف الى مسرح عمله يرتدى رباط عنق اسود وتلقاه الناس بالعطف وراحوا يحاولون التخفيف من احزانه وهو يقص عليهم كيف قضى الى جـوار فراش أمه السـاعتين الاخيرتين من حياتها ٠

وفي الصباح التالى كان المارة يرون على حانوت أورتيل علما بريطانيا وكان يقول لهم في زهو ونبلاء ٠

ـ انني مواطن بريطاني ومن الضرورى أن أظهر ولائى لقضية الحلفاء ولم يكن أورتيل جاسوسا ماهرا فحسب ، بل كان أيضا ممثلا ناجحا وراح الرجل فى هدوء يعني بالحصول على معلومات عن آخر تنظيم للدفاعات عن الميناء وأى السفن الكبيرة التى تستخدمها ، **وعرف اذ ذاك انه قبل بداية العمليات العدائية قد ثبت ضعف الشباك التيتوضع لسد طريق الغواصات بفعل التعرية والتآكل Erosion وعرف أن نظاما دفاعيا قد أعد بسرعة وان المداخل السبعة قد اعيد سدها وعرف أن (كيرك ساوند) أحد خطوط الاقتراب الشرقية لم يتم سده بوساطه اسلاك الكابل وانه فيما عدا السفن الثلاث المغرقة في الماء لايوجد مايسد طريق أى غواصةتدخل القناة القريبة الغور ٠**

وفي يوم من أوائل أيام اكتوبر عندما عرف أورتيل هـذه المعلومات الهامة أغلق حانوته مبكرا ثم صعدا الى غرفته وأخرج جهاز اللاسلكى كانت اللحظة الحاسمة قد جاءت وهذه السنوات التى قضاها فى التلمذة والعمـل قد وصلت الى نهايتها **ان ساعة تقرير المصير قد حلت ٠**

وبدأ أورتيل آشارته ثم انتظر في أعياء حتى وصله الرد ببدء الارسال ثم بعث أورتيل بالرسالة التى أخبر فيها النازى بان سكابا فلو فى الواقع بغير دفاع جدى ٠

وارسلت الرسالة الى الاميرال دونتز الذى قرر ضرورة الاسراع فى العمل ، وليس هذا لان كيرك ساوند يمكن أن تغلق بل لان البارجتينالتين قال أورتيل انهما فى الميناء (آرك رويال) و (ريبلص) قد تتركاها الى البحر الفسيح ٠

وقرر دونتز ضرورة توجيه الضربة فى الايام القليلة القادمة .

وهكذا فى ليلة ١٣ من أكتوبر سنة ١٩٣٩ خرجت من كييل ملتحقة بالظلمة الغواصة ى ــ ٤٧ ، وكان الجو لطيفا والرؤية جيدة وكان القبطان بريين هو وحدة الذى يعرف الهدف الذى خرجت له الغواصة وكان قد أمر بأن لايكشف عن هذا للجنود حتى يكون قد خرج الى البحر الفسيح .

وعندما اقتربت الغواصة من المدخل الشرقى من سكابا فلو وكان الفجر لازال بعيدا دقت الاجراس فى غرف الآلات لتهبط الغواصة تحت سطح الماء ، وفى هذه اللحظات كان الامر كله يتوقف على مهارة بريين وقدرته على الملاحة ، وكان الجزر كبيرا فى المدخل الضيق وهذه الاسلاك القوية معدة لاصطياده ، وفجأة وصلت الغواصة الى القاع الرملى بين حاجزين وأصطدم جنبها الايسر بأحد الاسلاك .

ولكن بريين لم يجعل الحادث يسيطر عليه وأصدر أوامره بالارتفاع لسطح الماء واندفعت الغواصة بقوة فتخلصت من الاسلاك القوية وبرزت لسطح الماء ، وحرك القبطان البيرسكوب ليرقب أمامه البارجة رويال أوك على مقربة من الساحل ، وسارت الغواصة ى ــ ٤٧ ببطء حتى بات الهدف واضحا جدا أمامها ، وأصدر بريين أمره باطلاق الطوربيد وأحس بالاهتزاز السريع لتخلص الطوربيد القاتل من مكمنه ومرت خمس ثواني فعشر ثم خمس عشرة ثانية وأخيرا وثب عمود من الماء أخفى مقدمة البارجة .

وأصدر بريين أمره باطلاق الطوربيد الثانى فأصاب آرك رويال فى منتصفها ثم أطلق الطوربيد الثالث وانفجرت اذ ذاك مخازن الذخيرة فى أرك رويال ، ووثبت بواعث الانوار الكاشفة الى الحياة لتزرع الماء بازرعتها وأخرى لتضىء سطح البحر ، وبدأت قوارب الطوربيد وسفن أصطياد الغواصات تدير محركاتها .

وفى اثناء هذا كان بريين يدير غواصته ليخرج بها فى أقصى سرعة الى البحر الفسيح من بين الحواجز التى تسد مداخل الميناء ، تاركا وراءه أرك رويال لتلقى مصيرها فى البحر بعد ساعة وسبع عشرة دقيقة من أصابتها بالطوربيد الاول .

لقد قام بريين بعمل جرىء مدهش ولكن لاشك فى أن النصر الحقيقى انما يرجع الى الفريد وهرينج فلولا عمله بصبر لما كان من الممكن الوصول الى المعلومات الدقيقة التى مكنت بريين من تنفيذ مهمته الخطيرة ٠

ولكن ماذا حدث لهذين الرجلين ؟

لقد مات بريين وهو يقوم بأعمال الدوريات فى ربيع سنة ١٩٤١ ، أما وهرينج أو البرت أورتيل فقد ترك كيركوول بعد الحادث بوقت قصير ، كان يعمل فى حانوته حتى آخر لحظة ثم اختفى فجأة كما جاء ، ويقــول البعض أن غواصة المانية أخذته الى كييل ولكن الحقيقة لم يعرفها أحـــد فلم يوجد أى شىء عنه فى الوثائق التى ضبطها الحلفاء بعد هزيمة ألمانيا كما لم يوجد أى أثر يدل على استخدامه فى مهمة أخرى ٠

٢

جاسوس لحساب الروسيا

الرجل الذى أطلق عليه اسم « لوسى »

لم يكن فيه ما يميزه ، كان متوسط العمر ومتوسـط الطول ، وقـد حجبت نظارته السميكة عينيه حتى لا يعرف لهما وصف ، وهو بالنسبة للمراقب العادى يبدو كصراف فى بنك أو صاحب متجر صغير ، أو قـد يكون أحد خبراء صناعة الساعات ، وفى الواقع أنه كان يمكن أن يكون أى انسان الا ما كانه بالفعل ، جاسوس ! ومن جواسيس الاتحاد السوفييتى أثناء الحرب العالمية الثانية ٠

كان الرجل فى جملته أبعد من أن يكون جاسوسا حتى ولا على مثال الصورة التى تبدو على شاشة التليفيزيون ، ولكن رودولف روسلر الذى عرف بالاسم المستعار « لوسى » كان جاسوسا له شأنه ، وكان خلف وجهه الهادىء يكمن عقل حكيم لجاسوس سرى كان لـه أعظم الفضـل فى انزال الهزيمة بقوات هتلر فى الجبهة الشرقية ، وقبل أسبوعين من قيام ألمانيـا بغزوها المفاجىء للاتحاد السوفييتى كان « لوسى » قد حذر موسكو من أن هجوما عاما سوف يشن فى فجـر يوم ٢٢ من يونيو سـنة ١٩٤١ ، وفى رسالة بالشفرة أرسلت بالراديو على موجة سرية أورد تفاصيل تجمعـات الجيش الالمانى ، وتحركات القوات والاهداف الاوليـة لهـا ثم الاماكن التى يتوقع الالمان أن يوجه اليها الروس ضرباتهم المضادة ٠

وأغلب الاحتمال أن روسلر كان من أوسع العملاء الاوروبيين دراية وأكثرهم استحقاقا للثقة فى كل شبكات الجاسوسيـة السوفييتيـة ، ومن مخبأه فى سويسرا المحايدة الصغيرة استطاع هـذا الرجل المدهش حقـا أن يتسلل الى أدق الاسرار فى القيادة العليا النازية ، أما كيف فعل ذلك أو بأية وسيلة تمكن من الحصول على مثل ما حصل عليه من معلومات حيوية

فأمر لم يستطع أحد معرفته ، وكان الرجل الذى أطلق عليه اسم «لوسى» لانه كان يعمل من « لوسرن » Lucerne فى حد ذاته نسيجا من طراز وحده لا مثيل له ٠

وبدون شـك كان الدافع وراء عمله كجاسوس لحساب السوفييت كرهيته الشديدة للحكم النازى ، ولكل ما يمثله هذا النظام ، وربما كان من الممكن أن يتعاون مع المخابرات الامريكية أو البريطانية لو ساعدته الظروف واتصلت به اياهما أولا ، وكانت مقابلة عارضة فى « لوسرن » فى مستهل سنة ١٩٤١ هى التى ساعدت السوفييت على كسب خدماته ، وحتى فى ذلك الوقت فقد فرض شروطه الخاصة ، ووجد رؤساء حلقات الجاسوسية أنفسهم مضطرين الى قبولها ٠

وكان رودولف روسلر يهوديا المانيا يحظى بمركز مرموق فى الدوائر المسرحية فى برلين قبل أن يقفز هتلر الى الحكم ، وكانت شهرته كمخرج شهرة عالية وكان أصدقاؤه كثيرون من ذوى النفـوذ ، فحطم قيـام الرايخ الثالث حياته ، وهرب روسـلر الى سويسرا حيث بدأ يبنى لنفسـه حياة جديدة فعمل كصحفى وكمراسل أجنبى لبعض الصحف ٠

وفى لوسرن قابل صديق قديم يحمل اسم شيندر ، كان يعمـل فى ذلك الحين مترجما فى مكتب العمـل الدولى ، ويكسـب قـدرا اضـافيا صغيرا من المال من جانب آخر بعمله كضابط ومخبر لفرع الكومنترن وشبكة الجاسوسية السوفييتية فى سويسرة ٠

وفى أثناء احتساء عدد كبير من الكؤوس من الشراب عرف شيندر أن روسـلر يعمـل كمراسل حـربى لعـدد كبير من الصـحف السويسرية والنرويجية ، وأنه منح تصريح اقامة فى سويسرا مقابل تزويد هيئة الاركان العامة السويسرية بمعلومات عن مواقع الجيش الالمانى ٠

فسأله وهو يفكر بسرعة « كيف تستطيع الحصول على معلوماتك » ؟ فابتسم روسلر ابتسامة باهتة وعيناه الشاحبتان تتحركان خلف منظـاره وأجاب : « لازلت أحتفظ بعدد كبير من الاصدقاء فى ألمانيـا وبعضهـم فى الجهاز النازى نفسه وهم أصدقاء قدامى لا تنسى ذلك » ٠

وأدرك شنيدر قيمة وصول هذه المعلومات لرؤسائه فى موسكو ، سيما اذا كانت انتصار ألمانيا الهتلرية في أوروبا سيغريها على توجيه آلة حربها نحو الاتحاد السوفييتى ، فاقترح أن يضيف روسلر الكثير الى ما يكسبه بتزويد المخابرات الروسية بالمعلومات قائلا :

ـ وسوف لا يتعارض هذا مع عملك لحساب هيئة أركان الحرب اذ من شأن هذا أن يكون الحماية التامة والامن لك » ثم تابع حديثه : « وفى الواقع كل ما نحتاج أن نفعله هو أن يتيسروصول نسخة من نفس التقارير الى السلطات السوفييتية » ٠

فأخذ الهر روسلر يرتشف الشراب في هدوء مفكرا وقال بعد برهة « أوافق ولكن بشرط واحد فقط وهو ألا يكشف الستار عن اسمى الى موسكو » فسوف أوصل جميع معلوماتى عن طريقك واذا حدث أن كشفت عن شخصيتى فسأفسخ الاتفاق هل فهمت ؟ لا أسماء تحت أى ظرف من الظروف ٠

وطوال أربع سنوات من سنة ١٩٤١ حتى انهيار هتلر فى شهر مايو سنة ١٩٤٥ نفذ الاتفاق الشفهى بين روسلر والرفيق شنيدر بمنتهى الامانة ، فلم يعرفه رؤساء شبكة الجاسوسية فى موسكو ولا آلان دالاس رئيس شبكة الجاسوسية الامريكية فى سويسرا الا باسمه المستعار « لوسى » ٠

وكانوا فى غاية الريبة فى البداية من جراء هذا العميل الذى لا اسم له ، والذى أصر على أن يحيط نفسه بغلالة من الغموض ، فهل هو عميل يعمل على الجانبين ساقه اليهم النازيون فى دهاء بغرض امداد الكرملين بمعلومات مزيفة ؟ ولكن سرعان ما ثبت أن شكوكهم لا أساس لها ، وأخذ « لوسى » يمدهم يوما بيوم بمعلومات لا عن تشكيل وقوة الجيش الالمانى فحسب بل كذلك بقوات السلاح الجوى والمشروعات العلمية وانتاج الصواريخ المجنحة ، وبكل ما يتصل بالآلة الحربية النازية كلها ، وقبل أن تستعمل القنابل الطائرة ضد بريطانيا بوقت طويل زود لوس القيادة العليا السوفييتية بمعلومات عن صناعة هذه القنابل الطائرة ، وبتركيبات الصواريخ الالمانية ، وكان من الواضح أن هذه المعلومات الحيوية لا يمكن أن تأتى الا من داخل وزارة الحرب الالمانية ذاتها ، وأن أخبار شارعى ويلهلمستراس ، و ، بوندستراس لا يمكن الوصول الى شىء منها الا عن طريق لوسى ٠

والى حد كبير على التحقيق كان رودولف روسلر هو العميل الوحيد المجهول الذى قبله الروس وسمحوا له بالعمل معهم وفى مقابل ذلك كان يتلقى ٧٠٠٠ فرنك سويسرى أجرا له على ذلك فى الشهر ، بالاضافة الى علاوات خاصة ، وكانت تخرج معلوماته المنتظمة القيمة المستديمة من قلب الرايخ نفسه ، ولعبت دورا لا يقدر فى انتصارات الروس الكاسحة فى الجبهة الشرقية ، وفى انزال الهزيمة النهائية بقوات هتلر المسلحة .

ولم تضع نهاية الحرب فى أوروبا نهاية لعمل روسلر كجاسوس على الرغم من أنه لم يعد يعمل لحساب موسكو لان الجاسوسية كانت مربحة جدا بحيث لا ينبغى تركها بعد تسليم المانيا ، بلا قيد ولا شرط ، وبعد انتحار الفوهرر تحت أنقاض دار المستشارية فى برلين .

ظل روسلر فى لوسرن حيث عمل مديرا لدار للنشر ، وكان غطاؤه ممتازا لنشاط سرى آخر وأخذ يبحث عن « زبون » آخر يعمل له ، ولم يمض وقت طويل حتى عثر على واحد : تشيكوسلوفاكيا ، وبمهارة وحذق الخبير نظم روسلر جهاز للاعلام لتزويد المخابرات التشكية بتفصيلات عن قوات الاحتلال الامريكية والبريطانية فى ألمانيا الغربية والقوات المتحالفةفى الدانمرك .

وكان زميل ورفيق روسلر فى المحالفة الجديدة رجل فى الثالثة والاربعين من عمره يدعى اكسافير شنيبر وهو صحفى سويسرى ، قام بدور الوسيط والمراسلة الشخصى ، وبين سنة ١٩٤٧ وهى التى بدأت فيها الخدمة وسنة ١٩٥٣ عندما ألقى القبض على الرجلين بواسطة رجال الشرطة بالاتحاد السويسرى أمكن توصيل ١٦٠ تقريرا (أى بمتوسط تقريرين فى الاسبوع الواحد) مخبأة فى التين وعلب العسل على شكل أفلام مصغرة ترسل (الى مساعد الملحق العسكرى التشيكى فى بيرن ، ويمكن الحكم على الاهمية التى أضفاها التشيك على هذه التقارير من الاجر المرتفع الذى تلقاه روسلر مقابل عمله ، فباعترافه نفسه عندما قدم للمحاكمة قال أن المبلغ كان ٤٨٫٠٠٠ فرنك سويسرى « أى ما يوازى ١٢٫٠٠٠ دولار » .

ويبدو من الغريب أن يستطيع هذا الجاسوس السرى اللامع تفادى الوقوع فى الاسر طوال مدة قيامه بهذا النشاط أثناء الحرب لحساب موسكو ثم أن يقع فى قبضة رجال البوليس بعد ثمان سنوات من صمت المدافع والتزام قاذفات القنابل مطاراتها ، اذ لم يكن من المحتمل أن يحدث هذا الا بضربة من ضربات الحظ العاثر .

كان روسلر قد أرسل فيلمين فى علبة من علب العسل الى عنوان مستعار فى مدينة دسلدروف وكان من المفروض أن يسلما من هناك الى مراسلة من العاملين مع المخابرات التشكية ، وبمحض الصدفة البحتة كان الشخص الذى فتح الباب لرجل البريد غريبا لا يعرف شيئا عن الاسم المعنون الطرد باسمه ، ولم يقبل الطرد ، وفى النهاية ردته السلطات البريدية وأخذت تقتفى أثر مرسله فى لوسرن ٠

وبصفة عامة لم يكن لدى سلطات البريد السويسرية ما يجعلها تشك فى علبة عسل تبدو عليها مظاهر البراءة وارسلت الى عنوان خاطىء ، أو هكذا خيل لها ولكن هذا هو ما حدث بالفعل وربما كان سبب ذلك أن أحد موظفيها تذكر علبة مماثلة سبق أن أرسلت فى فترات مختلفة الىدسلدروف وقبلت جميعها ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون العنوان خطأ ٠

فتحوا العلبة وظهر تحت المادة اللزجة الفيلمان وبالفحص وجد أن أحدهما يحتوى على رسوم لمطارات السلاح الجوى الملكى فى شمال الراين بمقاطعة وستفاليا ٠

فألقى القبض على روسلر وعلى زميله شنيبر ووجهت اليهما تهمة التجسس ضد الدول الغربية ، فأنكر روسلر التهمة وأعلن أن معلوماته ليست سرية وأنها فى أغلبها مستمدة من المقالات الصحفية واعترف أنه جمع ٢٠٫٠٠٠ مقالة منها من الصحف الغربية ٠

وقال أن هذا لا يشكل تهمة جاسوسية وكانت عيناه ترتعدان بسرعة خلف منظاره ، اذ أن مثل هذه المعلومات متاحة لكل انسان الا أن المحكمة لم تقتنع بهذا التفسير تماما ٠

وحوكم روسلر وشنيبر أمام محكمة سوسرية فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٣ وأثناء سير المحاكمة فى دار بلدية لوسرن أخبر روسلر القضاة الخمسة بأنه لم يكن يعمل ضد أى دولة أو أى شعب بل ضد اعادة العسكرية الى ألمانيا وأعلن شنيبر أنه يشترك معه فى نفس هذه الدوافع الروحية ٠

وانفجر هذا الرجل رودلف روسلر الرجل الهادىء الوديع باكيا عندما سمع المدعى العام الدكتور أوتو هاينى يطالب بسجنه ستة عشر شهرا يبعد بعدها من سويسرا لمدة لا تقل عن خمس سنوات ، ولكن مع ذلك لم توافق المحكمة على مثل هذه العقوبة القاسية ٠

وعلى الرغم من ادانة روسلر بتهمة التجسس العسكرى لحساب التشيك ضد مصالح بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا والدانمرك وجمهورية ألمانيا الغربية ، فقد حكمت عليه المحكمة بالسجن لمدة عام وقضى منها ٢٤٢ يوما فى انتظار المحاكمة ثم رفضت المحكمة طرده من البلاد ٠

أما زميله فى المؤامرة اكسافير شنير فقد عومل معاملة لينة بالمثـل ، وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر فقط ٠

وعند اعلان الحكم على روسلر قال رئيس المحكمة القاضى الاتحـادى بول كورودى انه بالرغم من أن المتهم قد أساء بدون شك استغلال الكرم السويسرى الا أنه لابد من أن نتذكر أنه كان يعيش فى البلاد لفترة تزيد على العشرين سنة ، وأنه قد أدى خدمات قيمة فى أثناء الحرب وبالاضافة الى ذلك فقد كان بدون جنسية وأن طرده سيكون عقوبة لا تتناسب اطلاقا مع الجريمة ٠

وفى الواقع لم تكن المخابرات السرية السويسرية جادة بالمرة فى تقديم روسلر الى المحاكمة ، فهو طوال مدة الحرب لم يكن فقط مصدرا موثوقا به من ناحية المعلومات التى يأتى بها عن نوايا ألمانيا تجاه سويسرا ، ولكنه كان يقيم كل قصاصة من الورق تحتوى على معلومات وتصل الى هيئـــة أركان الحرب السويسرية من المصادر الاخرى ، ففى الواقع نجد أنه كمـا كان يمد موسكو بتفصيلات عن قوات ألمانيا المسلحة فقد قام بدور التقدير والتحليل للمعلومات لمدير للمخابرات العسكرية السويسرى والذى كان يعرف الكثير عن اتصالاته بالجهاز السرى الروسى ٠

وكان رجـال البـوليس السويسرى هم الذين أصروا على الوصـول بالمسألة الى نهايتها ، وقد كانوا محقـين فى ذلك بلا شـك ، لان الحيـاد السويسرى يتطلب ألا تكون الدولة الصغيرة ميدانا للمخابرات المختلفـة فضلا عن أن القانون السويسرى لا يسمح بأية امتيازات أو حصـــانات اضافية للأشخاص الذين يتمتعون بضيافة سويسرة ٠

ومن النادر أن تجد جاسوسا عالميا قد ترك أثر على بلدين فى وقت واحد ، الا أن رودلف روسلر ـ ذلك الرجل الذى أطلقوا عليه اسم لوسى ـ فعل ذلك بالضبط ، وفعله بكفاءة لا مثيل لهـا وبعقلية نفـاذة جعلتـه يتجسس تجسسا مزدوجا ٠

٣

« جراند هوتيل » فى جودسبرج

أخذ الشاب من نافذة حجرته فى فندق « هاميس » فى جودسبرج احدى ضواحي بون عاصمــة ألمانيا الغربية ، يلاحظ السيدة شارلوت وولبريخ صاحبة الفندق حتى خرجت فيما كان يبدو لشراء حاجياتها ، وفى اللحظة التى كانت تختفى فيها عن الأنظار ، كان يهبط الدرج بسرعة الى حجرة من حجرات الطابق الأول ثم أدار المفتاح فى القفل بهدوء وراح يعمل لمدة نصف ساعة بسرعة وبمهارة داخل الغرفة .

وكنقطة للبــداية كان يفحص كل جزء من أجــزاء الاثاث والمفــارش وأحبال الغسيل وأبواب الدولاب المزدوجة وحتى المراتب الزنبركية عــلى الفراش . ويفتح الادراج ويدق على جوانبهــا عســاه يجد فجوات سرية ويتحسس بأصابعه المرهفة ما هو خلفها ، ولم ينتهي تحسسه هذا الى شيء وبعد ذلك وجه اهتمامه الى الستائر الطويلة الكثيفة المعلقــة فى كورنيش على جانبى النافذة ووجد أنها هى الاخرى بريئة من أى شيء يمكن أن يثير أدنى الشكوك والريب .

ووقف الشاب للحظات قليلة فى وســط الحجرة ، وهو يعض شفتيه ويدور بنظراته الفاحصة فى أرجاء الغرفة ، وفجأة لاحظت عيناه الحــادتان أن الدولاب المصنوع من خشب الماهوجنى لم يكن ملتصقا تماما بالحائط ، فجانب منه بعيدا قليلا عنه بعدا يصل الى بوصة أو ما يقرب من ذلك ، الا أن ذلك زوده بفكرة من الفكر ، فبــذل كل جهده لزحزحة قطعــة الاثاث الثقيلة هذه لمسافة تسمح له بحشر نفسه خلفها وقد وجد فى الجدار وعلى ارتفــاع يقارب طول رجل متوســط وخلف زخرفة الورق الملتصق عــلى الحائط ، وجد ثقبا لا يزيد قطره على قطر زرار صغير فدفع فيه برأس قلم فضى رفيع فشعر بأن القلم قد اصطدم بسطح صلب ناعم فقطع بمطواته وبعناية جزءا صغيرا من ورق الحائط ليكتشف ميكروفونا صــغيرا مركب تركيبا يدل على المكر والدهاء بحيث يستطيع تسجيل أية محادثات تحدث فى الحجرة .

أثبت هذا الكشف الشكوك التى ثارت فى نفسه لبعض الوقت ٠

ففندق « هاميس » الذى تبدو عليه البراءة والذى تحتوى سجلاته على أسماء رجال الحكومات الأجنبية ولا سيما البريطانيين والأمريكيين لم يكن فى الواقع غير مركز من مراكز الجاسوسية٠ ولابد وأن يكون قد انكشف الستار عن عدد كبير من الاسرار من جانب النازلين فى هذه الحجرة والذين كانوا يفرغون ما فى صدورهم وهم لا يحسون بهذه « الأذن » المخبأة وراء هذا الدولاب الضخم ٠

ابتسم الشاب فى صرامة فى أثناء زحزحته للدولاب الى الخلف ووضعه فى مكانه الاصلى وكان اكتشافه نصرا آخر يشرف رئيسه رينهارد جهلين ونكسة أخرى من النكسات بالنسبة لغريمه أرنست وولويبر ٠

وألمانيا اليوم مكان تصارع فى ميدان الجاسوسية بين الحمر والمناهضين للحمر ، ويقال ان مدينة برلين المقسمة تخفى وحدها ما لا يقل عن ثمانية وعشرين حلقة من حلقات التجسس ، ذلك لأننا نجد عددا لا يحصى من النساء والرجال ينغمسون حتى ذؤابتهم فى أعمال لا تؤثر على أوروبا ذاتها بل وعلى أمريكا فى أقصى الغرب ثم على الروسيا والصين فى أقصى الشرق ، ومن أربع سنوات مضت وقف خلف هذا الصراع رجلان صارمان هما جهلين وأرنست وولويبر وقد عرف كل منهما بالدهاء والصرامة ، حتى كان كل منهما أستاذا لامعا فى فنون الجاسوسية ٠

كانت السيدة شارلوت وولبريخ آلة فى يد أرنست وولويبر أقدر عملاء موسكو الأجانب ، وكان قد لاحظها فى مارس سنة ١٩٥٦ ٠

فهى بعد أن ترملت فى الحادية والستين افتتحت فندقها فى ضاحية جوسبرج بعد انتهاء الحرب مباشرة ، وكان فندقا مريحا بسيطا حجراته فسيحة ، ونظرا لقربه من عاصمة ألمانيا الغربية أصبح ملتقى معترفا به لمبعوثى الدول الاجنبية الذين يزورون ألمانيا ، وكانت السيدة وولبريخ فخورة بسجل فندقها وقائمته من الاسماء اللامعة ٠

وفى يوم من الأيام ذهب الى فندقها رجل قيل عنه انه لاجىء من المنطقة الشرقية وطلب أن ينزل به ، وكان اليوم باردا والشمس غائبة وراء سماء مليئة بالمياه وبدا على الطالب أنه فى حاجة الى الدفء والراحة ، وفى الحال وضعت السيدة وولبريخ تلك المرأة الحنون حجرة تحت تصرفه ٠

وفى الحقيقة لم يكن القادم الجديد لاجئا بالمرة بل جيهارد روللر عميل من عملاء الجاسوس الداهية وولويبر فى ألمانيـا الشرقية ، وبعد عدد من المحادثات مع صاحبة الفندق عرض عليها فكرة تهيىء لها الفرصة لكسب بعض المال لنفسها دون أن تبذل أى مجهود فى مقابل ذلك ، وعرض عليها فى بساطة فكرة تتلخص فى وضع ميـكروفونات سرية فى حجرات النوم بفندق هاميس التى يستعملها الموظفون الاجانب ، وتوصل بأجهزة تسجيل فى حجرة من الحجرات العليا ٠

تحدث الهر روللر فى نعومة واقناع ، وقال : سوف يكون عملك هذا خدمة رائعة فى صالح الشعب وهى بسيطة للغاية من ناحيتك أنت فمـا عليك الا خلع الاشرطة من الجهاز ووضعهـا فى علب من علب المأكولات المحفوظة بحيث لا يبدو عليهـا أى ضرر ثم تصفيفهـا فى سبت السـوق وتذهبين الى مكان معين يبعد عن هنا بمسافة ساعة بالقطـار وهنـاك تسلمينها الى شخص ينطق بكلمة السر وسوف تعرفين كلمة السر مقدما ٠

فهمهمت السيدة وولبريخ قائلة : « ولو رفضت تنفيذ مخططاتك ؟ »

اهتز الهر روللر وزم شفتيه وقال فى هدوء : « بالطبع لا تحبـين أن يحدث لك شىء أو لفندقك أليس كذلك ؟ »

وهكذا أصبحت صاحبة فندق هاميس البالغة من العمر التاسـعة والستين البيضاء الشعر جزءا من لعبة كبرى شريرة ٠

وسارت الأمور سيرا حسنا لفترة من الوقت ، فركبت الميكروفونات فى أماكن سرية واستمر المبعوثون الاجانب فى ترددهم عى النزل المريح فى ضاحية جودسبرج وفى حجراته التىتبدو منعزلة ، كانوا يناقشون المسائل السرية التى تصوروا أنها بعيدة عن آذان أى انسان ، وأخذت السـيدة وولبريخ تذهب بانتظام مرة كل أسـبوع ومعهـا سبت السوق الى مكان الالتقاء المتفق عليه حيث كانت تسلم علب الأغـذية الى واحد من عمـلاء الهر وولويبر المنتظرين وفى مقـابل ذلك كانت تتسـلم رزمة من رزم الماركات الألمانية ٠

ثم يصغى الهر ايرنست وولويبر بعناية فى مكتبه الفسيح المحروس جيدا برجال البوليس السرى فى مبنى ضخم ببرلين الشرقية الى الاشرطة

التي جمعتها السيدة وولبريخ • وكانت عيناه الجامدتان تشعان بالرضى كلما انتهى من سماع شريط من الأشرطة •

ما أروع سير الخطة وسوف يشتاط جيهلين غضبا اذا عرف أن كل كلمة تقال فى حجرات النوم فى فندق هاميس ، وأن كل سر يختار النزلاء مناقشته ، كان ينقل بانتظام الى رئيس شبكة التجسس بألمانيا الحمراء بوضوح كما لو كان وولويبر حاضرا فى أثناء كل محادثة ، ولكن من الذى يساوره الشك فى أن السيدة العجوز وولبريخ يمكن أن تكون جزءا من منظمته ؟

ولقد تغيرت بحكم الضرورة أنماط العمل فى المبارزة التى تنتهى فى الجاسوسية الحديثة واليوم لا يمكن لسيدة مثل وولبريخ أن تثير شكوك مثل الشكوك التى تثيرها فتاة جميلة فضولية ، فتاة تتجاذب أطراف الحديث مع رجل فى حفل كوكتيل •

ومع ذلك لم يكتب للسيدة وولبريخ أن تتمتع بالحصانة الى ما لانهاية فقد استطاع مخبر أن يجمع عدة مظاهر ثم أن يخرج بنتيجة صحيحة ، وذهب ليقابل الهر جيهلين وأخبره فى هدوء أن السيدة العجوز تنقل معلومات استطاعت أن تلتقطها بطريقة ما من كبار الموظفين الذين ينزلون فى الفندق وصاح جيهلين وقد تجعدت جبهته وأخذت قسمات وجهه القاسى تتشنج : كيف ؟

هز المخبر رأسه وأجاب : « لا أستطيع الافصاح فكل ما أعرفه هو أن السيدة وولبريخ لها اتصالات منتظمة مع الجانب الآخر وأنها لا تفعل ذلك دون مقابل يا هر جيهلين » •

دفع راينهارت جيهلين بمقعده الى الوراء ثم دار دورة حول الحجرة ، وقال : « سوف نستجلى حقيقة الأمر ومهما كانت اللعبة التى تلعبها هذه المرأة العجوز فسوف نعرف أمرها وشكرا لك ! »

وبعد دقائق من مغادرة هذا الزائر استمر جيهلين يقطع المكان جيئة وذهابا ويداه فى جيوب سرواله ورأسه الشقراء مطأطأة وفى تفكير عميق ، والهر جيهلين يبدو للمراقب العابر بأذنيه الكبيرتين كأستاذ جامعى ألمانى يصارع من أجل حل مشكلة معقدة •

وفى أثناء الحرب الاخيرة تولى جيهلين ادارة المخابرات النازية فى روسيا وأوروبا الشرقية ، وعندما أصيبت قوات الفوهرر بالانهيار فى سنة ١٩٤٥ استطاع جيهلين الذى كان جنرالا حينذاك أن يهرب الى الغرب آخذا معه ملفاته السرية التى أخفاها فى جبال الالب البافارية ، وعقب التسليم الالمانى بقليل وقع فى أسر الامريكيين الذين سرعان ما أدركوا الاهمية الكبرى لأسيرهم الرفيع المقام ، ولقد ثبت للجميع بعد جمع الاستجوابات والأسئلة صحة معلومات جيهلين المذهلة ، فنقل بالطائرة الى واشنجطون ، لاجراء محادثات سرية مع خبراء المخابرات السرية الامريكية ثم عاد الى ألمانيا وهو يحمل أوامر بانشاء جهاز للجاسوسية تحت اشراف الامريكيين .

أصبحت منظمة جيهلين سلاحا قويا لا يقدر بقيمة فى الحرب الباردة بين الشرق والغرب وكلما كبرت وتضخمت زحف اليها عدد كبير من رجال البوليس السرى النازى للانضمام اليه ، وبالتصديق على وثيقة استقلال ألمانيا الغربية فى شهر يناير سنة ١٩٥٦ انتقلت منظمة راينهارت جيهلين رسميا الى اشراف المستشار أديناور ووزارة المالية فى بون ، واليوم أصبح لشبكة الجاسوسية القوية هذه عملاء فى كل جزء من أجزاء العالم .

ولا يوجد سوى القليل من وسائل التجسس الشيوعية التى لا يعرفها جيهلين ، لأن الروتين الذى تسير عليه الحلقتين المتنافستين متشابهة فى نواح عدة ، وكلاهما تستعمل أجهزة الارسال اللاسلكى والشفرات السرية وأنواع الحبر غير المرئية ، وأفلام التصوير التى تعتبر أعظم مساعدات التجسس قيمة ، ويحاول كلاهما التسرب الى شبكات تجسس غيره ، وذلك بواسطة وضع عملائه فى مصادر الاعلام ، وكلاهما بالطبع يلجأ الى غسل المخ لفك عقال الشفاه الصامتة ، ونجد فى الجانبين أن الحرب الدائرة يتحكم فيها قانون الغابة وتصل الى درجة من الانحطاط بحيث يقضى فيها على الحياة للحصول على المعلومات .

وجلس جيهلين فى مقعده ثانيا ووضع رأسه بين كفيه وتفكر فى السيدة وولبريخ وفى نشاطها ، وكان مدركا تماما لنوع الزائر الذى ينزل فى فندقها ، ولكن كيف يتسنى لها الحصول على المعلومات من مثل هؤلاء الزوار الكبار ؟

كان هناك طريق واحد لمعرفة ذلك . لابد من وضع صاحبة الفندق والمبنى كله تحت المراقبة الدقيقة ، وسوف تتطلب المهمة منتهى العناية ،

الا أن جيهلين لديه رجال على جانب كبير من الدهـاء واليقظة ويأتمرون بأمره ويعرفون الطريقة التى يعالجون بها الموضوع ٠

وفى صبيحة اليوم التالى وفى مقر قيادته فى بولاخ وهى ضـاحية من ضواحى ميونيخ أرسل فى طلب واحد من أعظم عملائه محلا للثقـة وكان شابا قد التحق بالجهاز عن طريق الخدمة المدنية الالمانية ، وتناقش الرجلان لمدة ساعة تقريبا ووصلا الى تفاق وكنتيجة لذلك قدم رجل فاخر الثياب حليق الذقن يبدو عمره بين الثلاثين والخامسة والثلاثين نفسه بعد ظهـر ذلك اليوم الى فندق هاميس فى ضاحية هودسبرج وطلب حجرة ٠

وأخبر السيدة وولبريخ بأنه المدير الجديد لمبيعات المنطقة لمؤسسـة الصناعات الكيميائية فى هامبورج وأبرز أوراقه ليثبت لها ذلك ٠

وفسر نفسه بابتسامة غير متحفظة وقال : « من المرغوب فى مثـل مركزى أن أحصل على عنوان فندق مشهور وهذا وهذا أفضل من مسكن خاص أو بنسيون من بنسيونات الدرجة الثالثة وأفضل أن أعتبر نفسى ساكنا مستديما اذا صادف ذلك قبولا لديك » ٠

لم تشاهد السيدة وولبريخ أى شىء يثير الشبهات والريب بالمرة فى ذلك الزائر الجديد ، فقد كان يرتدى ملابسا أنيقة ومن الواضح أنه متعلما تعليما جيدا وقد شجعها عرضه بالنزول فى فندقها بصـفة مسـتديمة وبشروطها هى أن تقبله فخصصت له حجرة مريحة ، فى الطابق العلوى تحت حجرة من حجرات السطوح المثبت فيها أسلاك الارسال ٠

ولمدة أسبوع تقريبا سار عميل جيهلين فى عمله بهدوء دون أن يكتشف شىء ، وأصبح صديقا مع صاحبة الفندق العجوز التى كانت له بمثـابة الأم وبدأ يقدم لها الهدايا الصغيرة من الصابون والروائح العطرية التى قال عنها انها عينات من انتاج مؤسسته ، فأحبته السيدة وولبريخ ولكنه اذا كان قد استحوذ على احترامها فانه لم يفز بثقتهـا بالتأكيد فهى لن تخطر أى انسان بأى شىء ٠

ولما حذره رئيسه من احتمال وجود ميكروفونات مخبأة (كان جيهلين يقظا من ناحية مثل هذه الآلاعيب وسبق له فى الواقع استعمالهـا هو نفسه فى بعض المناسبات) فى حجرته فقد قام بفحص حجرته فى الفندق

بدقة وحساسية الجاسوس المحترف ، وقد بذلت جهوده دون مكافأة اذ لم يظهر أى شيء ليبين أن الفندق كان بأى حال من الاحوال حلقة من حلقات وولويبر للتجسس .

وفى أثناء الاسبوع الاول هذا نزل فى الفندق موظفان كبيران من موظفي دولة مجاورة صديقة لفترة قصيرة ابان انعقاد مؤتمر عسكرى فى مدينة بون ، ومع ذلك لم يظهرا الا لماما فقد كانا يمضيان أغلب أوقاتهما فى حجرتهما يتجاذبان أطراف الحديث ويراجعان مذكراتهما الخاصة بجلسات المؤتمر ، وفى الليلة الثالثة والاخيرة من نزولهما فى الفندق استيقظ رجل جيهلين فجأة على صوت وقع أقدام فى الحجرة العلوية فوق حجرته فحملق فى ميناء ساعته المضيئة وكان الوقت قبل منتصف الليل بسبع دقائق ، وتعجب ماذا يمكن أن يفعله أى انسان فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل فى الحجرة العلوية ؟

ترك حجرته مظلمة وفتح الباب فتحة لا تزيد على البوصة أو البوصتين ووجد أن السيدة وولبريخ فى تلك اللحظة تهبط الدرج على أطراف أصابعها وفى الضوء الخافت المنبعث من مصباح يضىء فى اتجاه واحد لم يستطع المراقب أن يستبين أمر الشيء الذى تحمله فى يدها وتحضنه بشدة الى صدرها ، فانتظر حتى هبطت الى الدور الارضى ثم زحف فى صمت الى أعلى السلم وحاول فتح باب حجرته العلوية « فوق السطوح » وكانت مغلقة .

وظل يتحرك بخفة القط وشق طريقه الى الجزء السفلى حيث وجد قنديلا يضىء فى مكتب الاستقبال بالفندق وكان قد جهز عذرا مقبولا لو اكتشفت صاحبة الفندق أمره الا أن الحظ واتاه فقد وجد فتحة تهيىء له مكانا للملاحظة المفيدة ، يستطيع أن يشاهد منه خلال الجزء الزجاجى من المكتب ، وكانت السيدة وولبريخ مشغولة أمام منضدة بفتح شيء يشبه العلب المستديرة من النوع الذى يستعمله صناع علب الفواكه المحفوظة والى جانب العلبة شاهد شيئين ، وفى الحال عرف أنهما شريطين من أشرطة التسجيل .

وثنت فراو وولبريخ الغطاء وأفرغت محتويات العلبة في اناء زجاجى وجففت داخلها ثم وضعت شريطا من الاشرطة وضغطت على الغطاء وأعادته

الى وضعه الاصلى ولصقته بشريط لزج ، وكررت العملية مع العلبة الثانية وبعد ذلك وضعت العلبتين في دولاب وأغلقته وحملت اناء الفـاكهة ، من باب خلفى اتضح أنه ينتهى الى المطبخ ٠

لقد رأى عميل جيهلين ما يكفى ليفهم الاغراض التى يستعمل منأجلها فندق هاميس ، ففى مكان ما من الحجرة التى يشغلها الموظفان الرسميان حاليا والتى شغلها عدد كبير من الزوار الهامين فى مناسبات أخرى أخفى ميكروفون متصل بجهاز تسجيل ولم يخامره أى شك أن الجهاز قد ثبت فى حجرة السطوح ، وكان هذا هو السر الذى يختفى وراء الباب المغلق ٠

وكانت مهمة فراو وولبريخ هى تسليم الاشرطة التى تحمل المحادثات المسجلة التى تدور بين الزوار المطمئنين فى تلك الحجرة من حجرات الطابق الاول الى عميل آخر ٠ وكانت فى مثل هذه البســاطة ، فعلب المأكولات المحفوظة ، كانت مجرد ستار لنقل الاشرطة الى رجل الميدان التابع للجهاز السرى الشيوعى ٠

أصبحت المهمة التالية لعميـل جيهلين هى الوصول للحجرة العـلوية واكتشاف أمر الجهاز الذى أيقن حينئذ أنه كان مثبتا فيها ٠ وقد يكون عمله هذا شائنا ولكن لابد من فعله وبسرعة ، لأن رئيسه كان على درجة من الحكمة لا يكفى لاقناعه الا الادلة الملموسة ٠

وقد واتته الفرصة للحصول على مثل هذا الدليل فى اليوم التـالى فتظاهر بصداع شديد وظل فى الفندق وعقب تناول طعام الافطار مباشرة دفع الموظفان الرسميان أجر اقامتهما وغادرا المكان ، وشكرا صاحبـة الفندق على ما وفرته لهما من أسباب الراحة ٠

فسألها رجل جيهلين : « هل ينزل عنـدك زوار كثيرون من هـذا الطراز ؟ وقد تصادف وجوده أمام الخزانة عندما غادر الرجلان الفندق ٠

أجابت فراو وولبريخ : « قليلون جدا سوف ينزل عندى اثنان آخران بعد باكر ، ففندقى يتمتع بسمعة طيبة كما تعرف » ٠

وبعناية حول العميل المحادثة الى أمور شخصية وعلم أنفراو وولبريخ تنوى زيارة صديقة مريضة فى بلدة مجاورة ، بعد ظهر ذلك اليوم وبلغ بها الامر أن عرضت عليه اعطائه شىء يشفيه من صداعه ٠

فقال : « شكرا ولكن لا تجهدى نفسك اذ لدى بعض الحبوب واستطيع تناول بعضها » ٠

وعقب الغداء مباشرة شاهد المرأة العجوز وهى تغادر المكان لتقوم بمهمتها وسبت المشتروات معلقا فى ذراعها ، وحدث بالضبط أن فعلت ما توقعه فالصديقة المريضة لم تكن سوى عميل وولويبر الذى كان ينتظر استلام الأشرطة المسجلة ٠

وكان لابد من مرور أسبوع آخر قبل أن تبلغ صاحبة فندق هاميس حتفها ٠

وقال جيهلين بعد أن استمع الى تقرير عميله : « من الواضح أننا لابد أن نكف أيدينا حتى تقوم برحلتها التالية اذ يجب علينا أن نقبض عليها وهى متلبسة بالجريمة » ٠

وبعد ذلك بخمسة أيام خرجت فراو وولبريخ فى مهمتها التى تؤديها بأمانة من فندق هاميس لتعود قريبتها المريضة ، الا أنها لم تصل الى وجهتها هذه المرة ففى طريقها الى محطة السكة الحديد لركوب القطار الذى سينقلها الى مكان المقابلة مع عميل وولويبر وجدت رجلا طويل القامة يلبس قميصا رياضيا مفتوحا ويسير فى جوار عربة تقف فى انتظارها ٠

وقال لها : « هل أنت السيدة وولبريخ ؟ لقد أرسلت لتحذيرك ، لقد اضطررنا لتغيير خططنا ولابد لك من المجىء معى » ٠

فنظرت اليه السيدة العجوز بريبة وقالت : « ماذا تعنى ؟ والى أين أذهب ؟ من أنت ؟ اننى لم أرك من قبل » ٠ ترك الآخر باب السيارة مفتوحا وقال : « لا توجهى أية أسئلة ٠ اننى مبعوث الهر وولويبر افعلى كما أطلب منك : لابد من اطاعة الأوامر » ٠

ولفترة تقل عن ثانية ترددت السيدة وولبريخ الا أن هذه العبارة « لابد من اطاعة الأوامر » أقنعتها فى النهاية فركبت السيارة ٠

وكانت هذه هى نهاية عملها كجاسوسة ٠

فقد انتقلت الى منزل يقع فى أطراف ضاحية جودسبرج حيث فتحت العلب التى كانت فى السبت بدون ضجة ، وأخرجت ثلاثة أشرطة مسجلة وبعد استجواب رجل صارم جلس في مواجهتها ، وكان واحدا من كبار معاونى راينهارت جيهلين انهـارت وأدلت باعتراف كامل فقبض عليهـا ووجهت اليها تهمة السماح لعملاء ألمانيا الشرقية بالتجسس على الزوار الدبلوماسيين الذين ينزلون فى فندقها ٠

وفى نفس الوقت قامت فصيلة من الضـباط الذين يرتدون ملابس عادية ، بحملة تفتيش على فندق هاميس ووجدوا فى كل حجرة من حجرات النوم الرئيسية ميكروفونات مخبأة ، وفى حجرة السطوح وجدوا جهازا للتسجيل يمكن توصيل كل منها به ٠

قدمت السيدة شارلوت وولبرايخ الى المحاكمة فى شهر أكتوبر سنة ١٩٥٦ بتهمة الخيانة لاتصالها بجهاز التجسس بألمانيـا الشرقية فجلست في صمت فى المحكمة ونظرت الى المدعي العام عندما اسـتدار ناحيتهـا وقال : « لقد كنت شريكة بارادتك فى الخطة بأكملها فقد وافقت على تركيب الجهاز فى فندقك وكنت تعلمين وتقدرين الغرض من جمع أسرار الدولة الهامة » ٠

وفى النهاية وجدت مذنبة وحكم عليها بالسجن لمدة ستة عشر شهرا فأغمى عليها فى الحال عندما سمعت النطق بالحكم ٠

وكان القبض عليها وادنتها نصرا بالنسبة لجيهلين ، ولكن لا يستطيع أحد أن يعرف بوضوح أكثر من جيهلين ذاته أنه منالممكن فقدان للجواسيس والعملاء الشبان منهم والمسنين على السواء ، وأنه يوجد فى الجـانبين من يحل محلهم كلما حدث حادث لأحدهم ٠

٤

المتمرد الذى يمقت بريطانيا

خائن ! ، مرة بالسير ! ، سوف نعالج أمره كما يجب ! وهكـذا راح يتصايح بعض الجنود البريطانيين عندما تجمعوا حول عربة اسعاف من عربات الصليب الاحمر فى مركز قيادة الجيش فى لونبرج بألمانيا فى أمسية من الامسيات الاخيرة فى شهر مايو سنة ١٩٤٥ ٠

استلقى رجل قصير بدين بين الاعطية فوق مدادة فى العربة وقد تشوه وجهه من أثر جرح من الاذن اليمنى حتى ركن فمه الدقيق القاسى ، وكان هذا الرجل هو وليم جويس الذى اشتهر باسم « لورد هاو ٠٠٠ هاو » ٠

وكان لصيحات الغضب من جانب الجنود مبرراتها رغم كونها لا تتفق مع نظم الجيش لان جويس الذى كان صوته الساخر يتردد قائلا : « هنـا ألمانيا » قد أصبح مألوفا لعدد كبير من المستمعين ، وكان قد حاول لمدة طويلة أن يستنزف روح بريطانيا المعنوية ابان الحرب بسلسلة من الاذاعات للدعاية لالمانيا ٠

وكان نفس هذا الصوت الساخر الكاذب هو الذى وشى بنفسه الى ضابطين بريطانيين قبل ذلك بيومين فى وسط غابة بالقرب من الحدود الالمانية الدانمركية ٠ اذ خرج رجل من بين مجموعة من الاشجار وتحدث معهما بالانجليزية فكشف صوته فى الحال عن شخصيته ، فصاح أحدهما قائلا « هاو هاو » عميل جوبلز ، وأمسك به ، واذا بالمستر جويس يدفع بيديه فى جيب معطفه كما لو كان يبغى اخراج مسدس وعندما أخرجها ظهر خطأ تأويلهما ، فقد كان الرجل أعزلا من السلاح لانه وضع يده فى جيبه ليخرجها وبها جواز سفر المرور الالمانى الذى يحمل اسم ويلهلم هانس الذى سبق أن تسلمه عندما أصبح ألمانيا بالتجنس فى سنة ١٩٤٠ ، ولم يترك الضابطان فرصة لهذا الاسير الهام ، وقبل أن يستطيع جويس سحب يده أطلق أحدهما النار عليه فأصابه بجرح فى فخذه ٠

وعندما سمع عند وصوله الى لونجرح صيحات الجنود الغاضبين وشاهدهم ينظرون اليه شذرا عند نقله من عربة الاسعاف ، احتفظ داعية اذاعة هامبورج الخائن بمظاهر الاحتقار والاستهانة بالجنود الامر الذى جعله هدفا للنكات ، وموضعا للازدراء فى بريطانيا ، فقال فى خيلاء : « لا يمكن أن يصبح رجلا جريحا هدفا للسخرية فى البلاد المتمدينة » ونظر الى الرجال المحاربين بنظرة تنم بوضوح عن أنه يعتبرهم مجانين فقدوا عقولهم ٠

الا أن السخرية الحقيقية ظهرت بعد ذلك بأربعة شهور فى لندن بمحكمة « أولد بيلى » عندما حوكم وليم جويس الطالب السابق بكلية الملك بلندن ، والفاشى البريطانى السابق بتهمة الخيانة العظمى ٠

وأمام القاضى تكر وعدد من الخبراء القانونيين منهم السير هارتلى شوكروس والمرحوم المستر بيريك كورتيس بينتيه تم كشف الستار عن قصة المتمرد المتعطش الى المجد الذى دفعه كرهه لبريطانيا الى أن يكون آلة أجيرة فى أيدى النازى ، وقد كانت قصة من قصص الخيانة والكراهية والاساءة الى بلد وفرت له الحماية منذ سنة ١٩٢١ عندما وصل الى انجلترا ، عن طريق أيرلندا من بروكلين بالولايات المتحدة الامريكية حيث ولد سنة ١٩٠٦ هذا الذى أطلق عليه لقب « اللورد هاو هاو » فيما بعد ٠

ويمكن أن نسمى جويس الذى كان فى قرارة نفسه من الساخطين ، وفى حرب دائمة ضد التقاليد بعدو للنظام الاجتماعى ، هذا اذا لم يسعفنا التعبير باسم أفضل ، ولقد وجد متنفسا لطاقاته فى العمل لسياسة الشوارع ، وعندئذ كان قد انتهى من دراسته بكلية الملك ٠

انضم الى الاتحاد البريطانى للفاشستيين بزعامة « أوزوالد موزلى » وأصبح واحدا من اغظم خطبائه فى حركة القمصان السوداء ، وفى أثناء اجتماع سياسى فى دار بلدية لاميث طعنه شخص بموس واصابه بجرح ترك هذا الاثر القبيح فى الجانب الايمن من وجهه ٠

ومع ذلك كان المثل الاعلى الحقيقى لجويس هو « أودلف هتلر » واستهواه التشكيل الجديد للرايخ الثالث ووجد فيه اشباعا لرغبته فى الدكتاتورية ، وأصبحت ألمانيا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بوقت طويل وطنا روحيا له ٠

واستطاع بادعائه الكاذب بمولده في جالواى بايرلنـدة وبجنسـيته البريطانية بالتبعية أن يحصل على جواز سفر بريطانى مكنه من زيارة أرض الآباء عدة مرات من سنة ١٩٣٣ فصاعدا وذلك لكى يتسـنى له دراسـة أساليب الفوهرر عن كثب ·

وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٣٩ جدد جويس جواز سفره للمرة الثانية وسافر بعد ذلك بأيام قليلة لالمانيا مرة ثانية وقد صمم على عدم العودة الى بريطانيا اطلاقا ·

وفى بيان أمام ضابط من ضباط المخابرات البريطانيين فى مستشفى لونبرج عقب وقوعه فى الاسر مباشرة قال : أنه عندما قرر نهائيا أن يغادر بريطانيا الى ألمانيا لم يكن متدفعا برغبة فى الكسب الشخصى أو المادى بل بايمان سياسى قوى فقط ، وقال جويس : « عندما أدركت فى هذه الفترة الحرجة أننى لم أعد أود خدمة بريطانيا ، فقـد وصلت الى نتيجـة منطقية وهى أنه لم يعـد لى أى حق شرعى فى العودة بارادتى الحرة وأن الافضل أن أطلب التجنس بالجنسية الالمانية وأن أجعل من ألمانيا وطنـا دائما لى » ·

والحقيقة هى أنه فى ذلك الوقت كان قد أصبح بالفعل أجيرا لـدى هتلر ، ومنذ سـنة ١٩٣٧ عنـدما هجر موزلى وترك الحزب الفاشسـتى البريطانى ، كان جويس عميـلا نازيا ومرتبطا ارتباطا وثيقـا بمنظمـة للتجسس تتلقى تعليماتهـا من مكتب سرى بلنـدن ، وظلت المنظمـة باستخدامهـا لاكثر من ثلثمئة عميل توافرت لديهم الشـفرات السرية والحروف الهجائية والارقام التى يستطيعون بها التعرف على بعضهم البعض، من مداومة الاتصال بأعضاء هيئة السـفارة الالمانية التى كانت فى تلك الايام فى كارلتون هاوس تيراس ولا تبعد كثيرا عن دار الاميرالية ·

وتكشفت تفاصيل حلقة الجاسوسية هذه ونشاط جويس لمحرر صحفى فى سـنة ١٩٤١ بواسـطة ممثلة سـينمائية شابة كانت عميلة سرية ثم سلخت نفسها عن الجماعة بمجرد أن شعرت بريبة تجـاه أهدافهـا الحقيقية ·

فقالت للصحفى : « عندما انضمت الى الجماعة لم تكن لدى أية فكرة عن خيانة جويس وزملائه ، فقد قيل لى بأن بريطانيا فى خطر ، وصور لى هذا الخطر على أنه وارد من روسيا » ·

وأخطرت الفتاة أن هـدف المنظمـة من جمع المعلومات هو ضمان أن وسائل دفاع البلاد كافية لمواجهـة أى خطر طارىء ، وقـد بدا كل شيء دراميا وغامضا للغاية ، وظننتأنه سيكون منالممتع لها جدا أن تقوم بهذه المخاطرة ٠

ومنحت شفرة لاستعمالها اذا تراءى لها ارسال تقـارير مكتوبة فكل حرف من الحروف الهجائية يمثله رمز معين وقد أكدوا لها باستمرار حتمية السرية ، وحذرت بأنها لو وقعت فى أثناء العمل على اعتبـار أنها عميلة سرية فسوف تتنكر لها المنظمة ٠ وقد عرضت عليها الامر كله فى شيء من المكر والدهاء ، فتأثرت تأثيرا بالغا بمهمتها الجديدة لدرجة أنها لم تعـد تهتم بمن يحتمل أن يلقى القبض عليهـا ، ولو فعلت ذلك لادركت هذه الشابة البريئة منذ الوهلة الاولى أنها دفعت الى عنكبوت لا تتحمل طبيعته أى تحرى لا سيما من جانب البوليس أو المخابرات السرية البريطانية ٠

كان جو المحاورة والمناورة أكثر من العمل فى حد ذاته هو الذى دفعها للعمل ، والتشابه بين حقائق الحياة والأشياء المثيرة التى أحبت قراءتها ، وكذلك مواضيع الافلام التى أسندت اليها فيها أدوار ثانوية صغيرة ٠

وقالت : « كانت التعليمات توصل الى فى شكل درامى كامل فمرة من المرات عند مغادرتى لحفل عشاء فى فندق من فنادق الويست اند وجدت مذكرة مدبسة فى قبعتى تطلب منى أن أتواجد خارج سينما معينة فى وقت محدد » ٠

« واعترف جويس لها أنه كان يسيطر على عدد كبير من العملاء السريين من بين خدم وموظفى الفنادق الاخرى فى الويست اند » ٠

وفى خارج السينما تقدم رجل من الفتـاة وسلمهـا مذكرة تتضمن تعليمات لتوصيلها الى سيدة تنزل فى فندق من فنادق الويست اند ، وفى أثناء عرضها لقصتها اعترفت أنها تقابلت بعـد ذلك بوقت ما مع نفس الرجل ثانيا واكتشفت أنه كان ألمانيا ٠

وسئلت فى مناسبة أخرى من المناسبات عما اذا كانت تستطيع معرفة أية تفاصيل عن مطار جديد ، وكان هذا الطلب هو الذى جعلها تشعر بشيء

من القلق ، وأصرت فى حديثها الى الصحفى وقالت « لم أكن معادية لبريطانيا فى أقل القليل ، وأنه بدا لى أن من الشطط مطالبتى باكتشاف أمور عن مطار جديد » •

وبعد ذلك مباشرة أدركت أن جويس وزملاءه كانوا على صلة وثيقة بأعضاء السفارة الالمانية ، وأن من عادته وعادة الالمان أن يجتمعوا فى منزل امرأة ايطالية لها مكانتها ، وفى النهاية تأكدت شكوك الفتاة بأن جويس كان نازيا لحما ودما ، وأنه يتباهى علانية باليوم الذى سيغزو فيه هتلر انجلترا • واعترفت قائلة : « أدركت حينئذ بشاعة الخطأ الذى وقعت فيه وقررت عندئذ أن أقطع كل صلاتى بجويس ومنظمته وشكرا لله فقد فعلت ذلك حقا » •

وعقب ذلك بفترة وجيزة سافر جويس الى ألمانيا فى سفرة تصور أنها بلا عودة الى حين يرفرف الصليب المتفوق منتصرا فوق الهوايت هول وقصر بكنجهام ، وفى الحقيقة فقد سلك الطريق الذى أدى به الى حبل المشنقة •

ولا يعرف سوى القليل عن حياته فى ألمانيا حتي اشتهر بأنه الداعية الاذاعى الانجليزى الاول وعندما غادر لندن فى سنة ١٩٣٩ سافرت معه امرأة وكانت هذه هى زوجته الثانية وهى امرأة جميلة سمراء مرحة ، تزوجها بعد أن طلق زوجته الاولى فى سنة ١٩٣٦ ، تلك الزوجة التي أنجب منها طفلتين وعملت زوجته الثانية كمصححة بوزارة الدعايةالالمانية للمخطوطات الانجليزية المعدة للاذاعة بالراديو ، وكانت هى التى قيل أنها المسئولة عن كذبة من أكبر أكاذيب هاو هاو ، فقد سمحت باذاعة خبر يشير الى أن قاعدتين منقواعد الشواطىء البريطانيةوهما دوفر وفولكستون قد دمرتا ، وقد أثار هـذا البيان الكاذب المضلل ارهاصات خطيرة عندما واجه الخائن مهمته فى محكمة أولد بيلى •

هرب جويس وزوجته من هامبورج قبل وصـول الدبابات البريطانية بساعات قليلة وأخذا يتجولان فى الشمال حتى وصلا الى فلنسبرج بالقرب من الحدود الدانماركية ، وقد كان من المحتمل أن يفلت هذا الصوت الذى أصبح مألوفا لدى الملايين من البريطانيين الموجوعين من الاسر ، ومن الانتقام الذى حل به لو لم تحدث مشاحنة مع زوجته فبسبب هذه المشاحنة خرج جويس من المنزل الذى وجدا فيه مأوى فى مدينة كافرموهل وسار فى نزهة خلال الغابات لتهدئة أعصابه ، وهناك وجد نفسه وجها لوجه مع الضابطين

البريطانيين النقيب ليتشوريسك والملازم بيرى من جماعات الاستكشاف بالقوات المدرعة ، وكان مسدس الملازم بيرى الذى أوقع جويس على الارض بعد أن أصابته رصاصة في فخده ٠

واعتقلت المسز جويس واسمها هانسن بعد اعتقال زوجها الدرامى ، وأمكن العثور على حقائبها الثلاث التى امتلات بعدد كبير من الوثائق التى تشير اليها والى جويس وتتضمن يومية حوالى خمس وثلاثين صورة للجنود الالمان ومجموعات منهم وهم يستحمون فى حوض للسباحة ٠

وكانت تلبس في يديها أربعة خواتم واحد منها أكبر مما يجب ، وقد جردت منه للاعتقاد بأنه يحتوى على مادة سامة وطلب منها الضابط المحقق أن تخلع ثيابها وحدها دون أن يرغمها أحد على هذا ، وتم تفتيش ملابسها تفتيشا دقيقا بواسطة ضابطة من المجندات الا أنه لم يعثر على شيء تستطيع أن تقضى به على نفسها ٠

وبعد اخراج الرصاصة من فخذ جويس عاد المتمرد الذى يكره بريطانيا الى لندن ، لا كما كان يتصور في النهاية كمبعوث منتصر لعدو غازى بل كأسير ذليل منبوذ ليواجه تهمة الخيانة العظمى تضاعف حدة سعور الرجال الناخبين والمتجمعين حول عربة الاسعاف فى لونبرج مائة مرة بين الجموع الثائرة التى تقاطرت أمام محكمة أولد بيلى فى أول أيام المحاكمة ، اذ لم يحدث أن وجدت شخصية من شخصيات المتهمين التي وقفت فى قفص الاتهام فى سنة من السنين بمحكمة جنايات لندن المركزية ،ونالت من سخط الجماهيرمثلما نالت شخصية اللورد «هاو هاو» ذلك الخائن الذى كان يتيه فخارا وسخرية بينما كانت لندن تشتعل بالنيران ٠

وقد منحت الدولة جويس الذى صب عليها غضبه عبر الاثير المساعدة القانونية كما يفعل مع أى أسير يعجز عن دفع أجر الدفاع عن نفسه ، وكان الذين دافعوا عنه هم المستر ج٠ سلاد والمستر ديريك كورتيس بينيت والمستر جيمس بورج ، ومعاونة مثل هذه الجماعة المرموقة كانت تكلفه غاليا فى القضايا المدنية وقد تمتع جويس بدفاعهم وخبراتهم بدون مقابل ٠

وأجاب وليم جويس الذى كان يرتدى لباس البحرية الانيق « لست مذنبا » وذلك على التهم الثلاث التى وردت فى عريضة الدعوى وكان صوته مختلفا عن صوته الذى سبق أن استعمله فى الاذاعة الالمانية ، وهنا وضحت الحقيقة وثبتت اذ لم تعد هناك علامة واحدة من علامات الادعاء ولا الشعور بالسخرية ، واذا كان لنا أن نقول عنه أى شىء فلم يكن سوى انسان تافه خائف عندما استمع الى المدعى العام السير هارتلى شوكروس وهو يحدد الاتهام أمام المحكمة ٠

وتقول التهمة الاولى انه فى اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩وفى أيام أخرى بين هذا التاريخ و ٢٩ من مايو سنة ١٩٤٥ ارتكب وليم جويس الذى يدين بالولاء الى الملك جريمة الخيانة بمساعدته لاعداء الملك فى ألمانيا ، وذلك باذاعته أحاديث دعائية بالاذاعة الالمانية ٠

والتهمة الثانية هى أنه فى يوم ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٤٠ ساعد أعداء الملك بأن تجنس بالجنسية الالمانية ٠

وكانت التهمة الثالثة متشابهة للاولى ولكنها أنصبت على المدة بين ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٣٩ وبين يوليو سنة ١٩٤٠ ٠

وملخص الدعوى هو أنه عندما كانت بريطانيا فى حالة حرب هرب جويس الى ألمانيا النازية بينما كان لايظل متمتعا بالرعوية البريطانية ٠

وقد دفع الدفاع بأن جويس كان فى الحقيقة أمريكيا بالمولد ، وأنه منحدر من أب أيرلندى وأم انجليزية ، وقد أثارت هذه معركة قانونية أذهلت الحاضرين فى دار المحكمة ووقف فى مكان الشهود مساعد ضابط الجوازات هارولد جودوين وقال للمدعى العام أن جويس قد طلب تجديد جواز سفره قبل نشوب الحرب مباشرة ٠

وقال السير هارتلى وهو يمسك باستمارة سلمها للشاهد « أنظر الى هذه انها استمارة لطلب تجديد جواز سفر أليست كذلك ؟ » فأشار جودوين بالايجاب ٠

واستطرد السير هارتلى بصوته الهادىء الرصين الواضح « الا تقول أنا الموقع على هذا أدناه وليم جويس الذى يسكن حاليا فى ٣٨ أ ياردلى

كريسنت جنوب غرب ـ ٥ ـ لندن اطلب بموجب هذا تحديد جواز سفره البريطانى رقم ١٢٥٩٤٣ الذى صدر فى لندن يوم ٦ من يوليو سنة ١٩٣٣ لمدة سنة أخرى وأقر هنا أننى بريطانى الجنسية بالمولد ولم أفقد كيانى الوطنى ، وأن جميع التفاصيل التى بينتها هنا فى هذا الطلب حقيقية ؟ »

أجاب جودوين : « نعم » ..

وهل هو موقع باسم وليم جويس ؟

ـ « نعم » ..

وهل هو مؤرخ بتاريخ ٢٤ من أغسطس سنة ١٩٣٩ ؟

ـ « نعم » ..

وهل جدد هذا الجواز حتى أول يوليو سنة ١٩٤٠ كنتيجة لهذا الطلب الخاص بتجديده ؟

فقال هارولد جودوين : « نعم جدد » ..

وهنا دق المدعى العام اسفينا هائلا مزق به دفاع المحامين ، وقد مزقه أكثر وأكثر عندما قام مفتش المباحث البرت هانت من الشعبة الخاصة فى سكوتلنديارد ليؤدى الشهادة ، وقد أثبت دليله أن جويس التحق بخدمة النازى فى يوم ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٣٩ كمذيع للأخبار باللغة الانجليزية .

وشهد هانت على أنه عرف عن السجين لأول مرة فى أثناء السنوات السابقة للحرب مباشرة وذلك عندما خطب جويس فى اجتماعات عامة بلندن بوصفه عضوا من أعضاء الاتحاد الفاشستى البريطانى ، وكان المفتش على معرفة تامة بصوته ، لأنه سبق أن استمع الى عدد من الخطب العامة التى ألقاها .

فسأله السير هارتلى : « وهل كنت مكلفا بالمراقبة فى فولكستون فى اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٩٣٩ ؟

ـ نعم ، كنت ..

هل تذكر أن اذاعة جذبت انتباهك من جراء ما ورد فيها من أقوال بين ذلك التاريخ واليوم العاشر من ديسمبر ؟

ـ أجاب هانت : « بمنتهى الوضوح فقد سمعت اذاعة تعرفت عليها فى الحال لأنها بصوت جويس وقال فيها : ان دوفر وفولكستون قد دمرتا »

شكرا أيها المفتش ، وطوح السير هارتلى برداء المحاماة فوق كتفه وظهر أن الرجل الواقف فى قفص الاتهام قد زم شفتيه ، وكان لتضليل زوجته وموافقتها على مرور خبر اذاعى الفضل الاكبر فى مساعدة المدعى العام على اصابة الثور فى مقتل .

وقد تشبث السير هارتلى شوكروس بهذه النقطة كثيرا فى كلمته الاخيرة أمام المحلفين ، وقال : « على الرغم من أن بيان جويس الذى يقول فيه ان دوفر وفولكستون قد دمرتا يبدو سخيفا لكل القاطنين بانجلترا ولكل الذين يعرفون سير الحرب ، فانه لا يبدو سخيفا بالنسبة للجنود المحاربين فى الخارج أو لأفراد الشعب البريطانى فى البلاد الاجنبية الذين يستمعون الى الدعاية الالمانية فى الاذاعة ولا يستطيعون الحصول على معلومات دقيقة عما يحدث فى أرض الوطن .

وشن الدفاع معركة قوية فى سبيل التخفيف من مركز السجين الضعيف .

فقال المستر ج . سلاد فى مرافعته الاخيرة : « اذا استخدمت رجلا كمذيع فى أثناء حرب تبدو لا نهاية لها ، واذا رغبت أن تضفى عليه بعض مظاهر الرجولة بأى حال من الاحوال ويستحق أن تصغى اليه ، فان من أسوأ الامور من وجهة نظر جويس أن يبدأ باذاعات خاطئة خطأ واضحا متعمدا يستطيع أى رجل أن يتأكد من خطئه فى فترة لا تزيد عن ثمان وأربعين ساعة ، حتى ولو كان لا يعرف أنه خطأ فى لحظة سماعه .

وعلى أى فقد كان جويس أجنبيا والاجنبى لا يدين بالطاعة للتاج الا اذا كان مقيما فى مكان خاضع لقوانين التاج ، ومعنى هذه الاقامة هى الاقامة المادية ، والحصول على جواز سفر بريطانى لم يكن ليفرض عليه الولاء للتاج البريطانى فى أثناء الوقت الذى كان يعيش فيه فى ألمانيا ، وظهر أن المحاولة لانقاذ الموقف كانت عبثا ولا طائل تحتها .

وفى اليوم الثالث من أيام المحاكمة بدأ القاضى الذى يرتدى الرداء القرمزى فى التوصل الى نهاية فقد قرر ما يخالف الدفاع وقال للمحلفين أن جويس يدين بالولاء فى جميع الاوقات التى كان يحمل فيها جواز سفر بريطانى .

وغاب المحلفون للمداولة لفترة ثلاث وعشرين دقيقة فقط ثم أصدروا حكمهم « بالادانة » وحكم على جويس بالاعدام شنقا ، ورفض استئنافه الذى رفع أولا لمحكمة الاستئناف ثم لمجلس اللوردات .

وفى نهاية محاكمته عندما سأله القاضى تكر اذا كان لديه ما يقوله ضد الحكم عليه بالاعدام لم يجد وليم جويس ما يقوله اذ أصدرت البلاد التى انقلب عليها الكلمة الأخيرة ، وتم تنفيذ الحكم فيه يوم ٣ من يناير سنة ١٩٤٦ .

٥

مقتـــل رمنجتـــون

كانت حياة وليم و . رمنجتون الأولى تنبىء بمستقبل زاهر ، فقـد كان ابنا لاحدى الأسر الجمهورية الغنية وبالطبع هيأ له مركزه هذا مزايا عدة ولا سيما فى أيام دراسته ، وقد وهبته الطبيعـة هى الأخرى بعض المواهب المعينة فقد كان وسيم الطلعة حلو المعشر وعالما بالسليقة ، وعندما التحق فى النهاية بخدمة الحكومة تراءى له أنه بدأ عمـلا لابد وأن يتطور الى مهنة رائعة حتى هبطت اللطمة ووجهت اليه تهمة الشـيوعية ، واتهم بتسليم الوثائق الحكومية الى وسيط سوفييتى ، نفى رمنجتون التهـم ، ولكن صدر عليه حكما بالسجن لثلاث سنوات . وفى الواقع كان هـــذا حكما عليه بالاعدام لانه اغتيل فى السجن بعد ذلك بعامين ، وقبل هذا بوقت طويل وحتى قبل القاء القبض عليه أصبح مصدر عار لعدد كبير من الناس من الذين عرفوه وأعجبوا به ، وتوسموا له مستقبلا زاهرا فى عمله ، فلم يبد أحد اهتماما بمصرعه لانه لم يتبع جثمانه الا عربة واحدة لا ثانى لها .

ومن غير المعروف رأى وليم رمنجتون فى سقطته سواء كان قد اعترف بعدالته أم كان يؤمن من البداية حتى النهاية بأنه قد صلب ، وربما يكون قد ظن أن الامر لم يعد هاما طالما أن حياته سوف تنتهى على أى حال ، ومن الخطأ أن يخضع ارتفاع أو سقوط أى شاب صغير لامور خلقية ، ومن باب الرحمة به وكثيرا ما تحل متأخرة ، أصدر القاضى الذى حكم على رمنجتون حكما أخف مما كان متوقعا لانه قال ان المتهم كان يدفع غاليا بوســائل أخرى .

ولد رمنجتون فى سنة ١٩١٧ فى ريدج وود بولاية نيو جرسى وانحدر من أب مرموق يعمل فى شركة متروبوليتان للتأمين على الحياة ، وأم سبق

لها الاشتغال بتدريس الفن فى نيويورك ، وكانت طفولته عادية وأصيب بيل رمنجتون بالحصبة مع غيره من أطفال المدارس ، وغير أسنانه اللبنية فى نفس الوقت الذى تتغير فيه الاسنان عند الاطفال العـاديين ، وكان يكره الاستحمام يوميا حتى سن الثالثة عشرة ، عندما بدأت تستـهويه النظافة وزيت الشعر ، وكان صبيا مكتمل الشخصية ذكيا متقدما فى دراسته ومصدر سرور لوالديه ٠

وانتقل الى كلية دارتموث فى سن السادسة عشرة وهى كلية مشهورة بمستوياتها العلمية ، وتخرج بعد ذلك بأربع سنوات ، وكان ترتيبه الاول على طلبة فرقته ٠

وأثناء دراسته بالكلية تقابل رمنجتون الشاب مع آن موث وهى طالبة بكلية قريبة من الكلية التى يدرس بها ، وكانت فتـاة جميلة لهـا شعر أسود طويل ، ووجهه مفكر فاحص يضىء ويشع بالحماسة والارادة القوية كما اكتشف رمنجتون ، وكانت واسعة الاطلاع ومحدثة لبقة وشيوعيـة مخلصة ٠

قضى الاثنان وقتا طويلا معا يتحدثان سويا وفى رغبة ويختلفان الى المسرح وحفلات الرقص العام التى تقام فى الجامعة ، وبعد شهور قليـلة اعترف رمنجتون بأنه غرق فى الحب فبـادلته الحب مع بعض تحفظـات معينة ٠

كان هذا الحب غريبا من عدة نواح ومن المؤكد أنه مرت بهمـا بعض اللحظات الجميلة التى امتلأت عيناهما فيها بحلاوة الحب ، وذلك عنـدما استمتعا بالتقارب البدنى لاول مرة ، وعندما انغمسا فى الجدل المثـالى الذى يرمى الى البحث عن الروح وعن الحيـاة ومعناها ، الا أن آن كانت أكثر من شابة غازية فقد كانت متعصبة وتنتمى الى رواد فكرة جديدة ٠ أما رمنجتون فبورجوازى دون شك ، وبلغ به الحد اظهار الندم فتصغى آن أو تحاول الاصغاء الى أرائه التقليدية ، التى كانت تكمن فى عقيدته الجمهورية ، وتقديس ما يعرف بالنشاط الحر ، فكانت تكره كل ما تسمعه منه وتفصح له عن ذلك ٠

كان الوقت قريبا من عيد الميلاد عندما تشققت الثلوج من تحت أقدامهما ، وقدمت آن انذارها وهو ثمرة أحاديثهما الطويلة الصريحة سويا ، فقالت انها والحزب لم يعودا بقادرين على تحمل فلسفته الرجعية ، فاما أن يعتنق ايديولوجيتها والا فلن تعود عليهما هذه الصداقة بأى شيء ، فمن الواضح أنهما كانا على طرفي نقيض في الفكر وأنهما ينتميان الى معسكرين متنافرين ولا يربطهما رباط سوى كيمياء الرجل والمرأة .

أنصت رمنجتون اليها في أدب واهتمام فعقله أكثر مرونة من عقل آن ، وكان يستطيع دائما أن يعترف بقوة أية حجة دون أن يتفق معها عليها بحكم الضرورة . ومع ذلك فلم يستسلم واستمر الانذار دون استجابة لمدة ما ، ولكن عندما كست الاوراق أشجار الصنوبر فى الربيع قام رمنجتون بزيارة لآن وقبلها وطلب منها أن تكون زوجة له .

رفضت الفتاة أن تستسلم في سهولة فلم تطالب ببعض الضمانات المعينة فحسب بل بالتسليم دون قيد أو شرط كأقل القليل ، وفسرت ذلك مرة أخرى بأن هذا ليس معناه أنها لا تحبه ، ولكنها تؤمن بأن شروط الزواج أهم من عامل الحب ، فهى لا يمكن أن تتحمل أو تحترم رجلا يفكر تفكيرا اقطاعيا معتما ، رجلا ورث ماله وأفكاره من أب رأسمالى أدمى قلوب الناس من أجل راحته .

شعر رمنجتون بقسوة اتهاماتها ورد عليها ، فهو يؤمن باخلاص تام بأنه متحرر ومتحمس ، وحتى والده أظهر الضيق من جراء معتقداته السياسية ، وهدده مرة باخراجه من الكلية لاعرابه عن آراء غير مستساغة وعانى كذلك من زملائه فى الدراسة فى دارتموث واتهم بالراديكالية لتأييده حكومة روزفلت ، وفى مناقشة جرت فى أمسية من الامسيات وصفه أحد زملائه بأنه بولشفيكى وقع فى حب زميلة له فى المبدأ ، وكانت هذه لطمة من العسير تحملها ، الا أن رمنجتون استطاع التحكم فى أعصابه ، والآن ظهر له أن الدور قد حل للفتاة لتنقلب عليه ظلما وتنتقده وتوبخه .

وعلى الرغم من أن آن Ann اعترفت بشكها عندما عرض رمنجتون موضوعه ، الا أنها تحققت أنه من الجائز لها أن تفوز به وضغطت عليه مطالبة له باصدار قرار وكانت الشروط **هى الا ينهج فى عمله نهج أبيه**

من قبل ، وان يتنكر لمعتقدات العائلة السياسية ، وأن يعتنق المذهب الذى تفهمه آن ، وفى تلك الليلة وقع الاثنان حلفهما عن طريق الاندماج البدنى على الرغم من أن « آن » لم تكن قد وافقت بعد على الزواج منه ٠

وليس من العسير أن نقدر المأزق الذى تردى فيه رمنجتون فهو يرغب أن يفوز بآن زوجة له بدون شروط ، وانزلق الى موقف من شأنه أن يؤدى به الى الهاوية بعد ذلك بأربع عشرة سنة ، وانتهى فى بساطة ليكون عضوا فى الخلية الشيوعية فى دارتموث ، وتحرك فى هذا الاتجاه لأنه كما قال فيما بعد قد قبل شروط الحزب ولأن آن طالبته بوجوب اثبات اخلاصه ٠

وبعد أن انتصرت آن تزوجت من رمنجتون فى سنة ١٩٣٩ وكان الرجل الذى أحبته ــ ومن المهم جدا أنه أصبح بسببها عبدا للقضية التى تعمل من أجلها ٠

وقبيل نهاية العام تخرج رمنجتون والتحق بجامعة كولومبيا حيث حصل على درجة فى الاقتصاد وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة شهور عين فى وظيفة بمجلس تخطيط الموارد القومية ، واعتبره المجلس شابا ينتظره مستقبل مشرق ٠

وأصيب والداه بخيبة أمل لان اختياره لم يقع على عمل حر ، ومع ذلك فقد اعترفا بمزايا الوظيفة الحكومية فهى ثابتة ومضمونة ولا تتعرض لأعاصير التجارة كما هو حال الكثير من الوظائف فى عالم التجارة ، وكثيرا ما كانت آن تعبر عن آراء متحررة الا أن المستر والمسز رمنجتون تعودوا على عدم الاهتمام بأقوالها المزعجة وأخذا ينظران اليها على أنها آراء استعراضية لامرأة ذكية ، فيشبيران فى فخر عظيم الى نبوغ أم حفيديهما اللذان ولدا فى عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٤

وفى باكورة الحرب قام رمنجتون وآن بزيارة أم آن مسز موث فى منزلها على نهر هدسون حيث قابلا جون نورث محرر جريدة « الجماهير الجديدة » ، وهى المجلة الاولى للحزب الشيوعى ، وقد قدم « نورث » « رمنجتون » فيما

بعد الى جيكوب جولوس رئيس المخابرات السوفييتية فى الولايات المتحدة، وجولوس الروسى هذا والمعروف بأسماء مستعارة كثيرة ظهر فى سلسلة من المحاكمات بعد ذلك ، وفى جلسات كثيرة بالكونجرس أنه المنظم الاول للجهاز السرى للاتحاد السوفييتى فىأمريكا ، وقد شهدت زوجته الشرعية اليزابيث بينتلى على ذلك فيما بعد ، وكان جولوس بلا نزاع رجلا يتميز بمقدرة وبعد نظر فائقين ، فمهمته كانت الاشراف على شبكة واسعة دقيقة من العملاء السوفييت فى كافة أنحاء البلاد ، ولم يكن يهتم بنشاط الشيوعيين المحلى لأنه من الممكن لجياد الحزب الواهنة الاهتمام بهذا ، أما هو فقد استطاع أن يحصل من الرجال الذين أرادوا مقابلته وقابلوه بالفعل على معلومات حيوية من أعلى المصادر ، وعن حكومة الولايات المتحدة ذاتها ، واستطاع جولوس الماكر أن يستغل رمنجتون من أول مقابلة ، وحتى وظيفته الاولى فى هيئة وادى التنيسى فى أثناء اقامته فى دراتموث فقد ثبتت قيمتها بالنسبة لعمل الجواسيس السوفييت ٠

فقد ثبت من أقوال الشهود بالمحكمة ومنهم جولوس نفسه ومن أقوال اليزابيث بينتلى أن رمنجتون قام بتسليم السوفييت كميات هائلة من المعلومات عن الانتاج الحربى السرى بما فى ذلك الاحصائيات والوثائق والخرط والصور والرسوم ، وعرف رمنجتون أن جولوس سوف يسلم بالتالى هذه الاوراق الى السفارة السوفييتية فى واشنجطون التى سوف ترسلها بدورها الى المخابرات السرية فى موسكو ٠

لم ينفى رمنجتون فى شهادته على الاطلاق أنه كان يعرف اليزابيث بينتلى ، ولكنه ظل مصرا على أنه يعرفها باسم هيلين جونسون ، واعترف كذلك بأنه تناول هو وآن العشاء مرات عديدة مع جيكوب جولوس قبل وفاته الا أنه نفى معرفته به على أنه منظم لحلقة جاسوسية للاتحاد السوفييتى ، وقال ان جولوس كان يدعى أنه محرر وقدم له بينتلى على أنها بحوث مساعدة له ، وقال رمنجتون أنه زودهم بمعلومات معينة بنفس الطريقة التى يزود بها أى عضو من أسرة الصحافة ، وأصر رمنجتون فى دفاعه على القول بأن جميع الحقائق والارقام التى كشف عنها كانت بريئة وحقائق يمكن لأى انسان الحصول عليها اذا أراد ٠

الا أن الحكومة رأت رأيا مخالفا فى ذلك الموضوع ٠

وتحولت اليزابيث بينتلى بعو موت جولوس حبيبها وبعد شعورهـا بوخز الضمير الى شاهدة فى جانب الحكومة ، واعترفت بجرائمها الشيوعية ضد أمن الولايات المتحدة ، وكتبت كتابا سرعان ما لاقى رواجا كبيرا فى السوق ، وحاولت دفع دينها للديمقراطية بوضع أصبعها على رمنجتون ، ولما أحس بتحمسها الى عدم كشف النقاب عن المعلومات الهائلة التى فى حوزتها فقد استخدمها المرحوم السناتور ماكارثى لتكون مساعدة له فى البحث والتحرى فى حملته المتعصبة ضد الحمر أعداء أمريكا وفضح أمرهم

وبحلول عام ١٩٤٦ كانت آن قد تركت زوجها وأخذت معها طفليها ، وكان رمنجتون الذى بدأ وظيفته فى الحكومة براتب ٢٠٠٠ دولار فىالعام يكسب فى ذلك الحين أكثر من خمسة أضعاف هذا المبلغ ، وأصبح رجلا له أهميته وكيانه السياسى ، وفجأة وعلى الرغم من أن ظلال عمله كمخبر قد ظهرت فقد أصبح رمنجتون يدرك خطورة موقفه فناقش تهم اليزابيث بينتلى مع رؤسائه ، وقال انه لا يفهم الدوافع التى تدفعها لمحاولة القضاء عليه فأحجموا عن اصدار حكم عليه حتى بدأت الادلة تترى وأصبح من المحتم ايقاف رمنجتون عن عمله بوظيفته بوزارة التجارة ٠

وفى ١٢ من سبتمبر سنة ١٩٤٨ ظهرت اليزابيث بينتلى فى برنامج تليفزيونى اسمه (مقابلة مع الصحافة) وكررت اتهاماتها ضد رمنجتون بعد أن تجرد من حصانته البرلمانية ، فخـاف وانزعج وطلب منهـا نفى اتهاماتها فورا وعندما قوبل طلبه بالتجاهل وكان من العسير أن يتوقع غير ذلك رفع قضية ضدها مطالبا بتعويض قدره ١٠٠ر٠٠٠ دولار ، من الذين أشرفوا علىالبرنامج التليفزيونى « الشركة العامة للأغذية » ، وشركة الاذاعة الوطنية ٠

وبعد ذلك بثمانية أيام انقلب الوضع اذ أعلن مجلس الولاء الاقليمى بعد مراجعة القضية وجود بعض الأسس المعقـولة للاعتقـــاد بأن وليم رمنجتون لم يكن أمينا ووفيا لحكومة الولايات المتحدة ، وقد جرد هـــذا القرار رمنجتون من سلاحه بالفعل ، ووضع حدا لوظيفته وبالتبعية جعل قضيته التى يطالب فيها بالتعويض غير ذات موضوع ٠

وكانت لديه فرصة واحدة أخيرة وقد استغلها ، فطلب ــ وكان من حقه أن يطلب ــ اعادة عرض قضيته على مجلس الولاية ، وهو مجلس مكون من ثلاثة أعضاء وهم سيث وريتشارد مستشار لجنة مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة « الذى قام بتحريات كارثة بيرل هاربر » ، هارى و · كولبرى القائد السابق للفيلق الامريكى و جورج و · آلجر المحامى المشهور بنيويورك ·

ولا بد وأن هذه المداولات القانونية قد بدت لرمنجتون بطيئة للغاية لأنه كان عليه أن ينتظر لفترة ثمانية عشر شهرا مؤلمة قبل صدور الحكم ، وفى هذه المناسبة أعلن مجلس الولاء أنه برىء وضحية تهم قاسية لا سند لها من جانب موجهة التهم اليزابيث بينتلى ، وبعد براءته هكذا دعى رمنجتون بعد الاعتذارات الكافية الى العودة الى وظيفته السابقة فى وزارة التجارة ، ومنح جميع التعويضات المالية التى نجمت عن وقفه عن تأدية وظيفته ، فقبض متأخرات قيمتها ٥٨١٣ دولارا وكذلك ١٠٫٠٠٠ دولار دفعها له محامى الشركة العامة للأغذية بسبب التهجم على شخصه ·

وربما تصور رمنجتون بأن الكابوس الذى طال جثومه على صدره قد زال ، الا أن القضية لم تكن قد انتهت بعد فمن وراء ستار ودون أن يحس به أحد وقف رجل أخذ عملاؤه يتحرون عن ماضى رمنجتون هو ادجار هوفر مدير مكتب المباحث الاتحادى ·

استمرت هذه التحريات السرية لمدة عامين ولكن حدث فى شهر مايو سنة ١٩٥٠ أن استطاع هوفر أن يقدم شاهدين هامين أقسم الاول أن رمنجتون شيوعى منذ كان يعمل فى هيئة وادى التنيسى ، وادعى الآخر أنه فى حوزته معلومات لا يمكن دحضها مؤداها أن رمنجتون كان على علم بأن جميع الوثائق التى سلمت الى اليزابيث بينتلى كانت ترسل آليا الى الاتحاد السوفييتى عن طريق جاكوب جولوس ·

وكنتيجة لهذه الاكتشافات واجه رمنجتون جلسات الكونجرس وتحرياته ، وشعر مرة أخرى بالرياح الباردة التى تهب عليه من أجهزة الدعاية الضبارة ، وأنكر بعد أن أقسم اليمين بأنه كان فى الحاضر أو فى الماضى عضوا

فى الحزب الشيوعى فاجاب على أسئلة عديدة منذ اللحظة التى وجهت فيها اليزابيث بينتلى اليه اتهاماتها سيما وأنها عادت وأشارت اليه مرة أخرى، فكانت اجاباته جافة وفى الموضوع ولم تختلف ٠

فعل رمنجتون الطويل القامة الرياضى صاحب ذلك الوجه الذى يشبه وجه الطفل كل ما استطاع ليدافع عن نفسه ، وطبقا لما جاء فى روايته فقد كان ضحية لامرأة مجنونة عاتية حاولت افتراسه فى نوبة نهمهـا الى الندم استجابة لتقريع الضمير ٠

وفى نهاية التحرى حولت قضية رمنجتون لا الى هيئة نصف قضائية ، بل الى هيئة محلفين كبرى سرعان ما حكمت باتهام رمنجتون على أساسين: أولهما نفى انتمائه الى الحزب الشيوعى وثانيهما تسليمه وثائق هامة الى اليزابيث بينتلى فى وقت كانت عميلة لجاسـوس سـوفييتى فى مدينـة واشنجطون ٠

بدأت المحاكمة فى شهر يناير سنة ١٩٥١ ، وكان المدعى العـام هو أرفنج سايبول ، وفى أثناء ذلك أرسلت له وثيقة الطلاق وكررت اليزابيث بينتلى التهم التى ساقتها ضده قبل ذلك بأكثر من ثلاث سنوات ، ودعمت اتهاماتها بشاهدين من مكتب المباحث الفيدرالى ، وكذلك شهادة آن موث رمنجتون أم ولديه وقد أدلت بشهادتها فى برود وبلا تردد ، فقالت ان زوجها السابق كان عضوا بالحزب الشيوعى فى أثناء سنته الاخـيرة فى دراتموث ، وأقسمت على أنها رأته وهو يسلم وثائق سرية الى المس بينتلى وأن المعلومات تتضمن أسرارا هامة ومواد لها أهميتها ، وعند استجوابها عن الاماكن المضبوطة التى تم فيها هذا التسليم قالت : « لقد سقت عربتى الى أماكن اللقاء حيث كنا نقابل المس بينتلى ورأيت الاوراق وهى تسلم لها وسمعت مناقشتها بالتفصيل » ٠

قضى المحلفون أربع ساعات قبل الوصول الى قرار وعادوا الى المحكمة بحكم « الادانة » ، وفى يوم ٨ من فبراير أصدر القاضى جريجورى نونان حكمه على رمنجتون بالسجن خمس سنوات وهى أقصى العقوبة كما حكم

عليه بغرامة قدرها ٢٠٠٠ دولار ولم يكن رامنجتون الذى ثار بسبب شهادة زوجته أقل غضبا عندما لاحظ الابتسامة التى سقت على وجه اليزابيث بينتلى عندما سمعت حكم المحكمة ، فاستأنف فى الحال وتزوج من زوجته الثانية وكان ذلك أثناء انتظاره الجلسة الثانية .

وقد يكون الامل قد راود رمنجتون على الاقل فى أن الاحداث قد تغير نفسها ويبرأ ثانية كما حدث فى المناسبة التى رفع فيها قضيته أمام مجلس الولاية ، فمن الناحية القانونية كان على الاتهام أن يعتمد جزئيا على شاهدين من شهود الاثبات على الاقل ممن يناصبانه العداء المرير ، ومع ذلك ، فقد كان رجال وزارة العدل وكذلك القاضى ادجار هوفر مقتنعين بأنه كان خائنا وكاذبا فى يمينه .

وفى شهر يناير سنة ١٩٥٣ وبعد المحاكمة الأولى بعامين تم عرض استئناف رمنجتون وثبتت التهمة ، الا أن القاضى فينسنت لارتيل خفف الحكم الى ثلاث سنوات ، وحذف الغرامة وفسر موقفه هذا بقوله : « اننى أعتبر القضاء على مستقبل رمنجتون جزءا من العقاب » .

وحاول رمنجتون جاهدا اعادة القضية للنظر الا أن الاستئنافات رفضت كلها ، وأرسل الى سجن الاصلاح الاتحادى فى الغرب فى لويسبورج ببنسلفانيا ليقضى مدة العقوبة وكانت لويسبورج مناسبة للاصلاحية ونظمها ، وأخذ رمنجتون مكانه بين المجرمين والمتوحشين وجعلته أخلاقه لاسوء أفعاله شاذا هناك ، وقد وفرت له طاعته لقواعد السجن بعض الامتيازات جعلته غريبا فى هذا المجتمع الحقير ، وفى الواقع لم يكتب لرمنجتون أن يرى نور الحرية ثانيا ، وفى يوم بارد أغبر من آيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥٦ وجده حارس من حراس السجن فى الممر المؤدى الى الزنزانة التى كان ينام بها ومعه ثلاثة سجناء آخرين فاقد الوعى وفى حالة احتضار بعد ضربه بحجر ملفوف فى جورب من الصوف ووجد فيما بعد تحت قاعدة السلم ..

طلب الحارس المساعدة ونقل رمنجتون الى المستشفى فوجدوا أن كسرا قد أصابه فى الجمجمة ، فى أماكن عدة ، وأرسل فى طلب أخصائى من

مستشفى ميلتون المجاورة ليشير بما يجدر بهم عمله من أجله ، فأجريت له عملية جراحية لتخفيف الضغط على المخ ، الا أنه وجد تهتكا خطيرا فيه ومات رمنجتون فى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، ولم تظهر صحوة الضمير الا مرة واحدة وفتح عينيه وحاول أن يتكلم ولكنه عجز ولو عرف الذين هاجموه لما استطاع أن يذكر أسماءهم ٠

وعندما رفع الطبيب الشرعى تقريرا عنه أرسل هوفر المدعى نورمان ماك كابى أكثر معاونيه خبرة من فيلادلفيا للتحرى وكان ماك كابى متعودا على معالجة جرائم العنف فلم يجد صعوبة فى معرفة طريقة القتل ٠

كان رمنجتون يعمل فى مكتب السجن ، وكان يؤدى عمله من منتصف الليل الى الثامنة صباحا ، وكان يقيم فى زنزانة لاتقفل أبوابها على الاطلاق ، فضرب بعصا ثقيلة من أحد طرفيها فى أثناء نومه ويدل شريط الدماء الذى ارتسم على الأرض من الزنزانة الى الممر أنه حاول الزحف ليطلب النجدة ولكنه لم يستطع الوصول الى أبعد من الممر الذى وجد فيه ٠

وعندما أخطرت المسز جان رمنجتون باغتياله أخبرها الحارس أنه يظن أنها من تدبير أعداء الشيوعية ، الا أنه سرعان ما هدمت سلطات السجن هذه النظرية ، اذ أشارت تحريات ماك كانى أن الدافع كان السرقة ٠

لأن درج رمنجتون كسر وسرقت سجائره وطعامه ، وبعد وصول ماك كانى بساعات قليلة وجه تهمة قتل رمنجتون الى سجينين وهما روبرت باركر من مدينة واشنجطون وماك كوى جروندانى من فرجينيا ، وكلاهما من عتاة المجرمين ولهما سجل حافل فى عالم الاجرام ٠

وفى اليوم التالى حدد ماك كانى اسم رجل ثالث على أنه مشترك فى جريمة القتل وهو لويس كاجل من مدينة شنانوجا بولاية تنيسى والبالغ من العمر السابعة عشرة وكان يقضى مدة عقوبة تبلغ خمسة عشر شهرا ، وقد انهار بسهولة واعترف أنه واثنان آخران كانا يسرقان الزنزانة وعندما استيقظ رمنجتون فأسكتوه بالعصا التى صنعوها محليا ٠

حمل جثمان رمنجتون الى زوجته فى ليفيثتاون فى لونج ايلاند بولاية نيويورك ، وحاول المراسلون الصحفيون الحصول على بيان من والديه ، ولكنهما التزما جانب الصمت حتى بالنسبة لأقرب الاصدقاء اليهم ، وكان اغتيال ولدهما لطمة قاسية انهالت عليهم ، الا أن حزنهم عليه كان حزنا خاصا أرادا ألا يحس به أحد ٠

وفى يوم ٢ ديسمبر سمحت جان رمنجتون لمحاميها بأن يسمح باعلان بعض الخطابات التى سبق أن أرسلها لهـا زوجهـا وكانت تتضمن بعض الاشارات التى تشير الى عصابات السجن وقالت : ان زنزانة رمنجتون كانت أهم هدف للعنف والسرقة والتهديد ٠

الا أنها لم تتضمن أى تأنيب للضمير بسبب ما ارتكبـه من جرائم كشيوعى ٠

فقد جاء فى خطاب منها : « ان الحزازات هنا لا يوجد لهـا أسـاس معترف به فهى تبدأ بسبب عجز عدد كبير من الرجال هنا عن الاحساس بالمسئولية الا اذا استطاعوا ادماج مشاعرهم معا حول شىء يكرهونه ٠

ومن الغريب أن أرى منهم من يتفاخر بأنه شرير ، فهـم فى الواقع يستعملون كلمة « شرير » كمزية من المزايا ويتنافسون بالفعل فى اظهار شرورهم ٠

وجاء فى خطاب آخر ان قفل بابه فتح عنوة ، وسرقت الملابس والطعام وبهذه المناسبة ذكر رمنجتون أن زملاءه فى الزنزانة طلبوا الانتقـال الى قسم آخر من أقسام السجن ٠

وكان الخطاب الأخير الذى تسلمته جان ينم عن الامل اذ جاء فيـه : « ان الامور قد هدأت فى عنبر نومنـا فالزملاء الذين كانوا يحملون على اثنين من شركائى فى النوم اتجهوا الى هدف آخر حاليـا ، فهم مثـل ماندارلوج فى كتاب كيبلنج (كتاب الغابة) والآن بعد أن عرفت مثيرى

الشعب فانني أشعر تجاههم باحتقار وازدراء أكثر من شعورى نحـوهم بالاهتمام ، وقد ابتسمت جان عند اشارة زوجها الى أهل باندارلوج أى الناس القردة الذين يعيشون بلا قوانين ، ويأكلون كل شيء ، الساقطون الذين لا يتكلمون الا كلمات غيرهم المسروقة ، الذين لا يذكرون شيء وهم كثيرون لا يحسون بالخجل وتنطوى نفوسهم على الخسة والشر ٠

سار موكب جنازة رمنجتون بعد وفاته بثلاثة أيام وكان كما سبقت الاشارة تغلب عليه الوحدة كدفن فقير أو انسان ذهب الى عالم النسيان من زمان بعيد ولم يعد يذكره أحد من عارفيه ٠

٦
الأفــلام المصغرة

هبط جيمى بوزارت الصبى الصـغير بائع الصحف البـالغ من العمـر الرابعة عشرة ، هبط السلم محدثا صوتا من أحد مساكن حى بروكلين حيث كان يجمع من عملائه النقود «ويشخشخ» بحفنة من العملة الصغيرة ، فأمسك «بالدرابزين» وانزلق عليه فتبعثرت قطـع النقـود من ذات الخمس سنتات والعشرة وربع الدولار على الارض أسفل السلم ٠

ويروح من الاستسلام المرح الذى يميز صبى الرابعة عشرة أخذ جيمى يلتقط النقود وذهنه منصرف بالفعل فى أمر آخر وظل هكـذا حتى التقط قطعة من ذات الخمس سنتات فوجدها قد انقسمت الى قسمين بسببسقوطها ولاحظ الصبى الصغير بدهشة أن شيئا صغيرا قد أخفى بين جزئى قطعـة العملة ٠

ومع أنه لم يفهم ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء الا أنه عنـدما عـرض اكتشافه على والده أعرب الآخر عن اهتمامه وثارت فى نفسه انطباعات لاتقل عن انطباعات الصبى من أن هـذا الشيء الغـامض لابد وأن يكـون له خطره

وقال بوزارت الاب : «الا فضل أن تسلمها لرجال الشرطة» ووافقجيمى وسلم القطعة ذات الخمس سنتات الى جندى الحراسة فرانك ميلى وهو والد أحد زملائه فى المدرسة ٠

وبعد ذلك بأربع سنوات أى فى ٧ من أغسطس سنة ١٩٥٧ مثل رجل رث الملابس مغمور له عينان زرقاوان باهتتان وشعر أشعث فى محكمة حى بروكلين بالولايات المتحدة على أنه أعظم من أمكن القبض عليهم منجواسيس الاتحاد السوفييتى فى الولايات المتحدة الامريكية ٠

والحادثتان : حادث ـ اكتشاف جيمي بوزارت لقطعة النقود ذات الخمس سنتات وحادثة القبض على رودولف ايفانوفيتش آبل الكولونيل بجهاز المخابرات السوفييتي لما وراء البحار متصلتان برغم انفصالها بنحو أربع سنوات ، أما مدى ارتباط الحادثتين فهو مالا نعرفه ، وقد تمر سنوات قبل أن ندرى شيئا عن هذا ، ولكن من المؤكد أن نعرف أن رجل الحراسة سلم قطعة النقود ذات الخمس سنتات الى مكتب المباحث الفيدرالى ، ونعلم أن الخبراء في مكتب المباحث هذا قد انتهوا الى أن الشيء الذى كان داخل العملة عبارة عن فيلم ميكرسكوبى ، لبطاقة تحمل أرقام وحروف ونعرف أن جيمى بوزارت الذى كان يستعد حينئذ للالتحاق بالجامعة طلب للشهادة اذا دعت الضرورة فى اثناء محاكمة الكولونيل السوفييتى آبل ٠

ولامر مفهوم اعترف مكتب المباحث الفيدرالى عند مناقشة الاهمية الحقيقية لقطعة النقود ، ولكنه أشار الى أنه فى الوقت الذى لم توصلهم فيه مباشرة الى الجاسوس الروسى فانها ساعدتهم بالفعل على اتمام فك رموز شبكة التجسس التى تعمل بتوجيه من آبل ٠

كانت التحريات التى أدت الى القبض عليه وادانته ـ فقد صدر الحكم ضده بالسجن لمدة ثلاثين سنة على الرغم من أنه كان من الممكن الحكم باعدامه بحكم القانون تحريات نموذجية ، اذ تضمنت البحث وتتبع مئات الادلة والشبهات مع التحقيق الدقيق المتسم بالصبر مع المشبوهين، ومحاولة ربط نقاط عديدة تبدو متنافرة لارابطة بينها ٠

ولم يظهر مدى الضرر الذى أصاب الولايات المتحدة من أعمال المتآمرين زملاء آبل والذين وردت أسماؤهم فى عريضة الدعوى ، واذ أنهم لم يقدموا للمحاكمة بسبب أنهم كانوا جميعا فى روسيا وهؤلاء هم فيتالى بافلوف الذى يعمل مع حلقة التجسس الكندية التى ظهرت فى سنة ١٩٤٦ باعتقال الدكتور كلاوز فوخس وهارى جولد ثم الزوجان روزنبرج والكسندر ميخائيلوفيتش وكردكوف الذى كان يشغل منصبا رفيعا بالبوليس السرى السوفييتى وميخائيل سيفرين الذى كان موظفا بسكرتارية الامم المتحدة بنيويورك فى وقت ما ٠

لم يثر القاء القبض على الكولونيل آبل بواسطة رجال مكتب المباحث الفيدرالى ومكتب الهجرة والجنسية بالولايات المتحدة أى ضجة فى شهر يوليو سنة ١٩٥٧ ، ووجهت اليه تهمة الدخول بطريق غير مشروع الى الولايات المتحدة ، ووضع فى معسكر لاعتقال الاجانب فى ماك آلين بتكساس فى انتظار ترحيله ، ولم تظهر القصة هذه التى تعتبر أغرب من الخيال الا بعد أسبوعين من ذلك عندما قدمت ضده عريضة الدعوى ٠

فقد كان يسكن باسم مارتين كولينز فىفندق لاثام الصغير بحى مانهاتن بالشارع الخامس ، وكان له استوديو فنى للتصوير فى الدور العلوى من مبنى برقم ٢٥٢ بشارع فولتون ببروكلين ٠

ولقد فعل الكولونيل مايعجز أى كاتب قصص خيالية عن كتابته فى أى شخصية روائية ، أى أنه عمل مباشرة فى الجانب الآخر من الشارع فى مواجهة محكمة من محاكم الولايات المتحدة الامريكية ٠

وفى الوقت الذى كان المحققون يحققون فيه مع آبل تحقيقا فنيا ، أخذ آخرون يفتشون الاستوديو وخرجوا من ذلك بكنز كبير من الادلة التى أقنعتهم بأن سجينهم لم يكن مجرد مخالف لقوانين الهجرة بل كان أعمق من هذا بكثير ٠

لقد عرفه سكان شارع فولتون باسم أميل جولدفوس الشخصالعزوف عنالناس فى تحفظ برغم مايبديه نحوهم من ود والذى يحترف مهنةالتصوير ويهوى الرسم بالالوان ، وكان صادقا فى عمله ، بل وقد تنبأ أحد الفنانين بأنه سيكون رساما ممتازا فى مدى خمس سنوات ٠

كان قد نزل أرض الولايات المتحدة فى سنة ١٩٤٨ من مونتربال بجواز سفر أوروبى مزيف يحمل اسم اندروكايوتيس ، ولم يكن هذا سوى اسم واحد من عدة اسماء مستعارة ، وكان يحمل فى العادة شهادات ميلاد مارتين كولينز المولود فى ٢ من يوليو سنة ١٨٩٧ بمدينة نيويورك ، وكذلكشهادة ميلاد باسم أميل جولدفوس وهو اسم طفل حقيقى من أطفالمانهاتن ولد فى ٢ من أغسطس سنة ١٩٠٢ (أى بعد مولد آبل بشهر واحد وهو ٢ يوليو سنة ١٩٠٢ ، ولم تكتب له الحياة لاكثر من شهرين ٠

ولما كانت الاموال متوافرة لديه فقد عاش عيشة معتدلة يسرت له السكنى فى الفنادق الحلفية المختلفة وفى الاستوديو الخاص به ، فتعرف على الناس وكان يدفع الايجار فى ميعاده ويتردد بين الحين والحين على البارات لاحتساء الشراب ، ويرضى غرور أصحاب المتاجر المجاورة بمناداتهم بأسماءهم مسبوقة بكلمة « السيد » ٠

لم تصب رجال مكتب المباحث الاتحادى الدهشة عندما اكتشفوا بالاستوديو جميع الادوات المطلوبة لمهنته مثل آلات التصوير والاضواء والمعدات الفوتوغرافية الاخرى ، ولاحظوا باهتمام جهاز الارسال ذى الموجة القصيرة ، وآلات أخرى من العسير الربط بينها وبين مصور برىء ٠

بلغ مجموع الاشياء المختلفة التى جمعوها من استوديو شارع فولتون ١٢٦ صنفا بين مصباح وقواطع للزجاج وبطاريات ومسامير مفرغة وأقلام رصاص وقطع من العملة وأقراط ووثائق وعدسات قوية وأفلام سينما ، وكانت لديه معدات لتسجيل الرسائل فى صورة نقط ميكروسكوبية ، وهذه وسيلة مكنته من تكثيف الوثائق وحفظها بحيث لاتزيد الواحدة منها عن رأس الدبوس ، وبالطبع رفض المحققون عرض ما وجدوه بالتفصيل ٠

انتشر رجال مكتب التحقيقات يتتبعون فى كل سبيل يؤدى الى أى من المصادر بقدر الامكان ، وعلى سبيل المثال كان منها رسالة شكر واردة من صديق من سكان شارع فولتون ومن الغريب معرفة كيف أن آبل قد كسب احساس ذلك الشخص بالعرفان بالجميل ، وقد استمع المحققون لتفسيرالرجل لرسالته ولو أن هذا لم يساعدهم فىقضيتهم ، وهذا الشخص تزوج حديثا فأرسل له أميل جولدفوس هدية من هدايا الزواج ، فذهل الزوجان من أن هذا الشخص الذى تمنى لهم أطيب التمنيات لم يكن سوى الكولونيل آبل من المخابرات الروسية ٠

كانت الرسائل الاخرى مثيرة للريب ، فواحدة منها مكتوبة بخط اليد ولها مغزى واضح ٠

«اشتريت تذكرة على السفينة كوين اليزابيث التى ستبحر يوم الخميس القادم فى الساعة ١ و٣١ ، فهل لاتستطيع الحضور لان ثلاثة رجال يقتفون أثرى » ٠

وأخرى تقول « يستعمل جانبى القطب فى اتجاه السير أيام السبت أو الاحد ، الثلاثاء أو الخميس ـ المقابلة الاربعاء أو الخميس أو الجمعة الثالثة بعد الظهر بدار سينما بالمورا » ٠

ورسالة أخرى أوفيدا أوبرون ـ ٣ بعد الظهر ، المعرض على يسارالمدخل هل هذه صورة جميلة ؟ نعم ، هل نود مقابلة المستر براندت ؟ انه يدخن الغليون ويحمل كتابا أحمر فى يده اليسرى » ٠

كان مركز آبل فى جهاز التجسس السوفييتى مركز رئيسى مقيم فى جهاز لايجب الكشف عنه ، فقد عمل كمنفذ لتوجيه أعمال الآخرين ، وكان يتلقى تعليماته من موسكو بواسطة جهاز استقبال من أجهزة الموجة القصيرة فيوصلها الى الاعضاء فى شبكته ثم يرسل النتائج الى مركز القيادة السوفييتى بواسطة جهاز دقيق للشفرة ٠

وقد تم الكشف عن بعض الاماكن التى يستعملها عملاؤه فى نقل المعلومات فى مذكرات وجدت فى حجرته بالفندق ، وقد انتشروا فى كل مكان حتى المكسيك ، وكانت بعض هذه الاماكن تثير اهتمام الجواسيس فمثلا تعتبر «كوينسى» بولاية ماساشوتس مكانا هاما لاحواض السفن ومحطة جوية بحرية وكانت نيوهايدبارك بولاية لونج ايلاند تقع بالقرب من مصنع لانتاج الآلات الالكترونية المطلوبة لصناعة الصواريخ ، وقد غيم الغموض فى أذهان المحققين بسبب تحديد آبل لمدينة سوليدا بولاية كلورادو وهى مدينة صغيرة تقع فى قلب جبال روكى ليكون مقرا لنشاط أحد رجاله ٠

وهكذا أمكن توصيل عدد كبير من الرسائل المختلفة الفوتوغرافية منها والوثائقية داخل أوعية عديدة مثل المسامير المفرغة وقطع العملة والمجوهرات

ونقلت فى بعض الحالات وثائق ميكرسكوبية الى أوربا الغربية ، ومنها الى روسيا بواسطة عملاء ، وربما كانت ترسل الاخرى مباشرة الى هناك ٠

ومن المشكوك فيه أن يكون أى أسلوب من الاساليب الاساسيه المستعملة بواسطة المكتب التابع لشبكة آبل غير معروفة لدى رجال مكتب المباحث الفيدرالى ، ولكن كان الرجل فى حد ذاته بالنسبة للامريكيين يحظى بنفس الاهمية التى يحظى بها الوعى بجدية وخطورة الحمر ٠

كان وقت القبض عليه عميلا من عمال التجسس له خبرة ثلاثين سنه ، فلم يكن أمريكيا من الامريكيين الموالين للشيوعية المخدوعين مثل هارى جولد أو مثل الزوجين روزنبرج ولا مثل واحـد من العمـلاء التافهين الملتصقين بالسفارة السوفييتية الذين كثيرا ماكشفوا النقاب عن نشاطهم وأنفسـهم بسبب غبائهم ٠

وقد يكون أعظم عميل أجنبى ألقى القبض عليه بواسطة رجال المخابرات الامريكية المضادة ولا يوجد هناك سبب للاعتقاد بأنه لايوجد لدى موسكو عدد كبير مثله طلقاء ، فقد عمل بعد أن مر بفترة تدريب عنيف كمحترف

وقد عمل فى يسر لدرجة أنه يستعصى على أى انسان فهم الاذى الذى يتسبب فيه كان مصورا ، وكاتبا للشفرة ، كما كان مهندسا الكترونيا خبيرا ، وفنانا ورساما بارعا ، وملما تماما بالعلوم النووية ، وكان يتحدث بالاضافة الى لغته الاصلية الانجليزية والفرنسية والالمانية والايطالية بطلاقة ٠

ويستوى معه فى غرابته مرؤوسه ببرنو هايهانن الذى رفع تقريرا الى آبل فى أواخر سنة ١٩٥٢ وبعد انضمامه الى جهاز المخابرات الروس للعمل فيما وراء البحار سنة ١٩٣٩ ، قام بأداء أغلب خدماته بالخارج فى فنلندا ، ومن الحكمة ألا تتحدث كثيرا عن هيهانن الذى تنكر للروسيا وقام بتأدية الشهادة كشاهد أول فى محاكمة آبل ٠

وكالعادة تجاهلت الحكومة الروسية وسفارتها بواشنجتون القبض على آبل ، وقبل الكولونيل كجاسوس محترف تخليهم عنه ، واستسلم للمصير الذى ينتظر جاسوس وقع فى الفخ ٠

وسئل آبل عما اذا كان فى حاجة الى محام فطلب الاتصال بمحامي يدعى آبت وكان المحامى الوحيد الذى يحمل هذا الاسم فى دليل تليفونات مانهاتن هو جون آبت الذى كان مستشارا للشيوعيين فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك فقد اعتذر آبت بكثرة مشاغلة التى لاتسمح له بقبول الدفاع عن زبون جديد ٠

وفى النهاية استغل معرفته بالاجراءات القانونية الامريكية وطلب آبل محاميا عن طريق نقابة المحامين ببروكلين ، ولبت النقابة الدعوة وبحثت له عن محام جيد ووقع اختيارها على جيمس دونوفان (منح أجره البالغ ١٠٠٠٠ دولار للجمعيات الخيرية) الذى خدم مستشارا لمكتب الخدمات الاستراتيجية ابان الحرب ، واشترك فى محاكمة زعماء النازى فى نورمبرج ٠

وقد يكون الامر الذى أثر على المحلفين التسعة والنسوة الثلاث أكثر من شهادة هايهانن هو قصة أدلى بها شاهد غير متوقع هو العريف روى رودس الذى اعترف بأنه خان العهد وسلم بعض الاسرار الى روسيا فى الوقت الذى كان يعمل فيه كميكانيكى فى السفارة الامريكية فى موسكو ، وادين بسببها وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات ٠

ولما عاد الى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٥٣ ، وافق رودس على الاستمرار فى نشاطه الموالى لروسيا ، فى هذه البلاد وقال أن هيهانن أجرى اتصالات به بأوامر صادرة من آبل ٠

سمع آبل ذو الوجه المتحجر الصامت الحكم عليه فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٧ وقد حدد القاضى مارتيمر بايرز عقوبته بثلاثين سنة يقضيها فى السجن ، على الرغم من أنه كان فى وسعه أن يصدر الحكم عليه بالاعدام بموجب قانون التجسس والتخريب ، وقوانين أخرى لزيادة أسباب الامن الداخلى للبلاد والتى أقرها الكونجرس فى سنة ١٩٥٤

وقبل ذلك بيوم واحد خرجت روسيا عن صمتها الذى التزمته منـــذ القبض على آبل فلم تناقش الصحيفة الروسية فى عرضها للقضية الادلة التى تدين الكولونيل آبل كما أنها لم تبذل الكثير مما يشير الى وجود مثل هذا الرجل ، وذكرت أن مكتب المباحث الفيدرالى قبض على مصور فنان يدعى جولدفوس وزيف ضده جريمة خرافية وأدانته المحكمة ، وقالت موسكو أن الهدف هو تحـــويل أذهان الامريكيين وعن الجـــانب القـــذر لمكتب المباحث الفيدرالى (١)

---

١ ـ بقى الكولونيل آبل سجينا حتى استبدل بانطيار باورز قائد الطيارة ى ـ ٢ الذى اسقطه الروس فى ارض الاتحاد السوفييتى (المراجع) .

٧

السرقة الكبرى

لم يثر الرجل القصير الملىء الجسم المستدير الوجه المنزوى فى ركن محطة قطار المترو بعد ظهر ذلك اليوم الاغبر من أيام شهر يناير منذ خمس عشرة سنة مضت انتباه أحد ، بل وحتى لم يجد أحد من غرابة فى أمر كرة التنس التي يمسك بها الرجل الغريب القادم نحوه ، كان هذا البدين المستدير الوجه ينتظر فى مكان معين فى الجانب الجنوبى الشرقى من مدينة نيويورك ، ينتظر قدوم الرجل الآخر وسوف تكون كرة التنس علامة للتعارف ، كما أن الرجل الآخر سيعرفه مما يحمله من قفازات ومن كتاب ذى غلاف أخضر اللون .

وكونا سويا ثنائيا متنافرا ، فالرجل المستدير الوجه عادى المظهر لين العريكة ضعيف الثقة فى نفسه ، أما الثانى فهو شاب نحيل القوام شاحب الوجه مائل الكتفين تحملق عيناه العسليتان الضعيفتان فى لهفة من خلال عدسات سميكة .

كانا فى الواقع اثنين من أكثر الجواسيس خطورة ممن تصادف وجودهم على أرض أمريكية ، ويدعى القصير منهما هارى جولد ويعمل كيميائيا بمدينة فيلادلفيا ، وكان فى ذلك اليوم من أيام شهر يناير سنة ١٩٤٤ قد باع بلاده الى روسيا السوفييتية قبل سنوات عديدة .

أما الرجل الذى يحمل كرة التنس فهو الدكتور كلاوز فوخس عالم الطبيعة اللامع الالمانى المولد والذى أوكل اليه بعد تجنيسه بالجنسية البريطانية عمل فى منطقة مانهاتن الهندسية ، وهذا هو الاسم الحركى لمشروع القنبلة الذرية .

وكانت جريمة هذين الرجلين كما وصفها ادجار هوفر مدير مكتب المباحث الفيدرالى أنها : « جريمة القرن الحالى » هى سرقة أسرار القنبلة الذرية لحساب الروسيا ٠

ولكن دعنا نعود الى مقابلتهما الاولى فبعد أن تبادلا ايماءآت التعارف ركبا سيار ةتاكس الى مطعم فى الشارع الثالث حيث عرف جولد نفسه باسم رايموند ، أما فوخس فذكر اسمه الحقيقى وزود جولد بمعلومات عن مشروع مانهاتن وحدث هذا قبل اجراء أول تجربة نووية ناجحة بعام ونصف عام ، الا أن جولد كان عالما بدرجة تكفى لجعله يقدر امكانيات مثل هذا السلاح ٠

واليوم ينزل جولد فى اصلاحية من اصلاحيات الاتحـاد يقضى فيها عقوبة بالسجن مدتها ثلاثون سنة ، أما فوخس الذى حكم عليه بأربع عشرة سنة ، فقد أطلق سراحه هذا العام من كين ووكر فيلد بعد أن حصل على عفو شامل ، ولا يزال الشر الذى ارتكباه قائما ، ولو حدث وتعرضت بلديهما للفنــاء على يد رجال موســكو الطموحين فان الفضــل يعود فى ذلك الى هارى جولد ، وكلاوز فوخس ٠

ونظرا لانهما انحدرا من بيئتين مختلفتين اختلافا بينا ، فقد أصــبح كلاهما فى لهفة على أن يكونا عميلين فى المؤامرة الشيوعية ، فمن ناحية كان لتخلى فوخس عن التعاليم الدينية وعن النظام الصارم الذى فرضه عليه والده الورع أميل فوخس دور هــام ، وبنفس القدر كان لتعسف ووحشية نازية هتلر أثرها الامر الذى دفعه الى الانضمام الى عصبة الشباب الشيوعى فى ألمانيا ٠

عاش جولد عيشة وادعة فى منزل والديه رقم ٦٨٢٣ شارع كيندريد بمدينة فيلادلفيا ، وقد عاد الى هذا البيت مباشرة بعد أن قابل فوخس ، وكان ابنا لوالدين روسيين هربا من وطنهما فى سنة ١٩٠٧ ، وكان يدعى عند ولادته فى مدينة بيرن بسويسرا هنديش جودولنيسكي ونزح وهو فى الثالثة من عمره الى مدينة فيلادلفيا حيث حولت العائلة اسمه الى إســم انجليزى هو هارى جولد ٠

وكانت حياته وحيدة بمحض اختياره ، فهو منطوى على نفسه منغمس فى قراءة الكتب وجدت فى طباعه الهادئة لمسة من عدم الكياسة ، وتخرج من مدرسة فيلادلفيا الثانوية الغربية والتحق بفصول بجامعة بنسلفانيا وكذلك بمعهد دريكسيل دون أن ينشىء أى صداقة وثيقة مع أى من الجنسين ، فأخذ يدفع نفسه بنفسه فى العمل مستبدلا العلاقات الانسانية العادية بعلاقات أخرى فى عالم الخيال الذى يعيش فيه أناس وأصدقاء لا وجود لهم الا فى خياله ٠

والطريق المعوج الذى سلكه فى خيانته لمدة تزيد على عشرة سنوات يمكن من تتبع خيوطها بسرعة ، لقد وصفها مرات عديدة سواء فى اعترافاته الخاصة أم فى جلسات المحكمة وسط متهمين آخرين ، والشيء الذى نعرفه بدرجة أقل هو قصة مكتب المباحث الفيدرالى التى أمكن بها ادانت هارى جولد وفوخس وزملائهما من الخونة ٠

لم يكن جولد لعبة فى يد موسكو التى لم تدرك بشاعة جريمته والقصة كما رواها لرجال مكتب المباحث الفيدرالى فى النهاية وهى كما يلى « بدأت عملى فى التجسس الصناعى لحساب الاتحاد السوفييتى فى سنة ١٩٣٦، مع ادراكى الكامل لما كنت أفعله ، شعرت كحليف اننى كنت أساعد الاتحاد السوفييتى على الحصول على معلومات من حقه الحصول عليها ٠

والشخص الذى أشار اليه مكتب المباحث الفيدرالى برمز Troy Niles هو الذى وجه جولد الى الشيوعية وقدمه الى أول اتصالات مع جهاز التجسس السوفييتى ويدعى بول سمث عميل المخابرات الروسية ، وكان بوليسا سريا مستترا وراء وظيفة فى شركة أمتروج للتجارة وهى وكالة تجارية روسية بالولايات المتحدة ، وكان هذا هو أول رئيس سوفييتى لجولد بين سلسلة من الرؤساء كان آخرهم اناتولى انتونوفينش ياكوفليف وهو خريج معهد الاقتصاد الهندسى بموسكو ٠

كان جولد يعمل فى ذلك الوقت بشركة سكر بنسلفانيا فطلب منه سميث بطريقته التسلطية أن يزوده بأسرار طريقة جديدة فى صناعة كحول الاثيل ، وعجز بالمرة عن الحصول على هذه المعلومات ، الا أنه حصل على معلومات ثمينة عن آل (لانولين) وصناعة الصابون ، وعملية استرداد ثانى أكسيد الكربون وعدد آخر من عمليات «المحاليل» التجارية ٠

ولكى يحسن مؤهلاته ساعدت موسكو فى مصاريف تدريب جولد فى الكيمياء بجامعة اكسافير بولاية سنسناتى فبرز هناك فى كل شىء الا فى مادة واحدة فقد حصل على أقل درجة فى مادة « قواعد الاخلاق » ٠

وبعد أن استعرض امكانية الاعتماد عليه والثقة به تسلم جولد مهمته الهامة للغاية اذ كان عليه أن يتخلى عن جميع الاعمال الاخرى ، وأن يتصل بالغريب الشاحب المتهالك الذى يحمل كرة التنس ٠

كان فوخس في ذلك الوقت ضمن بعثة علمية بريطانية بعد أن شهدت السلطات البريطانية بولائه وأخلاصه ، وفى أثناء الشهور الستة التاليةكان قد تقابل مع جولد أكثر من ست مرات وسلمه معلومات فنية مختلفة عن البحوث النووية وقام جولد بدوره بتسليمها الى موسكو ، وكانت مقابلاتهما مقابلات عمل محض ولم يضيع وقت فى أى حديث آخر الا مرة واحدة فقد ذكر فوخس أنه ينوى الترفيه عن شقيقته مسز كويستيل هانيمان التى تعيش فى مدينة كيمردج بولايه ماسوتشوستس فى شقته بنيويورك ٠

وفجأة وبدون سابق انذار خرج فوخس من عالم جولد فقد نقل الى مشروع القنبلة الذرية فى لوس الاموس شمال مكسيكو ومضت فترة تقرب من السنة قبل أن يقابله جولد ثانيا طبقا لترتيب سابق في كاستيل ستريت بريدج فى سانتا فى أول يوم أحد من شهر يونيو سنة ١٩٤٥٠

كان جولد قد سافر بالقطار من شيكاغو الى البوكيرك ، من ثم من هناك بالاتوبيس الى سانتافى ولكىيتفادىسؤال الناس عن الطريق أحضر خريطة للمدينة من الغرفة التجارية ، وعلم عليها الطريق الى كاستيلو ستريت بريدج وظهر فوخس وهو يقود سيارة محطمة فى الساعة الرابعة تماما ٠

وقال فوخس ان مشروع لوس الاموس يسير سيرا حسنا الا أن تقديره الشخصى هو أن القنبلة لن تكون جاهزة فى الوقت المناسب لاستعمالها ضد اليابان ، ووضع هو و جولد ترتيبا للمقابلة سويا بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وقبل أن يفترقا مباشرة سلم فوخس كما هى عادة الجواسيس دائما طردا يحتوى على معلومات سرية للغاية ، وفى بحر أيام قليلة كان هذا الطرد فى الطريق الى روسيا ٠

تقابلا ثانيا طبقا للخطة الموضوعة فى ١٩ من سبتمبر سنة ١٩٤٥ ، وثبت أن العالم كان نبيا غبيا ،لانه بحلول ذلك الوقت كانت تجربة القنبلة النووية قد نجحت كما أن اثنين منها قد أزالتا المدن اليابانية من الوجود وانتهت الحرب ٠

كان احساس فوخس أنه ثرثار كثير الكلام وأخذ يتحدث عن والده الذى لم يكن راضيا عن ارتباطه بالشيوعية ، وفى النهاية أخذ يتأمل كنه القوة الجديدة الهائلة التى يمكن أن تستعمل فى الخير وفى الشر والتى أصبحت فى خدمة الانسان بحكم سيطرته على الذرة ، وعندما افترق جولد سلمه مظروفا آخرا ثم اختفت سيارته فى شارع مظلم ولم يره جولد بعد ذلك على الاطلاق ٠

ومن المعلوم أن روسيا كانت تأمل كما عرف فيما بعد أن تفجر قنبلتها الذرية الاولى فى شهر أكتوبر سنة ١٩٥٢ أى بعد أمريكا بأكثر من سبع سنوات وفى الواقع اضطر الرئيس ترومان أن يعلن فى شهر أغسطس سنة ١٩٤٩ أن روسيا قد أحرزت المستحيل وانهت بذلك احتكار أمريكا لهذا السلاح الخطير ٠

وقبل ذلك بوقت طويل علمت الحكومة الامريكية أن أسرارها الاساسية عن الانفجار النووى قد سرقت ، أما متى عرف هذا الاكتشاف المحزن فهذا سر من أسرار مكتب المباحث الفيدرالى الدفين ٠

ومع ذلك فقد عرف مكتب المباحث الفيدرالى أنه كان هناك تسرب خطير فى أمريكا ، فى أثناء الحرب وبعدها ، وكان فوخس يقوم فى ذلك الوقت بأبحاث نووية فى انجلترا ، وبدأت المخابرات البريطانية المضادة فى التحرى عنه ، وذلك بسبب سجله الشيوعى فى الماضى ٠

وبحلول شهر يناير سنة ١٩٥٠ ثبتت جريمة فوخس دون شك أو ريبة ، وفى يوم ٢٤ من يناير سنة ١٩٥٠ أدلى بأول اعتراف له وأصر على أنه مرتاح الضمير وكان شغله الشاغل هو الفكرة التى سيأخذها عنه أصدقاؤه المقربون فى انجلترا ٠

ومن المشكوك فيه حتى الآن أن فوخس أدلى باعتراف كامل ، اذ من المؤكد أنه كان غامضا فى أول وصف له عن اتصالاته بأمريكا ، فقد ذكر أن رجلا فى حوالى الاربعين من العمر طوله خمسة أقدام وعشرة بوصات بدين الجسم له وجه مستدير هو الذى اتصل به ، وقد ينطبق هذا على ملايين الرجال ولكن كان هذا هو كل تجمع لدى رجال مكتب المباحث الفيدرالى ليبدأوا منه ٠

لم يحدث فى تاريخ مكتب المباحث الفيدرالى كله طبقا لتصريح المدير هوفر أن وجدت قضية أكثر أهمية أو عرضت المكتب لمثل هذا الضغط الهائل مثل هذه القضية ٠

وقد لا يتسنى لنا بالمرة أن نسرد القصة بأكملها ولكننا نستطيع الادلاء ببعض الحقائق ٠

بدأ المحققون بشقيقة فوخس فى كمبروج مسز هانيمان فلم تتعرف على أى جاسوس من أصدقاء أخيها ، ولكنها تذكرت أحد الزوار وهو رجل بدين يعمل كيميائيا وكان قد ذكر أن زوجته وأولاده بمدينة فيلادلفيا ٠

وفى مكتب واشنجطون وفى ٥٢ من المكاتب الاخرى بدأ رجال الشرطة بحثهم فى اجتماع الكيميائيين عن مواصفات هذا الرجل المجهول ، وعرضت ١٥٠٠ صورة على مسز هانيمان وزوجها ثم نقلا بالطائرة الى فوخس بانجلترا فلاحظ آل هانيمان بعض التفاصيل المألوفة فى بعضها ، وفعل فوخس نفس الشىء فى البعض الآخر ولكن لم يكن هناك شىء ايجابى ٠

استجوب المحققون أشخاصا ممن يقطنون بالقرب من مسكن فوخس بنيويورك فى الشارع ٧٧ غرب ، وسألوا أصحابه الانجليز والامريكيين وفحصوا سجلات نزلاء الفندق فى سانتافى وتحروا من مكاتب الطائرات والاتوبيسات والقطارات وكذلك من معامل نيويورك الكيميائية ٠

انكمش الالف وخمسمائة مشبوه الى عشرين وبدأ يظهر رجل واحد من بينهم هو هارى جولد اذ كانت تنطبق عليه بعض الاوصاف ، ولا ينطبق عليه البعض الآخر فمن ناحية نجد أنه لم يكن متزوجا الا أن المحققين ركزوا عليه لان اسمه كان بالفعل فى ملفاتهم ، بسبب تحرى آخر اجرى بسبب موضوع شيوعى آخر فى سنة ١٩٤٧ وان كان لم يصل الى نتيجة ٠

أرسلت صورة جولد بالطائرة الى انجلترا حيث فحصها فوخس فى سجن وورموود سكراز فهز رأسه وقال أن الرجل الذى كان يتصل به بأمريكا لم يكن جولد ، فأخذ رجال مكتب المباحث الفيدرالى يضيقون عليه الخناق فقد علم المكتب فى البداية عن جولد بواسطة اليزابيث بنتلى وهى عميلة سابقة شيوعية اعترفت على نفسها ، وبسؤال معارفها عثروا على رجل اسمه جولد ولكنه يطلق على نفسه اسم فرانك كيسلر ، وقد زادت فكرة التحصن وراء اسم مستعار ما ساورهم من شكوك ، وفى يوم ١٥ من مايو سنة ١٩٥٠ دخل رجلان من رجال مكتب المباحث الفيدرالى مستشفى فيلادلفيا العام وسألوا عن جولد الذى كان مسئولا عن المعمل البيولوجى بالمستشفى الخاص بأبحاث أمراض القلب ، وكان مشغولا ولكنه وافق على التحدث مع الرجال فيما بعد ، وفعل ذلك فى تلك الامسية وهو يمثل دور المواطن المتلهف على اسداء المعونة ، ولكنه فى حيرة حقيقية من جراء أسئلة رجال الشرطة ٠

تعرف على صورة فوخس ولكن لمجرد أنها ظهرت على صفحات الصحف بعـد القـاء القبض على الرجل فى انجلترا ، وادعى أنه لا يعرف الرجل ولا شقيقته مسز هانيمان وعندما سئل عن أسفاره قال أنه لم يسافر الى غرب المسيسبى على الاطلاق ٠

وكان يدلى بتفسـير معقول عن كل شىء عثر عليـه المحققون الكتب والصحف العلمية ثم استطاع رجل من المخابرات أن يتصيد على خريطة لمدينة سانتافى من حقيبة كتب فوجد عليها الطريق الى كاستيلو ستريت بريدج ٠

وسئل جولد : « ماذا تقول عن هذه لقد جاء فى أقوالك أنك لم تسافر الى ما بعد نهر المسيسبى غربا » ٠

صمت ٠٠

« هل تحب أن تدلى الينا بالحقيقة كاملة يا مستر جولد ؟ » ٠

وفجأة نطق بالاجابة التى كتمها فى نفسه لسنوات طويلة ٠

« أنا ـ أنا الرجل الذى سلمه كلاوز فوخس المعلومات » وبعد ذلك أخذ هارى جولد يدلى بمعلوماته لعدة أيام وفى البداية كما لو كان بحكم العادة أخذ يزوقها بالاكاذيب ولكنه فى النهاية كما صرح هوفر أدلى بالقصة كلها لا عن عمله فى التجسس فحسب بل بالخيالات والاوهام التى رسمها لنفسه ٠

وبعد القاء القبض عليه فى ٢٣ مايو ثبتت ادانته يوم ٢٠ من يوليو ووفرت له الحكومة التى خانها خدمات محام مرموق هو جون هاملتون الرئيس السابق للجنة القومية الجمهورية ، وفى يوم ٩ من ديسمبر سنة ١٩٥٠ صدر الحكم على جولد بالسجن لمدة ثلاثين سنة ونطق بالحكم قاضى الناحية بالولايات المتحدة وهو جيمس ماك كرانارى ٠

لم تكن قضية جولد نهاية بل بداية اذ بعد أن استرد جولد ضميره بعد فوات الاوان فقد ذاكرته للاسماء والتواريخ والاحداث ،. وبالتدريج بدأ هذا البناء الفض الذى كان هو جزء منه ينهار وحبس بين حطامه بعض أكثر الامريكيين من الذين خانوا بلادهم ٠

٨

قضية كريستوفر لورد

في الساعات الاولى من صباح يوم أسود من أيام شهر مايو سنة ١٩٤٣ طارت طائرة وحيدة منقاذفات القنابل طراز لانكستر فى خضم أمطار تحجب الرؤية الى ساحل فرنسا المحتلة .

أخذ الملاح يعلق فى سخرية وهـو يقوم بضبط لوحة الطائرة بينما كانت الطائرة تئز فوق سحب الاطلنطى منطلقة شرقا عبر خليج بسكاى يقول . « هذا أمر غير طبيعي بالنسبة لشهر مايو » .

فأجاب الطيار « ان الليل كالجحيم ولكن لا بأس بالنسبة للمهمة ، فالالمان لن يجوبوا السماء بحثا عنا فى هذه الليلة المعتمة .

لم تكن هناك قنبلة واحدة للتهديد في بطن قاذفة القنابل من طراز لانكستر ، فالمهمة التى تحدث عنا الطيار كانت أكثر أهمية بكثير بالنسبة لبريطانيا وحلفائها من مجرد اسقاط بضع قنابل متفجرة على هدف من أهداف العدو ، وعلى ظهر الطائرة كان الكابتن كريستوفر لورد وهو عضو سرى بالمخابرات البريطانية ويحمل أوامر بالهبوط فى فرنسا المظلمة ، وكانت وجهته هى تانوس وهى قرية فى حوض نهر الجارون الاعلى على بعد يقرب من خمسين ميلا الى الشمال الشرقى من مدينة طولوز .

كانت مهمـة الكابتن لورد مهمـة خـداعة فحتى ذلك الوقت كانت المخابرات النازية تتلقى معلومات مقدما عن خطط فى لندن لمساعدة مقاتلى المقاومة الفرنسية وقد ضبطت كميات هائلة من الاسلحة والمتفجرات ، وكذلك عدد معين من العمـلاء الذين أسـقطوا فى نقاط مختلفة لتقوية الروابط مع القائمين على أمر الحركة الفرنسية .

وفى مكان ما كان شخص معين يبيع هذه الاخبار للنازيين وكانت مهمة لورد هي اكتشاف الخائن واغلاق الحلقة التى تتسرب منها الاخبار ، الا أن القدر كتب أن لا يتم لورد المهمة على الاطلاق ، وبدلا من ذلك أصبح هو نفسه الشخصية الرئيسية فى قصة غريبة انتهت نهاية مفجعة اتضحت حقائقها فقط ـ وبمحض الصدفة ـ عندما تم تحرير فرنسا ، وغادر أراضيها آخر جندى من جنود الالمان ٠

وعلى الرغم من أن الكابتن لورد ولد فى مدينة برمنجهام فقد تلقى تعليمه بفرنسا ، لان والديه قد استقرا هناك عندما كان صبيا صغيرا فلم يترعرع فى كنف معرفة وثيقة بهذه البلاد فحسب بل كان متمكناً من اللغة أيضا ودرس العلوم المصرفية وعندما اكتسح النازيون الاراضى الواطئة كان متزوجا بالفعل من امرأة فرنسية جميلة ومديرا لبنك باريس ٠

وبعد أن كان يتمتع بمظهر ممتاز خط الشيب شعر لورد الذهبى فى أثناء كابوس الهرب من فرنسا هو وزوجته وابنته الصغيرة فى سنة ١٩٤٠ ، ووصل الى بريطانيا عن طريق شمال افريقية بعد أن شاهد عددا كبيرا من السفن وهى تنسف وتغرق ٠

ومن لندن كتب لورد الى مصرفه ثم بعد فترة وجيزة جدد اتصالاته ، وأصبح منغمسا فى الخدمات السرية ، وتلقى تدريبا كمظلى وقام بالقفز عدة مرات فى فرنسا وبلجيكا ٠

ومع ذلك كانت المهمة الموكولة اليه تختلف عن المهام التى أنجزها من قبل ، ومن السهل أن تستغرق بضعة شهور من وقته ، وكان عليه أن يعيش متخفيا ويتظاهر بأنه لاجىء من شمال فرنسا ، وعندما جلس فى قاذفة القنابل من طراز لانكستر وهى تعبر خط الحدود كانت قدماه ممتدتان أمامه وهو يدخن ، ودون ماشك كان لورد يفكر فى آخر التعليمات التى تلقاها ٠

كان لزاما عليه أن يشق طريقه الى فندق فى تانوس مديره شخص يدعى ليون جوليسك وهو عضو من أعضاء المقاومة ، وكان عليه أن يعرفه بنفسه باستعمال عبارة السر وهى « ان الكتاكيت أصبحت معدة للسوق » فيسأل حينئذ « كم عددها ؟ » وعليه أن يجيب « دستة » ٠

وكانت الخطة هي اسقاط عميلين آخرين معروفين بأسماء حركيين فى أثناء الحرب وهما شادو و لوفافر فى المنطقة فى حوالى ذلك الوقت ولكن من طائرتين مختلفتين وسوف يعملان تحت أمرة لورد ٠

ولابد وأن لورد قد فكر في الامر كذلك من ناحية ما قيل له عن أهمية مهمته وضرورتها ، وكان عليه أن يكتشف شخصية محيرة ، شخصية رجل يعمل مع المقاومة السرية لكي يخونها ، وكان لورد قد استظهر جميع المعلومات التى أعطيت له ، وقبل أن يطير بقاذفة القنابل من محطة جوية من محطات سلاح الطيران الملكى فى مكان ما بانجلترا أخفى كميات ضخمة من العملة الفرنسة زودته بها المخابرات البريطانية فى حزام تحت ملابسه ٠

وكان يلبس سروال حلته الرسمية الا أن اكتافه كانت مغطاه بجاكتة مدنية تبدو عليها التفصيل الفرنسى تماما وكانت جاكته الرسمية الى جواره فلبسها فوق الجاكتة المدنية قبل أن يقفز بالمظلة ، وأدرك لورد أنه لو تخلى عنه الحظ وقبض عليه الالمان عند هبوطه فسوف يعدم فى الحال كجاسوس اذا وجد مرتديا اللباس المدنى ٠

وطبقا للقانون الدولى فان حلته الرسمية تحميه كأسير من أسرى الحرب فى حالة اعتراف النازى بهذا القانون ٠

صعد الملاح وجلس الى جوار لورد وقال : « يجب علينا أن نكون فوق منطقة الهدف بعد خمس عشرة دقيقة » وصاح فوق زئير الطائرة : « هل أساعدك فى لبس مظلتك ؟ » ٠

فهز لورد رأسه وسحب نفسا أخيرا من سيجارته وقال « دنيا عجيبة وابتسم ، كنت دائما أكره الخروج فى أثناء المطر ، أما الليلة فاننى شاكر لذلك لاننى آمل أن يعمى ذلك النازيين عنا » ٠

ابتسم الملاح ابتسامة الموافقة والتقط المظلة المطوية من على الارض ٠

نهض لورد من مكانه وأطفأ سيجارته ومد يده الى جاكتته الرسمية ، ولبسها بعد صراع فوق جاكتته المدنية ثم ارتدى مظلته ٠

والتقط حقيبة ملابس قديمة ، كان قد أحضرها معه وتحرك نحو الباب الذى سيقفز منه فى الظلام والامطار المنهمرة كالسيل .

قال الملاح له وهو يفتح الباب « أتمنى لك حظا سعيدا وهبوطا موفقا » وبعد ذلك بلحظة واحدة قفز الكابتن لورد الى العالم البعيد أسفلا منه ، وسبح فى الهواء كدميه من الخزف ، وأخذ يتأرجح كما يتأرجح فى مجرى سريع ولكنه لم يلبث أن فتح مظلته ، وفجأة انتصب واقفا كم ولو كانت يد هائلة قد أمسكت به وأوقفته عندما انفتحت المظلة وسبح الى أسفل فى وسط الظلمة المبللة الهائلة نحو المناظر المعتمة للحقول والاشجار التى بدآ أنها كانت فى انتظاره .

وعندما شـعر لورد بالدوار اندفع الى كرمة من الكروم وتمدد فوق الحشائش اللينة الناعمة بين خط مزدوج من الخنادق .

وكانت الامطار قد توقف هطولها تقريبا والضباب الرقيق يسبح من حوله .

وبأسرع ما يمكن خلع مظلتـه ولمها ودفن الدليل الخطير فى الخنادق الموحلة ، ثم سمع من مكان ما بالقرب منه الساعة وهى تدق الثالثة صباحا، وعلى صوت الساعة كمرشد له زحف لورد فى خفة عبر الحقول ومنه الى الطريق ثم وقف برهة ساكنا ينصت ويحملق فى الظلام فلم يرى أو يسمع شيئا يثير شكوكه فالسكون كان شاملا كل مكان .

ومن بعيد فى الشرق بدأت خيوط الفجر الاولى تشق طريقها من خلال سحب المطر فسحب مسدسه وجر زناد الامان الى الخلف وسار لورد فى الطريق فى الاتجاه الذى سمع منه دقات الساعة ، تجاه تانوس الساكنة النائمة وفندق ليون جولسك الصغير .

لم تصادفه الا صعوبة بسـيطة فى العثور على ميدان المدينـة ، حيث وصل الى مبنى عتيق بمنافذ مبنية من الخشب وباب وحيد ، ومن ناقلة القول أن نصف المكان على أنه فندق .

كانت النوافذ مغلقة في الدور الارضي ولا يوجد بصيص واحد من النور يهتدى به الى أى مكان ، دفع لورد الباب الصدىء لصندوق البريد وأخذ يحملق منه فوجد أن بصيصا خافتا من النور قد سرى فى الظلام تحت باب في خلف ما كان مفروضا أنه الممر الرئيسى ، وبنظرة سريعة ومن الشارع المقفر طرق على الباب بثبات ثلاث مرات وانطلق فى تلك اللحظة من مكان مجهول خلف المبنى زعق غراب فى سكون الليل وبعد لاى قصير فتح الباب لبضع بوصات ٠

وهمس صوت رجل أجش قائلا « من أنت ؟ » ٠

فأجاب لورد بلغة فرنسية تماما « ان الكتاكيت معدة للسوق » ٠

فقال الآخر « كم عددهم ؟ » ٠

فأجاب لورد « ستة » ٠

حسنا ادخل يا صديقى ٠

زادت فتحة الباب وتسلل العميل البريطانى الى الداخل وسار فى سكون خلف جسم ضخم مارا بالممر الى حجرة خلفية استطاع أن يرى منها الضوء الخافت وكانت حجرة استقبال صغيرة من طراز قديم ، وشاهد مدفأة يتوهج منها الفحم فى ركن من أركانها وتشع الدفء ـ المطلوب ٠

وفي كل جانب من جوانبها يوجد مقعدان مغطيان بغطائين مزركشين ، وزجاجة من الخمر فوق منضدة خشبية أما النوافذ شكانت مغطاه بستائر سمبكة داكنة جعلت المكان مظلما تماما ٠

وعندما فتح مضيفه الخزانة الخشـــبية أخرج قدحين وملأهما بالخمر وقدم واحدا منهما الى لورد وقال « فى صحتك » ومرحبا بك يا سيدى ، ورفع ليون جولوسك قدحه وأفرغه فى بطنه عن آخره ، فقد كان ضخما عريض المنكبين ممتلىء الجسم وعيناه زرقاوان غائرتان تحت حواجب كثيفة كثه ٠

شرب لورد كأسه ومد يديه الباردتين نحو دفء المدفأة وقال : « ليلة قاسية كانت تمطر بغزارة عندما غادرنا انجلترا » ٠

فابتسم الآخر وقال : « ولكنها ليلة طيبة بالنسبة لك » وأخذ يملأ القدح مرة أخرى « لان الالمان لا يتحركون عندما يكون الطقس رديئا حتى لو كان هذا من أجل خاطر هتلر ٠

أخرج لورد صندوقا من السجائر وقدمه الى جولوسك فشاع النور فى عين الآخر وصاح « سجاير انجليزية شكرا لك ياسيدى » وفتح قمه المدفأة وقذف بقصاصة ورق واشعل الرجلان سجائرهما ثم جلس لورد فى مقعد من المقاعد المريحة ٠

ثم سأل لورد « هل وصل كتكوت من الكتاكيت الاخرى ؟ » نعم ٠ ونفث ليون جولوسك سحابة من الدخان « اثنان بالامس مساء واحد فى الحادية عشرة والثانى فى حوالى ذلك الوقت وهما السيدان شادو ولافافر وسوف تقابلهما فى الصباح » ٠

« حسنا وكيف الاحوال هنا ؟ هل يوجد كثيرون من النازيين ورجال حكومة فيشى فى هذه المناطق ؟»

فهز جولوسك رأسه وبصق فى احتقار وقال يوجد مركز سرى للجستابو وعلى الانسان أن يكون حذرا للغاية » ٠

وأخذ الرجلان يتحدثان لمدة نصف ساعة أو ما يقرب من ذلك عن أتباع الماريشال باتان ولافال وأنصار ديجول من الفرنسيين الاحرار وفى الوقت الذى كان لورد فى أمس الحاجة الى النوم أخذ ينصت الى تقرير كامل عما كان يدور فى القرية ٠

وفى صباح اليوم التالى تلقى عمدة تانوس السيد ادموند تاياك الرسالة التالية : « لقد وصل أربعة كتاكيت صغيرة » فنقلت الرسالة فى الحال الى لندن برسالة لاسلكية على الموجة القصيرة بواسطة جهاز كان العمدة تاياك قد سرقه من الالمان ٠

وعندما نزل الكابتن لورد لتناول الافطار المكون من القهوة واللفائف ، وقابل زميليه شادو و لافافر لم يستطع أحد أن يرتاب فى أنه كان مواطنا من مواطنى فرنسا ٠

وفى عزلة صالون جولوسك أخذ الرجال الثلاثة يناقشون المشكلة التى جاءت بالخطر الى تانوس والاجزاء المجاورة لها فقال لورد « من الواضح أن هناك طريقا تتسرب منه الاخبار ويبدو أن بيننا عميلا يعمل على الحبلين عميل فى جنود العصابات الفرنسيين يعمل لحساب الالمان ٠

هز شادو و لافافررأسيهما علامة على الموافقة وقالا « ما لم نكتشف هذا الشخص وقد يكون هناك أكثر من خائن فان شبكة الجاسوسية الخاصة بالحلفاء سوف تزول برمتهـا من الوجود ، وقد لا يكون هنـا فى تانوس بل فى أى مكان آخر فى المنطقة المحيطة ، وقد يكون فلاحا أو عامل بريد القرية ، أو صاحب حانوت أو حتى ربة من ربات البيوت ، أى شـخص يستطيع الحصول على المعلومات السرية التى ترد الى جنود حرب العصابات من مكتب الجنرال ديجول بلندن ٠

أخذ لورد يحملق فى خريطة للمنطقة كان صاحب الفندق قد أعطاها له ٠

وقال : « لقد قسـمت المنطقة المحيطـة كما سـترى الى ثلاثة أجزاء وسوف يكون من الاسـلم اذا انفصلنـا بحيث يختص كل واحد منـا بقطاع » ٠

اقترب شادو و لافافر من المنضدة وأخذا يدرسان الخريطة من فوق كتفيه ٠

وشرح لورد وقال « سوف أكون مسئولا عن المنطقة الجنوبية الغربية التى تضم هذه القرية ، ويمكنك يا لافافر أن تعمل فى الشمال الشرقى ،وأنت يا شادو فى الشمال الغربى ويوجد عدد من الضياع والمزارع فى تلك المنطقة ونستطيع أن نتصل ببعضنا البعض عن طريق جولوسك هنا ، بالطبع سوف تحتاجان الى نقود ٠

وفتح لورد جاكتته وشد قميصه وخلع حزامه وسحب منه بضعة آلاف من الفرنكات ·

جحظت عينا شادو على منظر هذا المال الوفير ، وصاح فى سرور قائلا «يبدو أنهم لا يودون لنا أن نعمل ونحن مفلسين » ·

فقال لورد : « لا يمكن أن نتنبأ بما تحتاجه من مال عند قيامك بمثل هذه الاعمال وقد نتعطل هنا شهورا طويلة عديدة بسبب نقص المال »

وبعد ذلك بيومين سلم ليون جولوسك رسالة عاجلة من شادو لقد عثر شادو على أحد الرعاة عند أطراف عزبة صغيرة على بعد أربعة أميال الى الشمال من تانوس ويعتقد أنه من يبحثون عنه ، وألح فى طلب مقابلة لورد له فورا واقترح شادو أن يتقابلا عند السور الذى يقع خلف كنيسة تسانوس ·

وسواء حضر لورد المقابلة أم عزف منها فهذا أمر لن يتسنى معرفته بالمرة ، فقد شوهد هو يغادر الفندق ثم لم يرجع ، وبعد ذلك بشهر واحد ، وبالتحديد فى يوم ٢٣ يونيو وجد جثمانه وبه أثار أربع رصاصات فى ظهره ملقى فى بئر ·

ماذا حدث ؟ ومن الذى قتل كريستوفر لورد ؟

لم يكن من الممكن حل هذا اللغز لولا مصادفة هامة حدثت بعدذلك بثلاث سنوات عندما تحررت فرنسا من غزاتها الالمان واستقرت تانوس وبدأت القرية تزاول نشاطها السلمى ·

وفى ربيع سنة ١٩٤٦ سار شقيق أرمله لورد بسيارته فى منطقة الجارون العليا فكسرت سيارته عند قرية تانوس واضطر الى قضاء ليلته بالقرية ، وكان المكان الوحيد الذى استطاع أن ينزل هو بالطبع فندق ليون جولوسك وفى أثناء فترة المساء اشتبك الزائر الجديد فى محادثة مع صاحب الفندق ·

فقال وهو يرتشف قدحه من شراب ال بيرنود يا لها من قرية هادئة وادعة لا أظن من الممكن أن يحدث حادث هنا » فأجاب صاحب الفندق « لقد مرت بنا كل اثارات الحرب يا سيدى » كان يجب أن نكون هنا معنا فى ذلك الحين فقد كانت تانوس مركزا كبيرا لجماعة المقاومة السرية ، وقد اعتاد العملاء السريون البريطانيون الهبوط هنا بالمظلات ، وقد وجدنا مرة جثة جاسوس بريطانى قتل لانه اكتشف أنه كان يعمل لحساب الجانبين ، وقذف بجثمانه فى بئر من آبار القرية وربما استعصى علينا اكتشافه لولا ظهور رائحة كريهة ، فى البئر وقد نزل رجلان فيه لاستجلاء الامر فاكتشفا الجثة وأؤكد لك أن ذلك اليوم كان يوما مشهورا » ٠

فانتصب الزائر فجأة وسأل « متى حدث ذلك ؟ » ٠

فى شهر يونيو سنة ١٩٤٣ كما أظن ، سرت الشائعات بأن الرجل قتل على يد جاسوس آخر وبأوامر صادرة من لندن ، وكان يوجد عدد كبير من الجواسيس الذين يعملون فى خدمة الطرفين فى تلك الايام المثيرة ، وهذا ما يمكن أن نسميه مبارزة من أجل الموت يا سيدى ؟

« ماذا كان شكل هذا الرجل الذى وجد فى البئر ؟ » ٠

وهنا رفع صاحب الفندق عينيه الى السقف وهو يفكر مليا وأجاب « رجل عادى طراز معين الرجل يمكن أن يكون جاسوسا ودون أن يحس به أحد ، الا أنه كان يتميز بسمة واضحة وهى خصلة من الشعر الابيض ، واذا كان جاسوسا يعمل لحساب الجانبين فقد كان من الخير قتله ٠ لانه عرض قضية الحلفاء للخطر بدون شك ، وكذلك أرواح زملائه البريطانيين منهم والفرنسيين ٠

أخذ نسيب المسيو لورد يتلوى ويتململ طوال الليل فى فراشه بالفندق ، وهو يفكر فى تلك القصة التى سمعها من مضيفه فى البار ، لان ذكر خصلة الشعر البيضاء كالجليد التى كانت فى رأس الرجل ، ما هى الا اشارة صريحة على أنه من الجائز أن تكون الجثة جثة الكابتن كريستوفر لورد ٠

واتصل تليفونيا بشقيقته القاطنة بلندن فى صبيحة اليوم التالى وأخبرها بما علم به وألح عليها فى الحضور الى فرنسا وتطلب اخراج الجثة من قبرها .

فصاحت قائلة « لم يكن كريس جاسوسا للجانبين كيف يحرفون هذا القول فقد كان يمقت النازيين من كل قلبه ولم يكن يأتى عملا فيه مساعدة لهم ، وبالطبع سأحضر لانه لابد من تبرئة اسم زوجى من هذا التشنيع الشرير » .

ولم تضيع وقتا فى العبور الى باريس والحصول على اذن باخراج الجثة وسارت هى وشقيقها فى وقار الى مدافن تانوس الصغيرة ونظرت الى البقايا البشرية التى أحضرت من المدافن المحلية .

ثم قالت : « بالطبع انها جثة كريس » وأبيض وجهها وتوتر « لقد كان شعره أبيض مثل هذا بالضبط » .

وكانت هناك علامات مميزة أخرى أثبتت بدون أدنى شك بأن الجثة هى جثة زوجها ، وهى سنة من الذهب ومعصم القدم الذى كسر فى أثناء التدريب على الهبوط بالمظلة .

عادت مسز لورد الى لندن وطلبت مقابلة موظف كبير فى وزارة الخارجية .

وأصرت قائلة « اننى أصر على تبرئة ساحة زوجى من هذه التهم المهينة فقد كان رجلا شريفا ولا يهاب أحدا ومات فى خدمة بلاده ومن المخجل أن يلطخ اسمه الآن .

وفى الحال طلب الموظف الكبير بوزارة الخارجية ، تحقيقا فوريا فأرسل ضابطان من ضباط سكوتلانديارد الى فرنسا ليفكوا طلاسم هذا السر الذى دام ثلاثة سنين .

وبمساعدة من الشرطة الفرنسية قاموا بمسح وتفتيش المنطقة المحيطة بقرية تانوس وسألوا الاعضاء السابقين فى جنود العصابات الفرنسيين والفلاحين والقرويين ولم يستبعدوا احتمال وفاة لورد على أيدى الالمـان تماما ، وبعد أكثر من عام من التحريات الواسعة أصدرت وزارة الخارجية البريطانية البيان التالى :

« كنتيجة للتحريات بفرنسا فى الصيف الماضى التى قامت بها السلطات الفرنسية بالتعاون مع رجال سكوتلانديارد عرف أن جثة وجدت فى بئر غير مستعمل بقرية تانوس بالقرب من مدينة كولوز فى شهر يوليو سنة ١٩٤٣ ، وثبت أنها جثة الكابتن كريستوفر لورد الذى سبق أن اختفى فى شهر مايو سنة ١٩٤٣ ، فى أثناء قيامه بعملية عسكرية سرية ٠

وأشارت التقارير التالية التى ظهرت فى الصحافة الفرنســية بأن الكابتن لورد قد أعدم بموجب أوامر صادرة من وزارة الحرب لانه عرض مهمته وأرواح زملائه الى الخطر ٠

ويمكن التصريح بأن الكابتن لم يقتل بموجب أوامر صريحة أو ضمنية صادرة من وزارة الحرب ، التى لم تكن لديها أية معلومات عن وفاته حتى وقت قريب ، من بدء التحريات المذكورة وليس هناك دليل على أن الكابتن لورد خان مهمته أو زملاءه » ٠

أعاد البيان كرامة اسم الجاسوس القتيل ولكنه بالطبع لم يبدد كل الغموض الذى اكتنف هذا الموضوع ، فمن هو قاتل الكابتن لورد ؟ من المحتمل أن يكون أحد رجال الجستابو أو رجلا من المتعاونين معهم أو شخص كان المبلغ الهائل من العملة الفرنسية التى كان يحملها حول وسطه هو دافعه ٠

واذا صح هذا وهو أمر لم ينفه أو يؤيده أحد على الاطلاق بصفة رسمية فان الشخص الذى يحتمل جدا أن يكون على علم بكل ما حدث هو شادو وهو زميله الذى تقابل سرا مع لورد فى الليلة التى اختفى فيها والذى كان يعرف عما يحمله من مال ٠

ولكن لا يمكن أن يكشف شادو الستار عما كان يعرف لان شفتيه قد انطبقتا الى الابد فبمجرد أن أطلق الرصاص على ظهر لورد اختفى شادو من تانوس ثم اكتشف رجال سكوتلانديارد فى النهاية بأنه أعدم شنقا بواسطة رجال الجستابو فى باريس ٠

من غير المحتمل الآن أن يستطيع أحد فك هذه الرموز فالامر الذى يهم أكثر من غيره هو أن اسم الكابتن لورد قد برىء من تهمة الخيانة الشنيعة ٠

ولم يبق شىء ليقال عن القصة التى لا زال القرويون فى تانوس يطلقون عليها « قضية كريستوفر لورد » ٠

٩

رحلة إلى عالم النسيان

كان الدكتور وولتر كالينز مواطنا ينتمى الى الطبقة المتوسطة تصادف أن يعيش فى مركز من مراكـز العـواصف والانواء فى أوروبا الا وهـو «برلين الغربية» ، كان شابا يافعا دمثا يحبأربطة العنق البراقة والحـلل الجميلة ، الا أنه عاش عيشة حكيمة هادئة لا تختلف كثيرا عن معيشـة أى انسان آخر ، كانت عاداته وطباعة ثابتة منتظمة يعيش فى الضواحى يركب اوتوبيس الصباح ليذهب الى محل عمله ثم يعود الى منزله وقت العشاء ، ,مع ذلك فقد كان عمله يميل به الى المغامرة على الرغم من أنه لم يظهر ذلك لاى انسان وعلى ذلك لم يوليه أحد أى اهتمام ، كان محاميا ولكنه كان الى جانب هذا أشهر عضو من أعضاء «المحلفين الاحرار» فى ألمانيا الغربية التى استطاعت بالصبر والاناه والاستقصاء معرفة أكثر عن الجاسوسية والدعاية الشيوعية فى ألمانيا الغربية من أى منظمة أخرى فى البلاد ، ولم يحدث أن طرأ على ذهن الدكتور وولتر لينز بأن مهمته التى أداها بهمه وبوحى من ضميره سوف تعرضه لاشد المخاطر ٠

وفى الواقع لم توات الدكتور لينز فرصة واحدة ، فقد كان شابا هادىء الطباع بيروقراطى قليلا فى مشاعره ، وكان قد تجنب القتال البدنى حتى عندما كان طالبا على الرغم من شهرة الجامعة التى حصل منها على أجازة ، بالمبارزة ، وربما كان من الواجب عليه أن يعرف كيف يدافع عن نفسه ، ومن المؤكد أنه كان يستطيع الالتجاء الى حيل المصارعة اليابانية يوم ٨ من يوليو سنة ١٩٥٢ عندما حدث أمر حطم حياته المنتظمة ٠

كان لينز قد غادر منزله الجميل لتوه كما كان يفعل كل صباح فى ذلك الوقت للحاق بالاوتوبيس من ضاحية ليخترفيلد الى قلب برلين ، وبينما كان يسير فى الطريق أستوقفه شاب صغير يلبس قميصا رياضيا مفتوحا عند الرقبة ، وكان حسن الصوت وسأله عن الساعة وبعد ذلك ظهر أن

الشاب الصغير أشار الى الدكتور لينز لينظر فى ساعة جيب الا أن لينز نظر بسرعة الى ساعة يده وقال للغريب بأن الساعة كانت السابعة والدقيقة العشرين ٠

فقال الغريب « هل تسمح بولعه » ٠

وفى هذه المرة أضطر لينز الى وضع يده فى جيبه وكانت تلك هى اللحظة التى كان ينتظرها قائلة فامسك بكتف لينز وضربة ضربة أفقدته توازنه تماما ، ولف ذراعه حول رقبته وعندما رأى أنه أخذ على حين غرةحاول لينز المقاومة وأوشك على تخليص نفسه ، ولكن طارت نظارته وهو فى هذا الصراع فجردته من كل قدرة وعلى الرغم من اصابته بقصر النظر فقد عجز عن رؤية سيارة تاكسى قد اقتربت منه وقفز منها رجل آخر وطعن لينز بزجاجة وجرة جزئيا الى التاكسى واستمر الصراع وكان ساقا لينز ممددتان خارج التاكسى فركز كل قوته على جعل ساقيه فى الخارج بينما حاول المهاجمون وهم أربعة بالاضافة الى السائق دفعه الى داخل التاكسى حتى لو أدى الامر الى كسرهما ، وفى النهاية سوى أحدهم الامر عندما سحب مسدسه وأطلقه على فخذ لينز وبعد أن سالت منه الدماء وبكى من الالم أصبح أعجز من أن يبدى أية مقاومة فجروه الى السيارة وأغلق الباب ، وأسرع التاكسى نحو خط الحدود بين برلين الغربية والمنطقة السوفييتية فى ألمانيا الشرقية ٠

وعلى الرغم من وجود عدد قليل من الناس ، فقد وقع الخطفأمام شخصين على الاقل فقد صرخت امرأة شاهدت ماكان يجرى طالبه النجدة ، بينما كان سائق سيارة ألبان يقوم بتوزيع لبنه على بعد منازل قليلة فى الشارع ، وقد حاول هذا اللحاق بعربة التاكسى وعندما أدرك الرجال أن انسانا يتبعهم بدأ أحدهم يطلق رصاصة على العربة التى تسير وراءهم فأصابت رصاصة منها الفانوس الرئيسى للسيارة وثانية فى الاطار المعدنى الامامى ، وثالثة أصابت العجلة اليمنى الامامية وطبعيا تختلف العربة الثقيلة عن السيارة الصغيرة المسرعة ٠

كان لينز مستلقيا داخل العربة على الارض وقد جثم أحد الذين خطفوه فوقه لمنعه من المقاومة ، وكانت الدماء تسيل بغزارة فى اثناء سير السيارة نحو شارع دراك لتعبر قنطرة تؤدى الى شارع برلينز ثم الى خط الحدود بين القطاعين ووصلت السيارة الى نقطة التفتيش الشيوعية بدون التخفيف من سرعتها ولابد أن كان هناك من يتوقع وصول السيارة لان البوليس الروسى أندفع ورفع الحاجز بسرعة ، فأنطلقت السيارة نحو هدفها وأصبحت حينئذ

آمنة من المطاردة ، والتفاصيل السابقة مهمة لانها شكلت فيما بعد حقيقة وهى أن البوليس السرى السوفيتى كانت له يد فى عملية الخطف ، وكان حرس الحدود فى حالة تأهب واضح وانتظار للسيارة ..

ولابد وأن وضعت المؤامرة الاصلية بواسطة الجنرال ويلهلم زايسر رئيس البوليس السرى فى المانيا الشرقية بالاشتراك مع أيرنست وولويبر العقلية المدبرة للمخابرات السوفييتية والمنسق بين البوليس السرى فى موسكو والبوليس السرى الروسى الالمانى

أفزعت أخبار الاعتداء الوحشى على الدكتور لينز ألمانيا الغربية وارسلت الاحتجاجات الرسمية تلو الاحتجاجات ، وطالب الدبلوماسيون الامريكيون والسلطات الامريكية ببرلين من الروس والشيوعيين الالمان القيام بتحريات عن هذا الموضوع ، الا أن سلطات المانيا الشرقية أنكرت معرفتها بأى شىء عن عملية الخطف ، فكانت اجاباتهم التى لا يتحولون عنها هي « لا ندرى شيئا » ، وانهم لم يسمعوا حتى عن المدعو الدكتور لينز الذى أبلغ عن غيابه ولكن لم يصدقهم أحد بالطبع ووصم الحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية هذه الادعاءات بأنها حملة اعلامية قام بها الحلفاء الغربيون للتشهير بجمهورية ألمانيا الشرقية المحبة للسلام .

وحدث أن أخطأت النشرة الشيوعية New Justice فنشرت مقالا عن الدكتور لينز تقول فيها :

« لقد وقع هذا الجاسوس فى النهاية فى أيدى الشعب ومحكمة الشعب وعليه أن يدفع حينئذ ثمن جرائمه التى أرتكبها ضد الجمهورية الديمقراطية الشعبية بألمانيا الشرقية ، ولن يمر الامر بسهولة بالنسبة له .. » ومن المؤكد أن هذه المقالة أخجلت الشيوعيين فقد تورط واحد منهم وأصبح الامر يقتضى تصحيح الوضع بجمع النسخ ولم يتسنى ايقاف جميع النسخ عن الوصول فى طريقها الى الموزعين .

وفى نفس الوقت استمر الحمر فى تكرار انكارهم فيقولون أنهم لايدرون شيئا عن موضوع لينز وبالطبع لن يفعلوا شيئا .

ولم يكن هناك ما تستطيع سلطات ألمانيا الغربية أن تفعله كانت غاضبة حانقة ولكن لم يتسنى لها عمل أى شىء أكثر من تخصيص مبلغ ١٠ر٠٠٠ مارك أى مايقرب من ٥٠٠ جنيه استرلينى لمن يدلى بمعلومات عن الجناه ،

وكان المأمول أن تتمخض هذه الجائزة الضخمة عن نتائج في المعسكر الشيوعى لان هذا المبلغ قد يغرى حتى الذين اختطفوه بالكلام ، وتم فى ذات الوقت حصر مئات من المشبوهين وتفتيشهم ونظرا لان عالم الاسرار يعتبر مجتمع مغلق تماما ، فقد راود الامل رجال الشرطة فى ايجاد شخص ما يمكن أن يعرف شيئا عن الجريمة ، وبالطبع لقن الشيوعيون العدد القليل ممن تحوم حولهم الشبهات والذين قد يعرفون شيئا عن لينز المعلومات التى تحول وتضلل التحقيق .

ومرت أربعة شهور قبل أن تتلقى شرطة ألمانيا الغربية أول دليل حقيقى وحدث فى يوم أغبر من أيام شهر نوفمبر أن زار شخص يدعى سونى بريجمان مقر قيادة الشرطة ومعه حزمة ضخمة من الوثائق ، وكانت هذه أول مرة يزور فيها مقر الشرطة بدون حرس من البوليس السرى . وحاول أن يبدى عدم الاكتراث وسار وئيدا الى المكتب ولكن اتضح أنه مضطرب قليلا وطلب مقابلة الضابط الذى يباشر التحقيق فى قضية اختطاف الدكتور لينز .

فحولوه فورا الى رئيس القسم ثم سمح له بالدخول الى مكتب مندوب معين يدعى بول واردتزكى فظهر أن هذا المندوب كان صديقا قديما لهذا اللص الظريف ، وكان قد أجرى التحقيق معه فى بعض القضايا التى اتهم فيها سونى وقد زاد هذا من اضطراب سونى الواضح .

فزام فى ضعة وقال : « لم أكن أدرى أننى سوف التقى بك هنا يا سيدى » فأومأ واردتزكى وهو يزوم قليلا هو الآخر وقال : « أعتقد أنك جئت لمقابلتى بخصوص قضية الدكتور لينز واننى على استعداد لكل ما تريد قوله واذا كانت معلومات صادقة فلن تكون الخاسر فى هذه الحالة »

جلس سونى وهو لا يزال على اضطرابه فى المقعد المريح المواجه لهذا العميل الخاص ، وكان بين الرجلين المكتب الكبير وعليه أكداس من الأوراق فقال سونى : « نعم يا سيدى . لدى بعض أقوال أحب أن أدلى بها اليك وربما تجد فيها ما يفيد ، يقولون ان هناك جائزة مقدارها ١٠٫٠٠٠ مارك فى مقابل أية معلومات قد تؤدى الى أى حل فى قضية لينز » .

احتفظ المندوب الخاص بهدوئه الظاهرى وصمم على ألا يظهر اضطرابه بأية ايماءة عند أول بادرة لاحتمال فك معميات القضية ، وكان احساسه

المستمر فى الماضى هو وجود صلة مباشرة بين الجهاز السرى السوفييتى وعالم الجريمة السرى فى برلين وكان مؤمنا بأن عمليــة اختطاف الدكتور لينز هى ثمرة مباشرة من ثمرات هذا التعاون ٠

وقال : « حقيقة لقد خصصنا هذه الجائزة ولكنها ســتمنح اذا كانت المعلومات تؤدى الى القبض وادانة شخص أو عدد من الاشخاص ٠

وقد فك تأكيد المندوب لسان سونى فقال : « أن سبب مجيىء ليس بسبب المال فقط على الرغم من أنه سيكون نافعا جدا لى ٠ كما تعرف دون شك ، ولكن ليس الامر كذلك فالسبب الحقيقى هو كون هذه العمليــة عملية شيطانية ، وأحس بأننى مضطر للكلام ولست فى حاجة للحديث معك عن سجل أعمالى ولكن هناك أمر واحد لم أنغمس فيه وهو السياسة فقد كنت دائما بعيدا عنها ولا سيما عندما يكون فيها مدافع ورصاص ولم أشترك اطلاقا فى عمليات خطف حتى ولو كان الذين قاموا بهذا العمل من أعز الاصدقاء أو أقرب المقربين وحتى عندئذ ٠٠٠ »

كان المندوب الخاص لا يزال يصارع ما فى نفسه من اضطراب وبدا أن الامور تسير نحو شىء هام ، ولكن هل يمكن الثقة فى أقوال هذا اللص ؟ ركز المنــدوب فى ذهنه كل ما يعرفه عن سونى فقــد كان فى التاسعة والعشرين من عمره ومن المحتمل أنه لم يؤد أى عمل نظيف فى حياته ولو ليوم واحد ، ومع ذلك فلم يكن من الطراز العنيف المتوحش ، فهو ككل وغد أصيل كان لا يدرك أى مسئولية ويسعد بحياته المستهترة ، فلا يريد الا المال وبسرعة وبدون مجهود كبير ، ولكنه لم يكن سفاحا ولا من الرجال الذين يقدمون على أعمال قذرة لحساب أى جهاز سرى شيوعى ٠

نظر المنــدوب فى وجه سونى نظرة عميقة وكان وجها دقيقا واضح القسمات بعيون غائرة ، ومن المؤكد أنه بدا كانسان حرم من الاكل المنتظم لفترة طويلة من الزمان ، وكانت ملابسه رقيقة من البلى كما لم ير قميصه حوض الغسيل لمدة طويلة ويلبس لباس رأس « بروليتــارى » بدلا من القبعة ، وكان غطاء الرأس هذا مستعملا على جانبى خط الحدود ٠

فشجع واردتزكى الرجل المتردد وقال : « لقد ذكرت بعض الأصدقاء أو الاقارب فى معرض الحديث عن موضـــوع الدكتور لينز فهل تتــكرم بالادلاء بما تعرفه فعلا » ٠

ولكنه عندما دعى الى الكلام التزم الصمت وظل هكذا · لقد تشجع حتى وصل الى مركز الشرطة الا أن شجاعته تبخرت بعد ذلك فقد هيىء له ان يد البوليس السرى السوفييتي سوف تمتد اليه ، وكان فى منتهى الجدية عندما قال : « من سيحمينى اذا عرف الروس أننى أنا الذى أفشيت السر ·· اننى ميت لا محالة » ·

طمأنه الهر واردتزكى على أن البوليس سوف يوفر أقصى قسط من الحماية ، وقال : « اذا ساعدت حكومتنا بالمانيـا الغربية فلك أن تتأكد بأننا سنقف الى جانبك ولكن هيا ابدأ قصتك خبرنى بما تعلم عنالموضوع واذا كنت تخشى من أن الروس سيكتشفون ما يدور بيننا فعليك بطرد هذه الهواجس من ذهنك ·

استجمع سونى شجاعته وذكر اسم كونبلوك ! نعم كورت كونبلوك هو الشخص الذىتطلبه فهو الشخص الذىنظم عملية الاختطاف ، وبالمثل يجب أن تعرف أنه مخطوب لشقيقتى ولم أكن أستملح الفكرة منذ البداية ، واعترضت عندما علمت أنهما يسيران سويا ولكن ماذا أستطيع أن أفعله فى هذا الشأن ؟ فقد كان هناك بالفعل أربعة رجال وهم الذين اختطفوا لينز ، وكان كورت كونبلوك واحدا منهم ·

فقال العميل الخاص فى هدوء : « وكيف عرفت بكل ذلك ؟ »

فقال بروجمان فى حذر : « هذا هو ما حدث اننى كنت سيىء الحـظ فى العام الماضى ، وأتذكر أننى فى أثناء خروجى منالمعمعة بعد فترة سجن قصيرة ، وفى وقت كان يملك فيه كونبلوك قدرا كبيرا من المال لم أرى مثله معه من قبل ، وكان يشترى لشقيقتى كل شىء ملابس ومجـوهرات حقيقية ، وتبلوهات وأحذية ، وكثيرا ما كانا يسافران سويا لقضاء أجازة نهاية الاسبوع ·

حسنا لقد ظهر أن كونبلوك يحمل كثيرا من المال ويبعثره وعاش حتى فى منزلنا ، ولم تكن أمى تستملح بقاءه معنا ، ولكنه كان يبدو غنيـا ، وعلى ذلك ما ذايستطيع أى انسان أن يفعل ؟ والآن تصادف أن لاحظت عندما أستيقظ فى الصباح الباكر وجود مسدس الى جانب فراشـه على المنضدة فى حجرة شقيقتى ، فسألته عن سبب حمل المسدس ، وما اذا كانت هناك أية علاقة بين المسدس والمال الذى يبعثره ففسر الامر بمنتهى

البرود أنه يعمل فى عمل طيب من ناحية أكل العيش فيحصل على البن والشاى والكاكاو ومثل هذه المواد ، ولا ضير فى ذلك ، فتحصل عليها في أثناء الليل كما تحصل على مكسب جميل بدون أن يؤدى الكثير من العمل والمسألة مسألة استعمال العقل ·

فقلت : « لا تهزل وكن جادا ومن تظننى حتى تسخر منى ، ؟ أننى لم أولد بالامس والعمل بالسوق السوداء لم يعد مربحا ، فضلا عن أننى لا أتصور أنك تقدم على القتل بحمل مسدس لو كان المقابل عبارة عن كمية عفنة من البن ، لقد شاهدت عمليات كثيرة من عمليات السوق السوداء فى كل من ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ، وقد ظل المشتغلين فى هذا المجال بعيدين عن استعمال المسدس ، فالامر لا يستحق كل هذا وهذا ما قلته له ·

فألححت عليه وضيقت عليه الخناق ثم خرجنا في يوم من الايام واحتسينا قليلا من الشراب ففكت عقدة لسانه فقص لى المزيد عن الموضوع فاعترف بأنه كان واحدا من الرجال الاربعة الذين قاموا بعملية لينز وقد دفع له البوليس السرى الشيوعى بألمانيا الشرقية مبلغا كبيرا فى مقابل ذلك وذكر أسماء كثيرة فذكر رجل يحمل اسم ويلهلم زايسر وآخر يدعى ايرنست وولويبر باعتبار أنهما رؤساءه ·

لم يكن المندوب الخاص واردتزكى حديث عهد بميدان الاجرام فقد تعلم من زمن أن يسقط من حسابه موضوع البقشيشات عندما تبدو عليهم علامات الطيبة وبعض الناس يتمتعون بخصوبة الخيال فلم يكن هناك وسيلة ما تثبت أن الروس لم يرسلوا سونى اليه فاللص لا يمكن أن يكون مخبرا يوثق به ·

وعلى ذلك استقر رأى المندوب الخاص أن يجرى تجربة سيكلوجية بسيطة ، فسأله : « كيف أطمئن أنك تستحق الثقة ربما لا يكون كل ذلك حقيقيا ، لابد وأن تقص على القصة كاملة نقطة نقطة فلا تترك شاردة أو واردة فهل تعطينى البضاعة كدليل وانى على استعداد لاعطائك بعض الماركات اذا كنت مفلسا لابد وأن نصل الى الحقيقة عارية ولابد أن يجرى الموضوع بصفة رسمية اذا كنت قد جئت الى هنا من أجل الجائزة وبعد ذلك سنرى بالطبع ما اذا كانت ستؤدى بنا الى القبض عليهم ·

وكلما أنصت الى قصة بروجمان كلما زاد واردتزكى اقتنـــاعا بأن ما يسمعه هو الحقيقة ، الا أن الامر الذى كان يثـير قلقه والذى قد يكون نهاية لتحقيق قبل أن يبدأ بالفعل هو أن كونبلوك لم يعد مقيما فى برلين أو حتى فى ألمانيا الغربية ، فبعد عملية الاختطاف نقل بواسطة بوليس ألمانيا الشرقية وسـافر الى مكان أمين فى ليبـزج كان واردتزكى يريد كونبلوك بشدة ولكنه كان بعيد المنال وتطور أمر كل ذلك بعد ذلك بعدة أيام عندما أيقن العميل بأن القصة التى قصها سونى بروجمان قصـــة حقيقية ٠

استدعى سونى الى مركز الشرطة مرة ثانية ووضع المشكلة أمامه ، كيف يمكنهم القبض على كونبلوك فابتهج سونى لانه ظن بأن الاستدعاء كان لتسليمه الجائزة ، وبدا الآن أن الشرطة ليست مستريحة لقد أعطاها المفتاح وتحرى العميل وتثبت منه فلماذا التأجيل ؟

اضطر واردتزكى الى تفسير شروط الحصول على الجائزة من جديد ، فقد خصصت الجائزة لتكون مقابلا لمعلومات تؤدى الى القبض ٠ اذا فلابد من القبض على كونبلوكى والا فستضيع الجائزة « لا جـائزة بدون ادانة والامر متروك لك » ٠

شعر سونى بالضيق وقال : « يا الهى كان على أن أتوقع فخا ! كيف يمكننى احضار كونبلوك من ألمانيا الشيوعية الى برلين الغربية مستحيل »

ابتسم واردتزكى وقال : « الأمر لك الآن يا سونى أنت رجل ذكى وقد أظهرت ذلك من قبل ، وربما تستطيع استعمال ذكاءك لحسابنا هذه المرة ، فشخص مثلك يجب أن يكون قادرا على الوصول لحل ، فأنا أعلم أن شقيقتك فتاة جميلة فربما تستطيع مساعدتنا وهنـاك قدرا كبيرا من المال فى الانتظار وقد تعتقد أن لها نصيب فيه هى الاخرى » ٠

ومنذ تلك اللحظة أصبح لزاما على رجال شرطة برلين الغربية وأجهزة المخابرات السرية المتحالفة التى علمت بالقصة أن يختفوا وراء ستار ، اذ لا يملكون سوى الانتظار بينما يستغل سونى اللص المداهن دهـاءه فى العمل على احضار « نسيبه الى المنطقة الغربية بألمانيا » ٠

جاء فصل الشتاء فى نفس الوقت وحل العام الجديد قبل أن تبدو بادرة واحدة تقرب من حل مشكلة الدكتور لينز ، الا أن عملاء البوليس قد تعودوا على الانتظار وحدث فى يوم كئيب آخر عندما ظهر سونى بروجمان فى مركز قيادة شرطة مدينة برلين ، وكان معه خطاب فى هذه المرة فأطلع واردتزكى عليه فزادت ضربات قلب العميل عندما شاهد الامضاء عليه :

« اننى لا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك فمدينة ليبزج مدينة مقبضة سوف أخرج من هنا فى غضون الاسبوع القادم فلا تنفذ المهمة التى حدثتنى عنها حتى أعود ، لأن عقلين أفضل من عقل واحد ، لقد عملنا سويا من قبل فلا تبعدنى عنها الآن ، لأننى أحب أن أحصل على نصيبى منها كذلك فأرجو الانتظار وسأصلك سريعا ولو من أجل خاطر أيامنا القديمة » ٠

المخلص
كورت

٠ * *

أصابت المذكرة بول واردتزكى بالنشوة وسأل فى مكر ودهاء :
« أى مهمة هذه تلك التى يشير اليها صديقك ؟ »

فهمهم سونى وقال : « انه لا يعرف كيف يعبر عنها فالشىء المهم هو احضار كونبلوك الى الغرب وعلى ذلك فقد اخترع قصة ممعنة فى الخيال ، واعتذر قائلا : بالطبع كلها مزيفة ولكننى اقترحت عملية صغيرة نقوم بها سويا كما تعرف شىء بسيط كشريكين ٠٠ » وكان من الواضح أنه غير مستريح عند الحديث عن مثل هذه الاشياء لرجال البوليس ٠

وعلى أى حال فقد فعلت هذه الامور مرات عديدة من قبل ولكننى أفعل هذه المرة بروح حقيقية اذا فهمت ما أعنيه وصدقنى يا هر واردتزكى اننى أسير فى العملية من الآن ، وهذا لمجرد الرغبة فى احضار كونبلوك الى حيث يستطيع بوليس برلين القبض عليه ٠

كان واردتزكى راغبا فى الانصات ولم يكن من المتمسكين بمبادىء الاخلاق ، بل كان ضابط بوليس قديم ، واضطر الى اظهار الاعجاب

بمقدار التفكير الذى اقتضته خطة سونى فهى معقولة فعلا فقد عثر سونى على تاجر قديم من تجار المعادن فى مكان ما ببرلين الغربية يقع متجره على الحدود تماما بين المنطقتين الشرقية والغربية ومن الثابت أن الرجل العجوز قد جمع مبلغا كبيرا من المال من الاتجار فى الحديد والمعادن الخردة، ونظرا لأنه كان من النوع البخيل فقد احتفظ بأمواله فى صندوق بأدراج دولابه بحجرة نومه ، وتركزت خطة سونى على سرقته اذ يستطيع هو وشريكه الدخول عن طريق النافذة الخلفية التى تطل على فناء ويفتحون البدروم عنوة ، ويسرقون الاموال ويهربون فالفكرة سليمة ، والخطة الاساسية هى أن سونى بروجمان سوف يبلغ البوليس عن اليوم الذى ستتم فيه السرقة فيلقى القبض عليه وعلى كونبلوك ويزج بهما فى السجن ثم يترك الامر بعد ذلك الى مفتش البوليس وطلب سونى فى احترام معرفة ما اذا كان سيطلق سراحه سرا ويظل كونبلوك بالسجن أم سيبقى الاثنان معا فى الحجز أو لفترة من الوقت على الاقل وقال سونى : أى شيء يراه المفتش مناسبا وأعرب عن الامل فى أن البوليس سوف يدرك سلامة الخطة

وبعد ظهر يوم ٩ من مارس سنة ١٩٥٣ اتصل سونى بروجمان تليفونيا بالمندوب الخاص واردتزكى وكانت رسالته قصيرة وفى الموضوع وتم الاتفاق على أن ينتظر البوليس عند التقاء شارع برونمان وشارع ديمنير فى الساعة السابعة من نفس تلك الليلة ٠

وشارع برونين واحد من الشوارع التجارية ويقع فى حى فقير من أحياء برلين ، وهو شارع شديد الازدحام تجوبه السيارات والعربات الثقيلة هذا لو أغفلنا ذكر الدراجات التى لا حصر لها والتى تجيء وتذهب طوال اليوم ٠

أما شارع ديمنير من ناحية أخرى فشارع جانبى أصغر بكثير يؤدى الى السوق الرئيسية ، ويقع تاجر الحديد الخردة عند تقاطع الشارعين ٠

وضع واردتزكى عددا كبيرا من الرجال بملابسهم العادية على الابواب المواجهة للمتجر واطمأن الى تغطية كل ركن وتولى هو المراقبة عند الركن القريب جدا من المتجر وفى الساعة السابعة ظهر سونى بروجمان فى الشارع فلمح واردتزكى وسار نحوه وقال : « هناك ثغرة بسيطة فى الخطة

لأن كونبلوك لا زال منتظرا عند الحدود اذ داخله الشك من ناحية العبور الى القطاع الغربى فأرسل سونى الى الحدود لاكتشاف الموقف والاطمئنان الى أن كل شيء على ما يرام وهذا هو السبب فى ظهور سونى وحده ٠

أحس واردتزكى وهو المحقق الماهر بأن سونى فى منتهى الخوف فهناك خطأ ما واما أن يضع أصبعه عليه والا ! ربما يكون الشك قد سيطر على كونبلوك وحذر سونى من مغبة محاولة عبور الحدود مرتين وظهر أن سونى قد أفرط فى الشراب واستطاع واردتزكى أن يحس بندمه لوضع خطة للقبض على كونبلوك ٠

أدرك مندوب البوليس أن عليه أن يتحدث بسرعة جدا واذا كان له سلطان على سونى ، فهذا هو وقت استغلاله فقال أنه لم يكن يتوقع اطلاقا أن يتحول وجهه الى هذه الصفرة ، فلابد من تنفيذ الخطة الاصلية وأنه لن يندم عليها ٠ واذا كانت النقود ستساعده فسوف يعمل على زيادة الجائزة المقررة أصلا زيادة دسمة وبعد ذلك يستطيع سونى لم شمل عائلته أى شقيقته ووالدته ثم يغادرون برلين الى أى مكان فى ألمانيا الغربية حيث سيجد لديه ما يكفى لبدء صفحة جديدة فى حياته ، وهذه هى فرصة العمر الحقيقية بالنسبة لسونى ٠

ظهر الاطمئنان على سونى وقال : « حسنا جدا سأفعلها » واختفى وانتظر رجال البوليس فى مراكزهم ومرت عشرون دقيقة وبدا كما لو كان كونبلوك لن يظهر وربما عاد سونى وقال لزميله بأن الطريق لم يكن خاليا وبينما كان واردتزكى على وشك تأجيل الخطة رأى رجلا يقترب من الجانب المضاد من الشارع وفى نفس الوقت جاء عدد آخر من الجانب الآخر لشارع ديمير ٠

لن يحضر الرفيق كونبلوك قبل أن يمسح بعض أعوانه المنطقة ويؤكدون له أن السرقة ستتم بدون أن يتعرض للخطر ٠ أصبح لزاما على رجال البوليس أن ينصرفوا بسرعة وشاهد واردتزكى سربا من الفتيات وقد تجمعن حول نافذة محل لبيع الزهور وكن يضحكن ويتجاذبن أطراف الحديث فاطلق العميل اشارة الى رجاله فخرجوا من مخابئهم وانضموا اليه

وعندئذ سار الضابط نحو الفتيات وقال : « نحن من رجال البوليس وفى حاجة الى معاونتكم لبضع دقائق فسوف نقف هنا الى جواركم فتظاهروا بأننا أصدقاءكم فاضحكوا وتحدثوا وتصرفوا تصرفا طبيعيا » ٠

كانت الفتيات لامعات وأدركن المغزى فورا واستمروا فى الحديث ومطارحة الاصدقاء المزعومين الجدد الغرام ودخل واردتزكى اللعبة وأنظاره على الشارع ، وبعد ذلك بدقائق قليلة عبر كونبلوك وبروجمان السارع وسارا نحوهم ، وانطلقا الى الجانب الآخر من الطريق ودخلوا الى ردهة منزل قديم وبمجرد دخولهم أدرك انضابط أنهم سيجدون طريقهم الى البدروم حيث يقطن تاجر الخردة فمنحهما واردتزكى دقيقة ونصف لاتمام العملية وسحب مسدسه بعدها وأمر رجاله بالسير وراءه ، وبعد أن عبر الشارع ، دخل من باب صغير يوصل الى المدخل الخلفى للفناء وكان يتحرك حينئذ بسرعة كأنه يجرى فرأى النافذة الخلفية مفتوحة وتأكد من وجود كونبلوك وعصابته وهم يفتشون حجرة تاجر الحديد الخردة الغائب ٠

كان المطلوب هو القبض على كونبلوك حيا وسيبقى حيا ما لم يستعمل مسدسه ، فأمسك واردتزكى به وضغط بمسدسه على ضلوع الخطاف وسحبه بيده الاخرى ليضع القيد على يديه وقال : « لا تتحرك والا سأطلق الرصاص وينسحب هذا القول عليكم جميعا ، فالمكان كله محاصر والافضل الاستسلام فى هدوء » ٠

هز كونبلوك رأسه ثم قال : « هذه نهايتى » وتحرك الى الخلف وفوهة مسدس واردتزكى مصوبة اليه ثم انهار وسقط على حائط الحجرة التى حاول سرقتها ٠

وبعد ذلك بوقت قصير أقتيد الى مكتب البوليس وطلب منه الجلوس على مقعد ووقف رجل من رجال البوليس على كل من الجانبين وكان يرتعد ومن العسير أن يكون هذا هو زعيم العصابة كما كان ومع ذلك فقد أحس واردتزكى بقليل من الشفقة ٠

وبدأ أولا بالروتين المألوف وهو التحقق من شخصيته فقال ان اسمه هو كورت موللر ولكنه سرعان ما اعترف بأن اسمه كورك كونبلوك وأنه

اشترك فى عملية خطف الدكتور لينز وأخذ يبكى كالطفل عندما عرضت عليه صورة من صور لينز ، وصاح : « هـذا هو الرجل هل تعذبنى ؟ سوف أدلى اليك بكل ما أعرف وأرجو فقط ألا تقتلنى ولا تبعث بى ثانيا الى الروس » ٠

كان كونبلوك فى الثانية والعشرين من العمر فقط وخريج اصلاحية من اصلاحيات الاحداث ، وسجن أربعة مرات بسبب السرقة ولم يكن قبيح الخلقة له شعر أسود ومتموج فى حاجة ماسة الى حلقه وكانت عيناه خليط من اللونين الاخضر والازرق ، قوى البنية على الرغم من قصره قليـــلا ، ودربته الاصلاحية على حرفة النجارة وربما تسنى له أن يصبح عاملا أمينا لو أن ظروف الحرب لم تمزق برلين وتحوله الى الجريمة كما حولت الكثيرين غيره ٠

أظهرت قصة كونبلوك وجود صلة مباشرة بين الشـــيوعيين وعـالم الجريمة المستور ، وبدأ ذلك فى ربيع سنة ١٩٥٢ عند اطلاق سراحه من سجن من سجون برلين الشرقية بعد أن قضى عقوبة مدتهـا ستة شهور بتهمة محاولة السرقة وخرج وهو مقتنع بشفائه الى الابد من حياة الجريمة ، اذ لا مستقبل لانسان لا يكاد يخرج من السجن حتى يدخله ثانيا ، وتعهد بينه وبين نفسه على سلوك الطريق القويم ٠ ومع تصميمه الاكيد على عدم دخول السجن فقد عجز عن ايجاد وظيفة ومرت به الاسابيع وتبدد معهـا الامل فى العثور على عمل يؤمن به حياته ، وفى ليلة من الليالى كان جالسا على مقهى من المقاهى المحببة الى نفسه عندما اقترب منه رجل سـبق له التعرف عليه بالسجن وقال : « هل تحب الاشتراك معى فى عملى ؟ »

فسأل كونبلوك : « أى نوع من الاعمال ؟ »

« آه اننى أعرف رجل يحب الشحن والتفريغ ، وهذا عمل يدر عليك الكثير من المال » ٠

راق هذا العمل لكونبلوك تماما ، فهو فى حاجة ماسة الى المال وفى النهاية قدم الى رجل طويل القامة له صوت خشن أجش يدعى بول ، ولم

يحدث أن عرف اسمه الثانى اطلاقا وكان بول رجلا عرك التجارة ، وحضر للمقابلة ومعه بعض الاوراق « ملف » كما سماه ، وظهر أن هـذا الملف عبارة عن ملخص قصير لمهمة كورت كونبـلوك ويتضمن أدلة تثبت ادانة كونبلوك في جريمة سرقة ارتكبها فى سنة ١٩٤٧ ، وكان الموضوع غاية فى البساطة سوف يلقى القبض على كونبلوك فى الحال ويقدم للمحاكمة ومن المحتمل أن يصدر عليه الحكم بالسجن خمس سنوات يقضيها فى أحد سجون ألمانيا الشرقية ، ومع ذلك فان كونبلوك كما يعرف بول ، رجـل طيب ومن الممكن الثقة به ، وملف البوليس هذا يمكن القذف به فىالنيران وينسى الموضوع كله ولكن لا بد وأن يقوم كورت بعمل ما فى مقـابل ذلك •

وقال بول : « أنت شاب وشاب ذكى كما قال لى الناس ونحن فىحاجة الى شخص مثلك ، أقبل العمل معى وأعدك بأنك ستحصل على كل المـال الذى تحتاجه وليس هناك من سبب يدعوك للخوف من البوليس •

فقال كونبلوك : « وما هو الشىء الذى لابد من عمله حتى أحصل على هذا المال ؟ »

« نقل شحنات » •

أراد كونبلوك أن يعرف فقال : « أى نوع من الشحنات ؟ »

« ستعرف فى الوقت المناسب فلا توجد أسئلة أكثر مما ينبغى حاليا فأى شىء تريد السجن أم وظيفة حسنة ؟ فكر فى الامر وفـكر بسرعة اذ لا أستطيع تضييع أى وقت آخر معك » •

وبالطبع قبل كونبلوك عرض بول فلم يكن أمامه خيار فوافق وقال : اننى معك وسأنفذ كل ما تأمر به •

شرح بول الموضوع وهو أن أحد أصدقائه وهو رجل يدعى هارى بنوتيز سوف يزوره ويفهمه دوره ، وقبل انصرافه سلم بول الى كونبلوك عشرين ماركا كدفعة أولى لما سيأخذه فيما بعد •

لم يكن كونوبلوك يدرى شيئا عما يريدونه منه ، ولكنه استطاع بعد تحريات قليلة في الاماكن الصحيحة أن عمله سيكون مع البوليس السرى لالمانيا الشرقية ، وأن بول مخدومه هو رجل الميدان الخاص بالجهاز السرى السوفييتى ٠

وفى أول يوم من أيام شهر يوليه قام هارى بنويتز وهو لص محترف هو الآخر بزيارة كونبلوك فى شقته وأخبره أن أول مهمة قد آن أوانها وسوف تتم فى اليوم التالى مباشرة ، وبالطبع أخذ كونبلوك بعد ظهر اليوم التالى فى سيارة رمادية من طراز سيدان وكان ركابها هم بول وبنويتز ووافد جديد يدعى هيربرت كروهر واندفع الرجال الى مطعم رخيص في مكان ما بقلب برلين الشرقية ، وهناك قابلوا عضوا خامسا من الجماعة وذهبوا بعد ذلك الى شقة كارلسهورست وكانت هذه الضاحية من ضواحى برلين الشرقية مقرا معروفا لقيادة لجنة الرقابة السوفييتية لسنوات عدة ، ومركزا للبوليس السرى السوفييتى ٠

قضى بول المساء مع المجموعة واحتسى كثيرا من الخمر وكان هدف حفل المساء هو التأكد من أن كونبلوك لن يتحدث مع أى انسان وأخذ بنويتز يشرح الموضوع ، وبعد ذلك صعد الرجال الخمسة سلم فندق رخيص واشترك كونبلوك فى النوم فى غرفة واحدة مع بنويتز ، فنام فى الحال بفعل البيرة التى أفرط فى احتسائها ولم يسأل أى سؤال ٠

واستيقظ فى الصباح الباكر فى يوم ٣ من يوليو وركب بنويتز وكونبلوك وبينتز وكروجر السيارة الرمادية من طراز أوبل ، وانطلقوا الى برلين الغربية ، وكانت وجهتهم منزل الدكتور لينز ، وحتى تلك اللحظة كما جاء فى اعترافات كونبلوك لم يكن يعرف أى نوع من الشحنات عليه أن ينقله ولكن قيل له أن الشحنات ليست للسوق السوداء ولا من نوع تهريب البن بل هى شحنة بشرية لا بد من نقلها ، ولم يتقبل البوليس هذا الجزء من روايته أبدا ، فقد اعتقدوا بأن كونبلوك كان ذكيا ومدركا لما ينتظره ٠

وكان بنويتز هو الذى أفضى اليه بالسر وها هو جزء من اعترافات كونبلوك كما أدلى به الى العميل الخاص واردتزكى ٠

« وصلنا شارع دراك فى الساعة السابعة صباحا ، وكان على كروجر وبنويتز أن ينتظرا بالسيارة ، وكان علينا سحب لينز اليها ، أما رجل البوليس عند الحدود فكانوا متيقظين لاستقبالنا وفتح الطريق لنا وبدا كما لو كان لا يوجد فى الامر شىء ، ومع ذلك لم تنجح المحاولة فى يوم ٣ من يوليو لانه على الرغم من أن الوقت كان مبكرا فقد تواجد عدد كبير من الناس عندما ظهر لينز وهو يسير فى الطريق الى محطة الاوتوبيس فعادت العصابة الى كارلسهورست ٠

استاء الشيوعيون لهذا الفشل وقرروا أن بنويتز ليس الرجل الصالح لاداء هذه المهمة فغيروه برجل جديد اسمه كورت بوركاردت وهو مصارع محترف وبطل من أبطال الملاكمة له سجل حافل بالجريمة ، أكثر من سجل أى انسان آخر ، وكان هو الرجل الذى تغلب الدكتور لينز على أمره فى ذلك اليوم المشئوم اليوم الثامن من شهر يوليو ٠

وفى ذات الوقت استقر الرأى على تركيب لوحة معدنية للسيارة من لوحات برلين الغربية ، وتسلم الخطافون الاربعة أربعة بنادق أوتوماتيكية وزجاجة أثير ولفافة من القطن ٠

وطبقا لما جاء باعترافات كونبلوك كان كورت بوركاردت مسئولا مسئولية كاملة عن القبض على لينز وجره الى السيارة ، وكان كونبلوك هو الذى ضربه بزجاجة الخمر وكروجر هو الذى قاد السيارة ٠ واعترف كونبلوك بأنهم دفعوا له ما يساوى ٦٠ جنيها استرلينيا مقابل الدور الذى قام به فى العملية ، وكان جميلا أن يضع نقودا فى جيبه واحتفظ بالسر مدة من الزمن ولكنه لم يستطع مقاومة التفاخر به ، وفى النهاية أرسل الى ليبزج حيث حجزت له حجرة بأحد الفنادق وأعطى بطاقة تحقيق شخصية مزورة بحيث أصبح اسمه كورت موللر ووعدوه بصرف ٧٠٠ مارك شرقى شهريا ، وكان هذا المبلغ كفيل بابعاده عن الشر كما يعتبر أجرا لعمله كمخبر ٠ وكان من المفروض أن يعمل كونبلوك من أجل كسب قوته ٠

ولضمان بقائه قانعا ، قدم له الجهاز السرى بألمانيا الشرقية فتاة لتكون صديقة له اسمها هيلجا أوتو وأمرت بادخال السعادة على كورت موللر ومساعدته فى عمله كمخبر ، ونجح التدبير نجاحا كبيرا ، ولم يمض وقت طويل حتى انتقل الاثنان الى نفس الشقة ، وبعد ذلك بشهور قليلة عرفت شقيقة بروجمان الظروف التى يعيش كونبلوك فى كنفها فأقسمت الفتاة على الانتقام من حبيبها الذى هجرها .

وبعد أن عاشا سويا فى رغد وود سرعان ما أخبر كونبلوك عشيقته الجديدة بقصة اشتراكه فى عملية خطف لينز والواقع فقد كان يعانى من اضطراب الوحدة بسببها ويقاسى بشدة من احساسه بالذنب ، وفى سياق الحديث مع هيلجا قال انه لم يهتز اطلاقا فى حياته للسرقة ، لقد عمل بجميع الحرف الكبيرة والصغيرة ولكنه لم يحدث أبدا أن ضرب رجلا بزجاجة خمر وحطم وجهه أو اشترك فى جريمة خطف انسان ، أو تسبب فى موت أحد ، وعجز عن تناسى هذا الموضوع ، وبدأ يصاب بنوبات من الصراخ والأحلام المزعجة ثم ساءت الامور عندما قرر البوليس السرى الشيوعى أن كونبلوك لا يستحق النقود التى ينفقونها عليه ، فأوقفوا المرتب فواجه الحبيبان أوقاتا عصيبة بالفعل تحملتها هيلجا لمدة أسابيع قليلة ثم لم تعد تتحمل أكثر من ذلك ، وبخاصة عندما انقطع عنه راتبه ومن ثم رأت أنه لا داعى لان تقاسى هى هذا السوء ، وعلى ذلك خرجت خلسة بعد ظهر يوم من الايام وعادت الى برلين .

كان لهذا أسوأ الاثر على كورت ففقد أعصابه ولم يعد يطيق الحياة وحيدا ، وعندما بلغ هدا الحد كتب خطابا لنسيبه القديم سونى وذكره بمغامرتهما سويا وأشار الى استعداده للعودة ، فأغراؤه بالعودة الى برلين كان أمرا سهلا ميسورا فخطا الى الفخ الذى نصبه له سونى ، كما ولو كان يبغى تسهيل القاء القبض على نفسه .

لم يستفد سونى بروجمان كثيرا هو الآخر على الرغم من تعاونه التام مع بوليس برلين ، ولم يكن الصبر من بين فضائله وعندما تأخر صرف الجائزة فقد الصبر وسرق دراجة وكانت الدراجة السابعة عشرة التى سرقها بروجمان فى حياته وصدر الحكم عليه بالسجن لمدة ستة شهور .

أما فيما يتعلق بالدكتور لينز الضحية التعسة للخطف فقد اختفى فى عالم النسيان ، وكل ما استطاع البوليس معرفته هو أنه نقل الى سجن من سجون البوليس السرى فى برلين الشرقية وعرفت مخابرات الحلفاء السرية فيما بعد وذلك عن طريق شبكة تجسسهم المضادة أن لينز نقل الى سجن من سجون المخابرات السوفييتية فى كارلهورست ثم بعد ذلك الى احدى معسكرات الاعتقال فى هومنسون هوزير ومن المعتقد أنه لم يعد حيا يرزق ، فقد اختطف لانه عرفوا أنه أحد العملاء المهمين فى جهاز الجاسوسية المضادة فى ألمانيا الغربية وكان عمله مهما لدرجة دفعت العدو للمقامرة بهذا المجهود الهائل لوضع حد له ، ولكن الشيء الساخر ، أن اختطاف لينز لم يضعف من همة الذين يعاونونه واستمر الامر بعد اختطافه بأكثر عنفا مما كان قبل هذا .. وكانت رحلة الى عالم النسيآن بلا أثر على عمله الذى بدأه هو فى القتال ضد الشيوعيين فى ألمانيا الشرقية .

١٠

أعظم جواسيس ونستون تشرشل×

عرفت كريستين جرانفيل وهى لا تزال طفلة صغيرة ، وكنت فى أول مرة قابلتها فيها ضيفاً على أبيها وكان هذا فى عام ١٩٣٣ ، وكانت هى فى ذلك الوقت فتاة جميلة فى ميعة الصبا فوارة الذكاء تنطوى نفسها على حب عميق للحياة ، ثم قدر لها بعد ذلك أن تكون من أعظم النساء العاملات فى ميدان الجاسوسية فى زمننا هذا وبطلة من أبطال بولندا وبريطانيا ومحاربة من أقوى المحاربات ضد النازية ، ثم حاربت عندما قسمت بلادها لرابع مرة فى التاريخ ضد الكرملين ، وقد منحت وساما من الحكومة البريطانية وأشاد بذكرها ونستون تشرشل شخصيا وأسدى لها الشكر ، وكان اسمها الحقيقى « كريستينا » وكانت تحمل لقبا قديما هو لقب الكونتيس .

وقد عرف كل من عمل بالمخابرات فى أوروبا كريستين ، الجميلة وقد تأثر الآلاف غاية التأثر عندما ذاعت الانباء عن مقتلها فى لندن على يد مجنون تهم للجنس هام بها عشقا وحبا .

ولقد رفض عدد كبير من ضباط المخابرات تصديق القصة على أنها جريمة عاطفية فلقد تمت تصفية عدد كبير جدا من العملاء الاجانب بنفس الطريقة فهل كانت كريستين جرانفيل ضحية أخرى من ضحايا حرب الجاسوسية ؟

ففى ليلة ١٥ من يونيو سنة ١٩٥٢ وفى الساعة العاشرة والربع دخلت كريستين جرانفيل الداكنة الشعر الودود الباسمة دائما ، دخلت بهو فندق شيلبورن بلندن وحياها الخادم الليلى جوزيف كويديسكى البولندى المولد كذلك عند دخولها .

× نشرنا عنها فصلا كاملا من ص ١١٨ الى ص ١٣٤ فى كتاب «فن الجاسوسية» بقلم رونالدسيث اصدار الهيئة (المراجع) .

وبينما كانت كريستين تصعد الدرج فى طريقها الى حجرتها هرول رجل من مدخل الفندق وقال : « كريستين هل أستطيع التحدث اليك ؟ » .

فاستدارت فوق السلم وعادت واستمر الخادم الليلى فى عمله وأخذ الاثنان يتحدثان فى الردهة وفجأة ارتفع صوت كريستين فى رعب .

وصاحت : « اتركنى وحدى ابعده عنى النجدة !!

فهرع الخادم الليلى كويديسكى وموظفان آخران الى نجدتها ولكن كان الاوان قد فات .

انهارت كريستين وبرز خنجر طويل فى صدرها وتمددت على الارض والدماء تنزف منها حتى فارقت الحياة .

وهنا قال القاتل وهو يحملق فيها بعد موتها : « لقد أحببتها وقتلتها أطلبوا البوليس حتى ننتهى من هذا الموضوع بسرعة » .

فتش موظفو الفندق جيوبه فوجدوا معه زجاجة خمر وطلبوا بوليس سكوتلانديارد .

وصل مفتشو المباحث الجنائية بعد دقائق قليلة وبدأت الاسئلة الروتينية وختمت حجرة كريستين بالجمع الاحمر ووضعت القيود على أيدى القاتل ونقل الى مركز قيادة البوليس ومرة أخرى بدأ التحقيق :

كان القاتل ضئيل الجسم أسود العينين داكن الشعر عالى الجبهة جيد الثياب يرتدى معطفا بنيا فاتحا ومنظره يدل على الفكر الا أنه كان حينئذ قلقا متوتر الاعصاب ، وعندما سئل عن اسمه قال دينيس جورج مولدونى، فقد أظهر تعاونا فى نقطة من النقط على الاقل ولكنه كان غامضا مخاتلا ومضطربا فى النقاط الاخرى ، واعترف قائلا : « اننى أعترف بأننى قتلت كريستين جرانفيل فقد كنت أحبها حبا عميقا ، وهذا هو سبب قتلى لها ، والآن لا يمكن لاى انسان آخر الاستحواذ عليها وانى على استعداد لدفع ثمن جريمتى فأرجوا أن ننهى الموضوع بسرعة ! » .

أعيد مولدونى الى زنزانته ثم بدأت سلطات اسكوتلانديارد تحرياتها نى صبيحة اليوم التالى .

ذهب مدير التفتيش جورج يننج مع محققيه الى فندق شيلبورن وشهد ادجار ويلز المدير بأن كريستين كانت نزيلة بالفندق منذ نهاية الحرب فى سنة ١٩٤٥ « وكانت هادئة كريمة مثقفة ومحبوبة ولم يكن لها أعداء الى غاية ما أعرف » ٠

ولم تكن تعيش بصفة دائمة بالفندق فتغادره لبضعة شهور لتقوم برحلات ككبيرة للمضيفات فى بعض السفن أو لزيارة أقاربها فى الخارج ، وكان جميع موظفى الفندق ولا سيما مديره يكيلون لها الثناء ، ومع ذلك فقد قال كلهم : « انها كانت تتصرف تصرفا غريبا فى بعض الاحيان بشكل يوحى بأنها كانت تود اسدال ستار على ماضيها ، وكانوا يتعجبون كذلك للسبب الذى يجعل امرأة مثقفة عريقة الاصل مثلها تقبل كما كانت تفعل كثيرا وظائف كوظيفة بائعة فى محل تجارى ، فقد اشتغلت هذه المرأة التى كانت تجيد الحديث بلغات عدة كمشرفة على حجرة الملابس فى أحد الفنادق الفاخرة ٠

وقبل أن تقتل كريستين بعام أو ما يقرب من عام كانت تعمل كرئيسة للمضيفات فى سفينة من السفن السياحية التى تبحر الى جنوب افريقية ونصف الكرة الشرقى عن طريق البحر الابيض المتوسط ، وكانت كلما ألقت السفن مراسيها بميناء سواثهمبتون أسرعت لتنزل فى فندق شيلبورن بلندن ، وقد قالت ذلك للضباط قبل عودتها من رحلة الى جنوب أفريقية بيومين اثنين فقط ٠

ولم يتضح أن أحدا من العاملين فى الفندق كان يعلم أن كريستين كانت كونتيسة بولندية ، وأنها تنحدر من أسرة عريقة ارستقراطية ، ولم يسبق لاحدهم كذلك أن رأى القاتل من قبل ٠

وبدأ المحققون حينئذ فى تفتيش حجرة كريستين فوجدوا حقيبة الملابس التى أحضروها من ميناء سوثهامبتون أوراقها الخاصة بالسفينة وقد بينت فيها أن أقرب أقربائها هو الرائد اندور كنيدى الذى يقطن بالمنزل رقم ٢٣ شارع الكسندر بمدينة بون بألمانيا فأرسل المفتش يننج من فوره برقية له ينبئه بالحادث ٠

ووجد رجال سكوتلانديارد كذلك تذكرة سفر بالطائرة لطائرة الساعة العاشرة والربع صباحا من لندن آلى بروكسل ، في سفرة يوم ١٦ من يونيو، وكان هذا قبل طعن كريستين باثنتى عشر ساعة بالضبط •

لقد أثبت رجال سكوتلاند منتهى المهارة والحنكة وكانت هذه المهارة وتلك الحنكة التى تسببت لهم فى أول صدمة كبرى تعرضوا لها ، فقد وجدوا في حجرة ذلك الفندق الصغير البسيط عددا من أعظم النياشين العسكرية مثل صليب الحرب الفرنسى الذى لا يمنح الا لمن أدوا خدمات جليلة ، وميدالية الملك جورج للشجاعة ووسام الامبراطورية البريطانية الذى يمنح غالبا لكبار القواد العسكريين وميدالية بولندية أخرى غير معروفة ، فكيف أمكن لبائعة متجر أو رئيسة خدم فى سفينة أن تمتلك هذه النياشين التى بدا أنها تخص جنرال بريطانى كبير ؟ لم يكن من المستغرب أن تتملك الدهشة الرجال الذين قاموا بالتفتيش ولكن عندما فتحوا الادراج واحدا بعد الآخر وجدوا خطابات شكر من الادارات الحكومية المختلفة ثم بدأوا يدركون أن الميداليات ملكا بالفعل لكريستين وأنها كانت جوائز تقدير لبطولة منقطعة النظير •

ووجدوا فى مفكرة صغيرة فى حقيبة ملابسها تحركاتها مدونة لذلك اليوم الذى قتلت فيه « العشاء مع سونيا و بوبييل » •

وكان بوبييل فى دليل تليفونات لندن ولم يمض وقت طويل قبل أن يدلى بما كان يعلمه عن كريستين الى المحققين فى شيلبورن وكان بوبييل صريحا ميالا الى المساعدة على الرغم من أنة وجد من الصعب عليه أن يصدق أن كريستين قد ماتت ، فقد كانت على قيد الحياة منذ فترة وجيزة وكان قد تناول معها فعلا طعام العشاء فى ليلة الحادث فى مطعم ايطالى بحى Soho اسمه سبيرانزا ، وهو يعنى « الامل » ، وكانت معهما سونيا وهي صديقة وفية للطرفين ، وكان بوبييل مهندسا ناجحا من مهندسى الديكورات الداخلية وترجع معرفته بكريستين الى نحو سنتين •

قال بوبييل « أننى عاجز عن فهم ذلك فلم يحدث أن وجدت امرأة أكثر نبلا أو حلاوة أو شجاعة من كريستين » •

وهنا سأل المفتش يننج فى الحال « لماذا نبيلة وشجاعة هل تعرف شيئا عن هذه الميداليات ؟ » •

لم يكن بوبييل يعرف الكثير عنها ولكنه لمح الى أنها سبق أن اشتغلت مع الحركة السرية أثناء الحرب ، والى أنهـا كانت ضابطـة من ضابطات المخابرات ، وأنها تجيد التحدث بعشرة لغات وبطلاقة ، وبالطبع لم تكن تذكر شيئا عن هذا لانها لم تكن تود أن لا يذكرها أحد بتلك الايام ٠

سأل المفتش : « هل من الممكن أن تكون كريستين جاسـوسة وهل تظن أنه من المحتمل أن يكون قتلها لهذا السبب ؟ » ٠

كان اسم مولدونى اسما جديدا على سمع بوبييل فلم يحدث أن سمع من قبل ومن المؤكد أنه لم يأت ذكر لاسمه على لسان كريستين ٠

ولم يكن بوبييل يعرف شيئا عن رحلتها الىّ بروكسل فكل ما كان يعرفه هو قول كريستين لهم أنها سوف تسافر فى بحر أيام قليلة فى رحلة فوق ظهر السفينة « ونيشستر كاسل » ٠

استجوب رجال سكوتلانديارد سونيا ماسترز بعد ذلك فأسفت كما اسف كيونبييل وأحست بصدمة بسبب هذا القتل ، وقالت انهـا قابلت كريستين لأول مرة من مدة ستة شهور على ظهر سفينة كانت كريستين تعمل كرئيسة للمضيفات أما من ناحية العشاء فى مطعم سبيرانزو فقد تذكرت حادثة غريبة محيرة ٠

فقالت للضباط أنه قبل وصول بوبييل تصادف أن اتجه نظرها الى نافذة من نوافذ المطعم وشاهدت رجلا غريبا وهو يحملق من النافذة نحو كريستين ونحوها ، فذكرت شيئا عن تلك العيون المحملقة من النافذة الى كريستين التى لم تهتم ولم تفعل شيئا سوى هز كتفيها ثم قالت : « عندما كنت فى الثانية أو الثالثة عشرة من عمرى كان والدى يعطينى بندقيـــة ويأخذنى معه لصيد الذئاب وكانت بولندا تعج بالذئاب المتوحشة فى تلك الايام ٠ فضللت مرة الطريق وهاجمنى قطيع من الذئاب الجائعة وعددها عشرة أو اثنى عشر ذئبا ٠ فأخذت بندقيتى وقتلتهم جميعـا ومنـذ تلك الايام لم يعد يتملكنى الخوف من الذئاب أو الرجال ٠

عندئذ وصل بوبييل الى المطعم وبعدها اختفت العيـون التى كانت تحملق من النافذة ٠

استمر التحقيق ولم يرض رجال سكوتلانديارد بقيد القضية على أنها جريمة قتل بسبب الحب أو أنها جريمة قتل بسبب غيرة القاتل ، لم يأت ذكر لكريستين جرانفيل فى الملفات العادية ، اذ لا يوجد لها أى سجل على الرغم من كونها مواطنة ولدت أجنبية من أصل بولندى وقد حير هـذا المحققين .

ولم يكن هناك الكثير عن مولدونى فى الملفات هو الآخر فقبـل ذلك ببضعة أشهر طلب نادى الريفورم من بوليس سكوتلانديارد معلومات عن مولدونى الذى كان تقدم بطلب استخدام ، وقد أعطيت له الوظيفة عندما شهدت سكوتلانديارد بعدم وجود جرائم فى صحيفة سوبقه ، فقام اثنان من رجال سكوتلانديارد بتفتيش حجرة مولدونى فى نادى الريفورم فى بول ماك ، فلم يعثروا على شىء ذى بال الا بطاقة انتمائه الى اتحاد البحارة ومع ذلك فكل عامل بريطانى لابد وأن ينتمى الى اتحـاد ، وقد تكون كريستين قد قابلت هذا الرجل فى أحد الموانى وربمـا كانا فى نفس السفينة .

وفى تلك اللحظة جاء رجـلان لمقـابلة المفتش وكانا قادمين من مكتب السير بيرسى سيليتو وهو مكتب المخابرات العسكرية المخصص للمخابرات المضادة ، وقالا انه من غير المصرح لهما الادلاء بأى بيان ولكن طلب منهمـا معرفة كل شىء عن قضية جرانفيل وتقديم بيان يومى عنها نظرا لأن كريستين جرانفيل كانت جاسوسة بريطانية تابعة لمكتبهم .

وفى الوقت الذى أخذ رجال سكوتلانديارد يتحرون فيه عن شركات الملاحة البحرية التى استخدمت كريستين وكذلك شركة « كاسل لاين » صاحبة السفينة وينيسستر كاسل ظهر شاهد آخر .

فقد هبط فى مطار نورثهولت فى طائرة حربية ، وكان هـذا الرجل هو الرائد اندرو كيندى بالشعبة الخامسة من المخابرات العسكرية فذهب أولا الى مكان التعرف على جثث الموتى حيث وقف فى خشوع عندما تعرف على المرأة الجميلة التى عبدها وأعجب بها ثم استدار غاضبا كسير النفس محطم القلب ، وحياها آخر تحية عسكرية ، وغادر المكان وسار وحيدا فى زحام شـارع لندن ولم يـكن قد اسـتعد بعد للذهـاب الى مقر شرطة سكوتلانديارد .

وفى نفس الوقت ظهر ضابط آخر من ضباط المخابرات كشاهد جديد وتطوع بالادلاء ببعض المعلومات الهامة ، وهذا الضابط هو العقيد كاميرتو وكان قد رأى كريستين منذ بضعة شهور قليلة فى نادى من النوادى وقضيا سويا وقتا ممتعا ورفض أن يصدق أن الدافع الى قتلها هو الحب ٠

فقال : « لقد خلقت كريستين أعداء كثيرين لها ، ولا أستطيع الافشاء بأسرار عسكرية الا أن الكونتيسة كريستين شاربيك كانت مسئولة عن القبض واعدام الكثيرين من جواسيس العدو » ٠ كما أمكن التخلص من عدد كبير من النازيين بسبب نشاطها فى حركة المقاومة السرية ، وقال لم يستطع سوى القليل اظهار شجاعة وكفاءة فى المخابرات بأكثر مما استطاعت كريستين ٠

هل كانوا هؤلاء من النازيين السابقيين ؟ أو هل تكون قد أسقطت بالمظلة فى دول الستار الحديدى بعد الحرب ؟ وهل كانت سفرياتها بالسفن مجرد تضليل ؟ وهل كانت هى جاسوسة فى الدوائر التى تعمل فى قلب العالم الشيوعى ؟ هل انضمت الى حكومة بولندا الحرة وأصبحت عضوة بحركة بولندا السرية التى تعمل على طرد الغزاة السوفييت ؟

لم يتحدث الكولونيل عن أعمالها الحالية اذ لم يكن يدرى ما اذا كانت كريستين قد تركت العمل بالمخابرات أم لا ؟ ولكنه كان راغبا جدا فى التحدث عن ماضيها لأن الشعبة الخامسة فى المخابرات العسكرية كانت موافقة على كشف الستار عنه ٠

كان الكولونيل كاميرتو قد قابل كريستين لاول مرة بفرنسا وكانت تستعمل الاسم الحركى الخاص بها « جاكلين ارمان » وأخذ يصف مقابلتهما المسرحية ٠

فى ليلة من الليالى سنة ١٩٤٤ كنت فوق هضبة فيركور بمنطقة جنوب شرق فرنسا ومتوليا قيادة ثلاثة آلاف رجل من مقاتلى الحركة السرية الفرنسية ٠ وقال : وهبطت كريستين من السماء فتاة شابة صغيرة جميلة ممتلئة بالحيوية ، وكانت عاصفة سرعتها ستين ميلا فى الساعة تهب فى ذلك الحين فقذفت بها لمسافة أربعة أميال فى الهواء وعندما لمست الارض فعلت ذلك بقوة لدرجة أن كعب بندقيتها تحطم ٠

كان الالمان يحيطون بنا من كل جانب ويهبط بيننا رجال المظلات باستمرار ، فوقفت كريستين ونسفت ستة من الالمان حاولوا القبض عليها

وتولت القيادة من البداية فى تواضع وشجاعة ، وقامت بحملات فدائية للتخريب لم يكن يظن أحدنا أنها ممكنة ، رصد الالمان ثمنا لرأسها وشنوا علينا هجوما قوامه ثلاثة فرق وغزوا الهضبة المنيعة التى كنا فيها بطائراتهم ، فحملت كريستين مدفعا رشاشا وقنابل يدوية وحصدت عشرات منهم وبقنبلة يدوية واحدة تخلصت من كل رجل من الرجال الثمانية عشرة الذين أسقطوا من طائرة واحدة •

الا أن الالمان كانوا يتمتعون بمزايا عديدة فتلقينا أوامر بالاختفاء . وبعد أربعة أيام شقت كريستين وأنا معها طريقنا فى وسط خطوط الالمان مستعينين بالظلام وسرنا على أقدامنا مسافة سبعين ميلا حتى وصلنا الى منزل بقينا فيه وبعد أن نمنا ليلة بدأنا ننسف المنشآت الالمانية وننصب الكمائن لداوريات الاستكشاف •

وكم تعرضت لخطر الوقوع فى الاسر ، ففى مرة من المرات كنا مستلقين تحت شجرة من الشجيرات بجانب الطريق فجاءت فصيلة من فصائل الاستكشاف الالمانية ومعها كلابها فعثر علينا أحد الكلاب فمدت يدها فى جرأة فشمها الكلب وهز ذيله فوضعت ذراعها حول عنقه ، وأخذ الالمان يصفرون ويفتشون الا أن الكلب ظل صامتا سعيدا معها وبقى الى جوارها دائما لبضعة شهور حتى قتل بسبب شظية من شظايا القنابل » • •

تملكت الدهشة رجال سكوتلانديارد الوقورين وهم يستمعون الى قصص نشاط كريستين السرى وشجاعتها وبطولتها ، وفى النهاية حكى الكولونيل كيف أن كريستين أنقذت حياته وحياة الكابتن سيرنسون وهو ضابط مخابرات أمريكى والرائد لان فيلدنج البريطانى ، وكان قد صدر الحكم على الثلاثة بالاعدام بتهمة التجسس لحساب الحلفاء وتقرر تنفيذ حكم الاعدام فيهم فى صباح اليوم التالى فى الساعة السادسة والنصف •

وكانت ليلة الوداع وحوالى منتصف الليل سمعت صوتها خارج أسوار السجن وهى تغنى « فرانكى وجونى » وهى أغنية كثيرا ما كنا نرددها

معا ، فرددت الاغنية وهنا عرفت مكانى ، وقد قامت بفعل ما اعتقدت أنه خبل امرأة رصد ثمن لرأسها ثم تأتى وتغنى أغنية أمريكية خارج سجن نازى !

جاءت الساعة السادسة والنصف وتوقعنا أن يفتح الباب ونقـاد الى اعدامنا ، ولكن لم يحدث شيء من هذا ففى الحادية عشرة دخل قائد المعسكر وفى يده مسدسا ومعه كريستين لقد جاءت لاخراجنا ٠

وما فعلته يستعصى على أى رجل أو امرأة قابلتها فى حياتى فالنازيون يبحثون عنها فى جميع أنحاء أوروبا ومع ذلك فقد سارت ببساطة الىمكتب قائد المعسكر وقالت له انها جاسوسة بريطانية : « اننى أطلب اطـلاق سراح الضباط الثلاثة المقرر اعدامهم باكر على الفور » وقالت انها حذرته أنه لو وقع أى أذى لها أو للضباط فسوف يعدم كل ضابط بهذا المعسكر على أنه مجرم حرب ، وأخذت تناقشه لمدة احدى عشرة ساعة ولم يحدث أن اكتسح الامريكيون المعسكر الا بعد ذلك بشهرين ولكنها جعلت القائد يشعر بأنهم سيقطعون رقبته لو فعل ذلك ويصدق أنهـــا ابنة شـقيقة الماريشال مونتجمرى ، فأطلق سراحنا وهو يغلى من الغضب ٠

وكانت لها قدرة مغناطيسية على الناس ومن سخريات القور القـول بأن هذه المرأة قد قتلت على يد مجنون فى ردهة من ردهات أحد فنـادق لندن !

تحدث المفتش يانج والكولونيل كاميرتو لمدة طويلة وكانا كلاهمـا مقتنعين أنه قد يكون هناك دافع سياسى وراء هذا القتل ، فهل هم أعداء ؟ وأين ؟ ومتى ؟ هل هم أعداء من النازيين من زمن قديم ؟ ولكن لماذا انتظروا حتى عام ١٩٥٢ ؟ وهل هم أعداء من الحاليين ؟ ربما من بولندا السوفييتية ولكن أين كان الدليل ما لم ينطق مولدونى وءن الذى استأجره هل هى نفس الجماعة التى سبق أن استأجرت قاتل ترونسكى المدعو ياكسون ، أم هى نفس عصابة الكرملين التى استأجرت الخطافين فى برلين ؟

ومع ذلك فقد دخل شاهد آخر الى مكتب المفتش يانج هو الرائد أندرو كنيدى ذلك الرجل الذى سجلته كريستين كأقرب أقربائهـــا فى أوراقها ٠

اعتذر عن تأخيره ، وتعلل بذهابه الى مكان عرضجثث الموتى بنفسه ، وكان لا يزال مهتزا اهتزازا عنيفا ، فقد كانتالمأساة مأساته الشخصية ، ولم يسأله أحد عما اذا كان يحب كريستين اذ احترم الجميع مشـــاعره ولكنهم أدركوا أنه لابد من أن الامر كان يعنى الكثير بالنسبة له فيحياته .

وكان يعرف القاتل وأدلى بالشهادة الآتية :

« قابلته في شهر فبراير الماضي بمدينة لندن فقد كان رئيسا للخدم، ورئيسها على السفينة دوناتور كاسل وكنت أعلم أنه فى غاية الرقة معها وساعد على تسهيل عملها وسألتنى اذا كنت أوافق على اصطحابه معنا الى السينما في ليلة من الليالى نظرا لأنه يعانى من وحدته فى لندن التى لم يكن له فيها صديق واحد .

فذهب معنا مولدونى وظهر عليه تقدير الجميل ، وكان في أخلاقه أمر جعلنى أفكر فيه على أنه كلب ضال ، وحاولت كريســتين أن تهيىء له أسباب الالفة ، ومن المؤكد أن الانطباع الذى انطبع فى ذهنى من ناحيته هو أنه انسان لا يمكن أن يؤذى ذبابة .

كانت كريستين وأنا صديقين حميمين منذ اليوم الذى هبطنـــا فيـــه بالمظلات فى المجر ، وأعتقـــد أنه لابد وان كانت تخطرنى بالامر لو كان بينهما شيئا » .

عرض المفتش يانتج تذكرة السفر بالطائرة على الرائد كنيـــدى الى بروكسل ، فاعترف الرائد بأنهما كانا قد اتفقا على اللقاء هناك ، الا أنه تلقى رسالة برقية فى اللحظة الاخيرة بتأجيل السفر لمدة يوم واحد .

ولا يعرف كنيدى سببا لهذا التأجيـــل فطلب المفتش يانتج شركة الطيران وشهد كاتب بأن كريستين طلبت تأجيل السفر بموجب هـــذه الرسالة : « اننى متعبة وأود أخذ قسط من الراحة » .

فرد الرائد كنيـــدى قائلا : « لم تكن كريســـتين تحس بالتعب على الاطلاق فقد كانت تعج بالحيوية دائما ولما كانت أجازتها محدودة للغـــاية فاننى لا أصدق ذلك » .

وفى أثناء التحقيق ظهر أن كنيدى سبق أن قابل كريستين فى أثناء الحرب سنة ١٩٣٩ وقدما الى بعضهما البعض فى قسم معين من أقسام وزارة الحرب ، ثم بعد ذلك هبطا بالمظلات سويا بالمجر ولم يحدث أن سأل كنيدى عن ماضيها على الاطلاق ، الا أنها أخبرته مرة بأنها قامت برحلة لصيد الاسود فى كينيا ٠

وكانت وظيفتها فى المخابرات البريطانية البولندية المضادة بالمجر هى اقامة صلات مع الحدود البولندية فادعت كريستين أنها مراسلة صحيفة ألمانية نازية ، وبقدر الامكان كانت تقوم بالتزحلق على الجليد عند الحدود البولندية المجرية وذلك لاسباب واضحة ٠ وفيما يلى مقتطفات من شهادة الرائد كنيدى :

« خرجت وحدها فى يوم من الايام وقالت انها ستتزحلق على الجليد لمسافة مائة ميل ثم بعد ذلك ترتدى ثياب فلاحة وتشق طريقها الى وارسو

ومرت ثمانية عشر شهر قبل أن أسمع عنها أى شىء فاعتبرتها فى عداد المفقودات ، وكذلك اعتبرتها لندن ولا سيما بعد أن دخلت المجر فى الحرب ، ولكنا بدأنا نسمع قصصا من اللاجئين عن امرأة كونت خلايا للمقاومة ، فى جميع أنحاء بولندا ، وشكلت جماعات للتخريب ، ونظمت خططا لتهريب المسجونين ، وأخيرا تلقت الشعبة الخامسة من المخابرات العسكرية بلندن رسالة من السفير البريطانى فى أنقرة بتركيا تقول ان كريستين قد أنجزت مهمتها ثم هربت الى أنقرة وتطلب مهمة جديدة ٠

فهرولت اليها ثانيا فى سنة ١٩٤٥ بايطاليا وحدث مرة ابان عملها فى وسط خطوط العدو أن وقعت ومعها أحد رجال المقاومة الايطاليين فى فخ نصبته لها قوة من الجنود الالمان ، فرفعت يديها كما تعلمت ولكنها كانت تحمل قنبلة يدوية حية فى يد منها وقالت للنازيين : « لا تتحركوا والا سأنسفكم نسفا فوقفوا وأصابعهم ترتعد على بنادقهم ثم تقهقرت كريستين الى الخلف ومعها زميلها وهربا » ٠

وبعد الحرب بقيت صلاتنا طيبة ومنذ سنتين طلبت منى أن أوافق على أن أكون أقرب الاقارب اليها اذ لم تكن لها عائلة ، ثم

أنها قليلة الاصدقاء ومع ذلك لم يكن منهم من تربطه بها علاقة ود وثيقة ، والامر الذى كانت تكرهه كل الكره هو التحدث عن غزواتها ونياشينها فقد كانت بالفعل انسانة متواضعة الى حد بعيد ·

فسرت هذه الشهادة الكثير ، ومع ذلك لم يتسنى التوصل الى أى دليل يدل على وجود دافع شيوعى وراء الاغتيال ، وكانت كريستين تعرف الحدود البولندية بشكل ربما يفوق معرفة أى ضابط من ضباط المخابرات بها ، كما كانت على علم مماثل بالحدود المجرية ، وكانت على دراية كبيرة بجميع الحركات السرية المناهضة لدول الستار الحديدى ·

فهل قتلت بموجب أوامر صادرة من أعوان الشيوعيين الذين يعملون حاليا لحساب المخابرات السرية السوفييتية ؟ أم كانت ضحية لمجنون من مجانين الهوى ؟ لابد وأن يعرف المفتش ياننج الحقيقة وأصر على أن تزيح الشعبة الخامسة للمخابرات العسكرية الستار عن نشاطها فى فترة ما بعد الحرب ·

عاد من مكتب السير بيرسى سيينوى وهو يعرف أن الحركة السرية للبولنديين الاحرار قد فقدت أفضل ضباطها بفقدها كريستين ، وعلم أنها كانت على صلات سابقة بالحركات السرية فى الدول الاخرى التابعة ، وأنها زارت دول ما وراء الستار الحديدى ، وفى ايجاز كانت كريستين ضابطة اتصال هامة بين الدول الغربية والحركات السرية ، فهلا يمكن أن يكون انتقام الكرملين قد حل بها على الرغم من افتقار ذلك الى دليل ؟

لم يتحدث مولدونى الا قليلا : « أعدمونى ان السبب هو الحب ولم يكن هناك أى دافع آخر » ·

وعرف أن هناك تسللا شيوعيا قويا بين صفوف أعضاء اتحاد البحرية الذى ينتمى اليه مولدونى وأجاب على ذلك بأنه لايعرف ولا يهمه أن يعرف وقال : « لماذا لا تعدمونى ما دام سيحدث هذا حتما ؟ ماذا تنتظرون ؟

وأثبتت الحقائق الاخرى التى ظهرت أن قصة القاتل مزيفة ، لم تكن هناك أدلة مباشرة تشير الىأن الشيوعيين أو النازيينالسابقين قد أصدروا

أوامر تقضى بقتل كريستين ، وثبت أن كريستين كانت على ظهر باخرة متجهة الى شرق أفريقية وأن مولدونى كان معها فى هذه الرحلة • وبعد ذلك أخذت تتجنب العمل على نفس الباخرة معه فألغت رحلة فى آخر لحظة وتحولت نحو باخرة أخرى هى الباخرة « نيو استراليا » بينما استمر مولودنى فى العمل على ظهر الباخرة كاسل •

ولم يحدث أن قال شاهد واحد من البحارة أن مولودنى يحب كريستين أو أنها كانت تهتم به بصفة خاصة •

استجوب مولودنى مرارا وتكرارا استجوابا دقيقا ، فكرر القول بأنه كان يحب كريستين سرا •

وأخيرا أصبح مولودنى على استعداد للادلاء ببيان وهو كما يلى :

« لم أكن أعلم أن كريستين كونتيسة ، فالحراس يقولون أن أوراقها مليئة بذلك ، ان كل ما أعلمه أنها كانت فى منتهى الشجاعة فى أثناء الحرب وأنها تحمل بعض النياشين الرفيعة من درجة عالية ،

قتلت كريستين لانها دفعتنى الى قتلها ، وفكرت فى قتلها ثلاث مرات، المرة الاولى أثناء سفرنا الى استراليا ، وفى المرة الثانية كنا فى سوثهمبتون والمرة الثالثة فى لندن فى شهر ابريل الماضى وكان هذا عندما صممت على قتلها لقد زرعت الفكرة فى رأسى • لقد أحببتها وفى البداية اعترفت لى بأنها تبادلنى الحب ، ولكننى أدركت بعد فترة أنها كانت تتسلى بى ، فأحسست بالغيرة من ذلك الرجل الذى ذهبنا معه الى السينما ، وقبلت وظيفة نادى الريفورم لكى أكون فى لندن فى كل مرة تعود هى اليها •

انتظرت فى فندقها فى ليلة من الليالى ، وعندما وصلت كانت فى صحبة رجل وقالت أن ليس لديها ما تقوله لى وأغلقت الباب فى وجهى ، فاشتريت المدية فى اليوم التالى وكذلك زجاجة الخمر ولكننى عندما حاولت الاتصال بها فى الفندق فقالوا انها تركته وسافرت على ظهر باخرة أخرى لا أعرفها • ...

وأمس بعد الظهر قابلت صديقا أثناء خروجي من سينما كارلتون ، وكان بحارا فقال انه عاد لتوه من جنوب أفريقية على السفينة وينشستر كاسل وحدثني عن رئيسة للمضيفات كانت معهم وسيمة الطلعة ، فطلبت منه وصفها فادركت أنها لا يمكن أن تكون سوى كريستين فاشتد غضبي.

عدت الى حجرتي فى نادى الريفورم وأخذت مديتي وزجاجة الخمر ولم أستطع أن أستقر على أمر قتلها أو تحويلها عن رأيها أو تخويفها فتتبعتها من الفندق الى مطعم سبيرانزا وراقبتها وهي تتناول طعامها ثم ذهبت بعد ذلك الى فندقها وانتظرت قدومها وعندما عادت دخلت وطلبت منها تسليمي خطاباتي التي سبق أن كتبتها لها فقالت انها مزقتها وكان هـذا عندما طعنتها » .

كان هذا اعتراف من الممكن تصديقه الا أن مولودني لم يستطع تذكر البحار الذي قابله وهو خارج من سينما كارلتون .

. استجوب رجال سكوتلانديارد كل بحار من بحارة الباخرة ويشستر كاسل فثبت أنه لم يحدث أن تحدث واحد منهم مع مولدوني عن كريستين أو عن أي انسان آخر .

وبعد ذلك استدعى الكولونيل كاميرتا ثانيا وكان قد نسى أن يذكر حقيقة واحدة في شهادته السابقة ، كان كاتب معروف مشهور هو جيمس جليسون والذي يعمل بهيئة الاذاعـة البريطانية يعد كتـابا عن بطلات الحرب والمحاربين في حركات المقاومة السرية ، وبهذه المناسبة اتصـل بكريستين فوافته ببعض التفصيلات القليلة وهي كما يلي :

« ولدت باسم كريستينا جيزيتسكو منذ سـبع وثلاثين سـنة في بيوتراكوف بالبراري عند الحدود بين بولندا وروسيـا وكانت عائلتي من العائلات العريقة الشديدة المراس التي تعودت على الغـزوات والحروب وقتال القوازق ، ومطاردة قطاع الطرق والذئاب .

وفي طفولتي كنت متوحشة مثل أجدادي وتسببت في متاعب كثـيرة بالمدرسة واضطررت لنقلي من مدرسة دينية الى أخرى بسبب شراستي .

وفى مرة من المرات فى أثناء القداس عندما أثارها الاطفال الآخرون أمسكت بشمعة وقربتهـا من ملابس القسيس واشعلت فيهـا النـيران فاضطر الى تمزيقها وضحك بعد ذلك الا أن رئيسة الراهبات لم تـكن راضية عن ذلك وأجبرت والدها على نقلها الى مدرسة أخرى للراهبات ٠

وفى خارج المدرسة ، وقع عليها الاختيار لتكون ملكة جمال بولنـدا وتزوجت بعد ذلك بفترة وجيزة من الكونت شازبيك الذى كان صحفيـا مشهورا ، وعندما غزا الالمان بولندا كأر من كينيا الى بولندا ليشترك فى القتال وقتل بعد ذلك بمدة قصيرة » ٠

كانت المذكرات مقتضبة بالنسبة لتجاربها فى الحرب ولكنها أصبحت أكثر صراحة عندما تحدثت عما وقع فى نهاية الحرب ٠

فى نهاية الحرب وجدتنى فى فرنسا متخفية فى ملابس فتاة ريفيـة ومرتدية أردية من الخرق فتنقلت بالمجان بالجو والبر بالطريقة التى تعلمتها فى أثناء الحرب ، ووصلت لندن فى ليلة سبت وأنا مفلسة تماما ٠

كانت الأمطار تهطل مدرارا وبعد أن جلست برهة على سلم منزل فى شارع ريجنت وجدت مأوى يأوينى فى الليل ، وكانت مشكلتى هى ايجاد عمل وحاولت بيع الملابس ولكن الزبائن وجدونى فظة أكثر ممـا ينبغى لاننى ذكرت لهم بصراحة أنهم يشترون ملابس غير مناسبة ٠

تنقلت من عمل مؤقت الى عمل آخر مؤقت ، وحصلت مرة على توصية الى مدير عدد من الفنادق وسألنى عما اذا كنت متزوجة وعنـدما أجبت بالنفى ، قالوا لى ان هذه الفنادق لا تستخدم الا المتزوجات فقط وسألت اذا كان من الضرورى أن يكون المستخدمون من الرجـال متزوجين كذلك فقالوا ليس من المهم ذلك فقلت : « حسنا اعطونى قائمة بالمديرين العزاب وسوف أتزوج واحدا منهم فورا » فطردونى ٠

وهذه المذكرات عن تاريخ حياتها لم تكن تعنى الـكثير بالنسـبة للمفتش يانتج الا أن القليل الذى لم يأتذكره هنا وضح نقطة واحدة فهى

قد تطوعت بعد وفاة زوجها لخدمة الحلفاء ، وبالفعل قالت لى الكثير عن أعمالها بعد جلسة قصيرة من جلسات رجال المقاومة السرية ، وذلك عندما تقابلت معها فى أوروبا للمرة الثانية ·

وبدا لى باستمرار وجود رجال كثيرين فى حياة كريستين وبالفعل كانت هذه المرأة التى اعتبرت أشجع امرأة قابلتها فى حياتى تخاف منهم فكانت دائما المرأة التى أعطت أكثر مما أخذت ·

وفى النهاية منحت الكونتيسة كريستينا بطلة الحرب العالمية الثانية وربما ضحية الحرب الباردة كل شىء أعظم عطية للحرية وهى حياتها ·

وسوف يسجل التاريخ اسمها مع اديث كافيل الوطنية وليديا داراك عضوة الكويكرز التى أنقذت جيش جورج واشنجطون وايما ادموندز الجاسوسة والممرضة التى هرعت لانقاذ حياة ابراهام لنكولن ، وسوف نذكرها طويلا فى بريطانيا على اعتبار أنها المرأة التى جاءت لمساعدة ونستون تشرشل فى أحلك أيام بريطانيا ·

أما قاتلها الوغد فقد أعدم فى لندن فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٢ .

١١
أعظم الجواسيس السوفييت

عندما زحف الجنرال فون باولوس خارجا من قبو متداعى ليعترف بأن الجيوش الالمانية التى دخلت ستالينجراد قد حوصرت حتى شلت حركتها ، لم يكن يعرف كثيرا أن النازية أصيبت بهذه الهزيمة الساحقة الماحقة فى الحرب العالمية الثانية بسبب التنبؤات الصحيحة من ناحية أعظم جاسوس سوفييتى فى جميع العصور ، الا وهو الدكتور ريتشارد سورج الالمانى المولد ×

ففى وقت ما عندما كان هذا الصراع صراع الموت والحياة يدور على ضفاف نهر الفولجا وفى داخل القلعة الواقعة بجوار النهر ، عرف الدكتور سورج وهو عميل أحمر فى طوكيو وكبير لمستشارى السفير النازى هناك ــ المركز الذى يسمح له بالاطلاع على الاسرار العسكرية لكل من اليابان والمانيا ــ عرف أن اليابان لن تهاجم روسيا ٠

وساعدت هذه المعرفة على تغيير مجرى التاريخ لانها سمحت للروس بنقل الكثير من الفرق التى كانت تعسكر فى تلك الايام الحرجة على حدود سيبريا والصين ــ بسبب وجود القوات اليابانية ــ الى جبهة ستالينجراد وبذلك استطاعوا قلب الموقف فى المعركة ، وكان هذا بالنسبة لالمانيا الهتلرية بداية النهاية ٠

وقال ستالين الذى نقلت اليه رسالة سورج الهامة عن عميله الماكر المخادع الذكى «لقد أنقذ سورج حياتنا» وكان الماريشال ستالين على صواب تام فى تقديره هذا » ٠

× راجع الصفحات من ٥٩ الى ٩٩ من كتاب «فن الجاسوسية» بقلم رونالدسيث ٠

وعلى الرغم من أن سورج لم يعش طويلا ليرى ثمار نصره ـ فقد وشى به أحد زملائه الشيوعيين الى البوليس السرى اليابانى وأعدم ؟ الا أنه مع كل ذلك قد عاش حياة كاملة ـ حياة مليئة بالمغامرات والحوادث المثيرة لانه لم يكن مخططا حاذقا جريئا فقط بل رجلا يحب الدنيا رجلا وجد المتعة فى الشراب والنساء بلا قيود ٠

كان طويل القامة ودود المنظر له عينان زرقاويتان تشعان بالنور وشعر كث كما كان عالما ممتازا ضليعا في اللغات ، استطاع أن يفهم ـ شأنه فى ذلك شأن قلة ضئيلة من الغربيين ـ عقول اليابانيين والصينيين ، وقد أعجب به الاولون الذين كان يكرههم وبصفة خاصة لانتصاراته وغزواته النسائية وقد طارح سورج عددا لايحصى منهن الغرام وهن من بنات الجيشا والملايو والصينيات ، فقد خضعن له جميعهن كما خضعت لرغباته كثيرات من نسوة المجتمع ، وكان سورج كريما دائما من ناحية أفكاره ومن ناحية أمواله ولكن على الرغم من أنه عاش عيشة متوحشة خطيرة لسنوات طويلة فقد كان فى أعماقه حالما يحس وكأن الله كتب عليه المساعدة لتحرير العالم، آمن بعظمة ستالين وأسر الى الذين يشاركونه معتقداته السياسية السرية بأنه يفضل أن يعيش فى روسيا السوفييتية عن أى مكان آخر فى العالم ٠

وكان قد حاول الخروج من طوكيو قبل أن تنزل به اللطمة القاتلة ، لانه أدرك على الرغم من الحماية التى حباه بها السفير النازى أوجين أوتو فان خطوة واحدة خاطئة يقوم بها واحد من العملاء الذين يعملون تحت أمرته فان منظمته للتجسس بمركزها الدقيق تنهار ثم يكتشف أمره ، ولابد أنه أحس بنهايته فى تلك الليلة التى قال فيها للسفير Ott ذلك الرجل الذى أعتقد أنه نازى لايمكن التأثير عليه « هل تعرف ياسيادة السفير كيف يعدم أصدقاؤك اليابانيون أسراهم أنهم يعدمونهم بلطف وببطء ، قطعة قطعة ،دون عجلة لامبرر لها ، يلفون حلقة المشنقة السلكية بشكل يسمح لك بالبقاء على قيد الحياة أطول مدة ممكنة فأنهم لا يشنقونك فعلا بل يخنقونك ويؤدون عملا طيبا كم هم لطاف أصدقاؤنا اليابانيون هؤلاء !!»

وها هى قصة ريتشارد سورج مستندة الى مايسمي : «تقرير ماك آرثر» التقدير الذى أعد من ملفات قسم المخابرات العسكرية التابع للجنرال ماك آرثر ، ومن معلومات مستفاة من وزارة العدل اليابانية ، وأخيرا من الاعترافات التى اعترف هذا الجاسوس العظيم فى محبسة قبل الاعدام ،

ويقولون أنه سار بوقار مرفوع الرأس نحو منيته فى صباح يوم من الأيام فى شهر اكتوبر سنة ١٩٤٤ بعد أن شكر جلاديه على العطف الذى أظهروه نحوه ٠

اكتشف أمر حلقة سورج المشهورة بطوكيو قبل بيرل هاربور وانتهى عمل حلقة جريئة عملت لمدة تسع سنوات مثمرة وبطريقة يحلم بها كل الجواسيس ولكنهم لايستطيعونها ، فلم يعش سورج على أساس الصداقة الوثيقة مع السفير الالمانى وموظفيه فقط ، بل كذلك كان لمساعدة أوزاكى هوزيمى علاقة وثيقة مع الامير كونى ورئيس الوزارة اليابانية ومن هذين المصدرين الكبيرين أستطاعوا الحصول على معلوماتهم الهائلة ، عن كل موضوع من السياسة الى الحرب ، وبعثوا بها الى الاتحاد السوفييتى بالاذاعة السرية بالمراسلة ، وعن طريق السفارة السوفييتية ، وكانت أهدافهم الاولية فى مخابراتهم هى الخطط والنوايا اليابانية المتعلقة بالهجوم على الاتحاد االسوفييتى ٠

ولد ريتشارد سورج فى باكو فى جنوب روسيا فى أكتوبر سنة ١٨٩٥ وكان والده مهندسا ألمانيا يعمل فى شركة بترول بالقوقاز ويقال أن أمه كانت روسية ، واستقرت العائلة فيما بعد ببرلين ، وهناك نشأ سورج فى ظل تعليم ألمانى عادى كما نشأ عدد كبير من الشباب فى ذلك الوقت ، نشأ ليكون مواطنا صالحا من أبناء ألمانيا الامبريالية ، ولكنه مع ذلك لم ينسى اطلاقا أن جده لوالده أدولف سورج كان سكرتيرا لكارل ماركس فى أول ظهور الشيوعية الدولية ٠

وكان سورج لايزال طالبا عندما تطوع كجندى فى الحرب العالمية الاولى وجرح مرتين وقضى وقتا طويلا فى المستشفى وعندما انتهت الحرب درس فى جامعات برلين وكييل وهامبورج ، وبعد حصوله على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية عمل فى أعمال مختلفة كمدرس وعامل فى المناجم وموزع للصحف ٠ وعندئذ كان قد قرأ كل ماكان مكتوبا عن الماركسية لدرجة أنه عندما تكون الحزب الشيوعى الالمانى سنة ١٩١٩ كان واحدا من أول المنضمين لفرع الحزب فى هامبورج ودعى الى موسكو بعد ذلك بخمس سنوات للانضمام الى الحزب الشيوعى السوفييتى والكومنترن ٠ وكان رعاته هم ديمترى زاهاروفيتش ومانويتسلى اللذان كانا حينئذ أعضاء فى اللجنة المركزية فى الحزب وسولمون لوفوفسكى نائب قوميسير وزارة الخارجية ٠

وعن هذا الطريق تكون لدى سورج شغف عميق بالشرق الاقصى ،وعقب عودته مباشرة الى موسكو من شمال أوروبا ونقله الى مكتب الجيش الرابع الاحمر تلقى تعليمات بالسفر الى شنغهاى ليساعد على انشاء وتوجيه شبكة من شبكات المخابرات فى الصين •

وصل الى هناك فى مستهل التلاثينات ، ومرة ثانيــة نجدة مراســلا مخلصا لمجلة من المجلات ، لان شنغهاى كانت مكانا يتجمع فيه الكثير من الشخصيات المتباينة ويبدو أن الفكرة أنه ليس من الجوهرى أن يغطى نفسه بستار هام لكى يعمل هناك بنجاح ، وكان زملاء سورج هم : اليكس (وهو لا يعرف الا بهذا الاسم) ووينجرات وهو عامل لاسلكى المانى ،ولكن فى بحر ستة أسابيع أصبح رئيسا للحلقة التى غطى نشاطها أغلب أراضى الصين ، وكانت نشطة الى درجة ملحوظة فى هانجشو ونانكنج وكنتــون وبيكين وبالطبع فى منشوريا وسافر سورج نفسه كثيرا فى تلك الايام ، وقرأ كثيرا وبعمق عن السياسة والتاريخ والثقافة الصينية واليابانية ، وبالاضافة الى ذلك درس اللغتين وسرعان ماجعلته معرفته بالشئون الآسيوية عميلا عظيما وكان بين زملائه فى التجسس أربعة من الصينيين وخمسة من اليابانيين وصحفى أمريكى •

ويشير تقرير ماك آرثر أن الآنسة اجنس سميرلى المؤلفــة المشــهورة والكاتبة عن الشئون الصينية كانت تعمل مع سورج كعضوة فى حلقته حتى غادر الصين وكانت فى الواقع وسيطة فى الاجتماع الاول الذى عقد بينه وبين أوزاكى هوزيمى الصحفى اليابانى المشهور الذى أصبح فيما بعد أهم عميل له فى طوكيو •

وفى شنغهاى أرضى سورج المكتب الاحمر بقدراته التى لاشك فيها ، وعاد الى موسكو ليناقش ويضع خطة العمل الاكبر الذى سيأتى فيما بعــد وفى سنة ١٩٣٣ كان فى برلين يعد الستار الذى كان ضروريا قبل السفر الى طوكيو ، ففاز بمنصب مراسل خاص فى اليابان لصحيفة فرانكفورتر تسيتونج وصحيفتين ألمانيتين اخرتين وصحيفة فى أمستردام ، كان هتلر قد تقلد مقاليد السلطة لتوه وتقدم سورج بطلب العضوية بالحزب النازى وقبلت أوراقه دون سؤال ، وبهــذا ثبت الوهم بولائه للنازية ، وبأوراق اعتماد صحيفة ممتازة سافر الى اليابان عن طريق أمريكا وكندا ووصــل يوكوهاما فى اليوم السادس من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٣

وبعد وقت قصير وجد منزلا فى طوكيو فى ٣٠ شارع ناجازكماشى في حى «آزاب - كو» ، حى لا بأس به واستقر ليعمل كمراسل للصحف المختلفة وقد قدم نفسه للناس في السفارة الالمانية وفى النادى الالماني ، وأخذ يلقى الترحيب من جانب الجالية الالمانية وزملائه من رجال الصحافة ٠

وفى نفس الوقت بدأ الكومنترن بطلب من الجيش الاحمر يلتقط العملاء ويبعث بهم حول العالم ، وقد كان الجيش الاحمر فى حاجة الى جواسيس من نوع وطبقة معينة فى اليابان واختير بعض الرجال ولكنهم كانوا غرباء تماما عن بعضهم البعض ، ولم يسبق لاحدهم سماع اسم سورج وبدأوا يحزمون حقائبهم للسفر الى طوكيو ومن بينهم اثنان هامان هما برانكودى فوكليتش الذى سافر من باريس ويوتاكو الذى جاء من لوس أنجلوس ، وكان الاول يوجوسلافى ومن ثم أمكن اعتباره ألمانيا ، ووصل الى طوكيو بصفته مراسلا خاصا لمجلة فرنسية مصورة ، وكان ماياجى يوتاكو يابانيا عاش فى أمريكا منذ سنة ١٩١٩ ، وكان عضوا بالحزب الشيوعى الامريكى واقنع بواسطة عملاء الكومنترن بالسفر الى طوكيو ، وأكدوا له أنه سيعود الى لوس انجلوس بعد وقت قصير ، ومنح مائتى دولار لنفقاته ودولار عليه أن يبرزه لرجل سيقابله فى طوكيو ويحمل ورقة بدولار تحمل الرقم التالى وطلب من ماياجى أن يراقب جريدة (يابان ادفريتزر) وعندما يرى واحدا يسأل عن « أوكو » عليه أن يجيب عليه ومن شأن ذلك أن يخلق صلة بالرجل الذى يحمل ورقة الدولار الاخرى وظهر أن هذا الرجل هو فوكليتش ٠٠

أصبح الامر فى يد سورج لينظم حلقته للتجسس الا أنه أدرك أن المشروع يقتضى وقتا طويلا ويتطلب أعدادا دقيقا ، واحتاج غير جهاز الارسال ومراسلين للتوصيل واتصالات خارجية الى سبب للدخول فى السفارة الالمانية ٠ فتعرف على مساعد الملحق العسكرى الالمانى المقدم أوجين أوتو الذى كان يؤدى حينذاك مهمة فى نوجايا مع فرقة مدفعية ألمانية ، لم يكن أوتو من الموافقين على البرنامج النازى ، ونقل من ألمانيا بواسطة بعض كبار الضباط الذين خافوا على سلامته من حركات التطهير النازية ، التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، ومهما بلغ علم أوتو عن ألمانيا فانه لم يكن يعرف شيئا عن اليابان وسر لانه وجد فى صديقة الجديد ريتشارد سورج مصدرا هائلا للمعلومات فى كل شىء فى السياسة والاتجاهات والكثير من المشورة الحكيمة ، وعندما رقى أوتو وعين سفيرا فى طوكيو زادت صداقته مع سورج عمقا وتعددت مقابلاتهم ٠

وفي هذه المرحلة رتب سورج أمر انتقال فوكليتش وعائلته الى منزل خاص في طوكيو لأن هذا الرجل كان هاويا نابغة في التصوير ، وكانت لديه غرفة مظلمة مقامة في منزله ليزاول فيها هوايته وعقب ذلك أمكن تصوير الوثائق هناك وأعداد الافلام لارسالها الى شنغهاى أو الى السفارة السوفييتية ٠

الا أنه ثبت أن أكثر الرجال قيمة في حلقة جاسوسية سورج التابعة كان أوزاكي هوزيمى الصحفى والمؤلف والمعلق الذى قابله فى أيام شنغهاى أوزاكى الذى أعدم بعد سورج بنصف ساعة نظرا لانه كان العضو الوحيد في الحلقة الذى شاركه حبل المشنقة ، كان حجة فى شئون الشرق الاقصى ، وفى أيام دراسته كطالب أصيب بصدمة بوحشية العسكريين اليابانيين وعلى الرغم من أنه لم يكن عضوا فى الحزب الشيوعى على الاطلاق فان عطفه اتجه الى الاتحاد السوفييتي وكانت هذه هي شهرته حتى أنه في سنة ١٩٣٨ ، أصبح مستشارا غير رسمي للوزارة اليابانية تحت رئاسة الامير كونو وكانت مشورته ومعرفته لاتقدر بقيمة لدى سورج كما سيأتي ذكره فيما بعد ٠

واذا كان أوزاكي قد زود سورج بمعلومات حيوية عن نوايا اليابان العسكرية فقد بقيت أمام الجاسوس الكبير مشكلة أرسال هذه الانباء من موسكو ولم يكن من الممكن له أن ينجح فى مهمته بدون مساعدة عضو آخر من أعضاء الحلقة ، وذلك لانه توافرت لهذا الالمانى الضخم الخشن الملامح ماكس كلاوزن الذى لم ينل قسطا كافيا من العلم خبرة كبيرة كعامل لاسلكى لمحطات الاذاعة السرية ، وعند وصوله من موسكو أصبح همزة الوصل الرئيسية بين سورج والاتحاد السوفييتي ، وكانت نقطة الضعف الوحيدة فيه هى زوجته وهى روسية بيضاء اكتشفت بعد زواجها أن زوجها قد تلقى تبشيرا مذهبيا فى موسكو وعندما قبض عليه وحوكم سألته المحكمة عما اذا كان زواجه قد أثمر فأجاب كلاوزن أنه لا الحب ولا المال يمكن أن يقنع المرأة بالحمل من جاسوس سوفييتى ٠

وسوف يرى أنه لم يكن من السهل أن يخدم سورج بطريقة أفضل من جانب من أحاطوا به من الرجال ، ولكنه كان يعرف أن عليه مهمة خاصة به وهى النفوذ الى السفارة الالمانية بأى ثمن ، وقد كان ذكيا وحذرا فى تجنبه للشيوعيين اليابانيين كما يتجنب الطاعون ، وحتى وقت الوشاية به لم يكن لدى أى انسان أية فكرة صحيحة عن حقيقة نشاطه ، فلم يحدث أن تكلم باللغة الروسية على الاطلاق ، وأخذ يحسب حساب خطواته بوصة

بوصة ومن المؤكد أن الحظ قد واتاه في الاصرار على الالتصاق ميوجين أوت لان الوقت أتى عندما وجد ذلك الفرد أن مشورة سورج لاتقدر بقيمة ، ومن ناقلة القول أن نثبت أن موسكو قد وجدت فى معلومات سورج قيمة أكبر

وبعد سلسلة من الترقيات كان اليوم الذى حل فيه أوتو بالسفارة الالمانية كسفير لالمانيا فى طوكيو يوما عظيما بالنسبة لسورج فقال بينه وبين نفسه « انه يوم أحمر » ٠

وبمرور السنين أخذ أوت يبرز وثائقه الرسمية بمنتهى الحرية على سورج ليتبادل معه الآراء ووجهات النظر ، وبالمثل بدأ الملحق العسكرى والملحق الجوى ورئيس الجستابو نفسه الكولونيل جوزيف ميسنجر يثق ويعتمد على الدكتور ريتشارد سورج ، وكان الشخص الوحيد المعادى لسورج هو الملحق البحرى ، ومع ذلك فقد كانت كراهية شخصية لا تعتمد على الشك ــ كان هذا هو الوضع فى سنة ١٩٣٩ وبعد نشوب الحرب الاوروبية عين «أوت» سورج ملحقا صحفيا للسفارة ، ووضعه بالطبع فى كشف المرتبات الخاصة بالنازيين ٠

ومع وجود مكتبه بالسفارة الالمانية واعتباره فردا فى هيئة المخابرات فان مركزه كان رائعا يهيء له معرفة كل شيء عن اليابان وقدرتها الحربية ، ونواياها التى كانت معروفة لالمانيا ، وبالطبع كان هناك الكثير من الامور الغامضة بالنسبة للالمان وكان على سورج جمع هذه المعلومات بطرق أخرى ، ولكن بعد توقيع معاهدة الحلف الثلاثى فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩٤٠ ناقشت هيئتا أركان الحرب البرية والبحرية اليابانية مشاكلهما بحرية أكثر مع أعضاء السفارة الالمانية ٠

وقد سأل هؤلاء الضباط سورج بصراحة وطلبوا منه الرأى وعلى الرغم من أن مياجى جمع المعلومات لسورج من أقاويل الناس ومن الصحف والمجلات وحاول أن يصل الى رأى من ناحية احتمال القيام بهجوم على روسيا فلم يكن جاسوسا مدربا ، على الرغم من تعيينه رئيسا لحلقة المساعدة اليابانية ٠ فقد كان رساما ودقيقا للغاية ، وسرعان ما أتضح لسورج أن الفرصة لن تواتيه ليقوم باتصالات فى هذه الاماكن الراقية الامر الذى كان جوهريا لنجاح مهمته ، فقد كان سورج فى حاجة الى شخص يعمل على مستوى معين مع الحكومة اليابانية يشبه عملياته هو نفسه مع الالمان ومن الطبيعى أن يفكر فى أوزاكى هوريمى الذى كان يحترمه ويعجب به ٠

أرسل مياجى ليقوم بعملية الاتصال فاستعمل اسما مستعارا وزار أوزاكى فى مكاتب أوزاكا أساهى حيث كان يعمل ، وقال له : ان صديقا قديما من شنغهاى يلح فى مقابلته ، فأضطرب أوزاكى عند ذكر هذا الماضى وصرف الزائر معتذرا بأنه على موعد للعشاء وعندئذ ذكر له مياجى أن هذا الشخص هو سورج ووضع ترتيبا لاجتماع الاثنين فى حديقة الغزلان فى نارا فى يوم الاحد التالى .

وكنتيجة لهذا الاجتماع جند مياجى واوزاكى عشرة من الزملاء اليابانيين أما بالتوسل الى مشاعرهم الشيوعية وأما بالتلويح لهم بالمساعدة المالية ، وقد أحسن اختيار هؤلاء الافراد ولكن كان الامر الاعظم أهمية لسورج هو قدرة أوزاكى على اسداء النصح له فيما يجرى من أمور داخل المجالس اليابانية ، وما يتعلق بالاستعدادات العسكرية ، وقصر سورج اتصالاته على دى فوكليتش وأوزاكى ومياجى وكلاوزن والبارات مثل الراينجولد وفليدرموز ولورمير ، **أو فى منزله الخاص ، ولم يحدث أن بدأ سورج يقابل عملاءه سرا الا بعد سنة ١٩٤٠ لما ازدادت رقابة البوليس ، وعندما كانوا يجتمعون فى منزل سورج كان أعضاء الحلقة يستبدلون عربات التاكسى فى أماكن عدة ، وعندما يصلون الى وجهتهم فانهم ينتظرون حتى يتلقون اشارة من نور المدخل تنبىء بأن الطريق ممهد خال .**

ولقد اعتاد كلاوزن أن يقابل فوكليتش فى منزل الاخير ، ولكن كان **يحدث ذلك أحيانا فى مطعم يابانى فيتظاهران هناك بأن مقابلتهما كانت بالصدفة ، فيحملان الافلام والرسائل أو الاموال فى علب سجائر نصف فارغة فيطلب المستلم لفافة تبغ فيقدم له الآخر علبة تبغة ويقول « احتفظ بها لدى غيرها »** وهكذا كان الامر سهلا وطبيعيا ، ومع النقص فى تعليمه فقد حبى الله كلاوزن بغرائز سليمة للعمل ، فافتتح مصنعا لصناعة الالات والذخيرة للتوريد للجيش والبحرية ، وبالطبع أحيط سورج علما ولم يوفر له ذلك ستار ممتازا لنفسه فقط بل هيأ لحلقة الجاسوسية فرصة التعامل المالى .

وبالطبع لم يستطع سورج أن يرسل بمعاونيه بعد سنة ١٩٣٩ الى الصين بسبب الخطر المتزايد ، وكان عليه أن يطلب من موسكو وسيط جديد فى طوكيو ، عندما أصبح من الصعب جمع الاعتمادات عن طريق البنوك الامريكية

واستطاع كلاوزن بعد تلقيه تعليمات بالراديو أن يحصل على تذكرتين لدخول المسرح الامبراطورى وقد وجد التذكرتين فى صندوق بريده بمكتب البريد المركزى بطوكيو ، وفى الظلام سلم لجاره من اليمين ثمانية وثلاثين فيلما وصورا لوثائق من السفارة الالمانية ، وفى مقابل ذلك تلقى لفافة تحتوى على خمسة آلاف دولار وظهر أن جار كلاوزن كان هيلجاليوندفيتش فوتوكيفيتش القنصل السوفييتى فى طوكيو ، والجدير بالذكر هو أن التكاليف الكلية **لحلقة سورج وصلت الى ثلاثة آلاف ين فى الشهر فكل عميل ماعدا واحد كان يعمل بدافع حبه للقضية لا للمال ، ولم تكن أجورهم الشهرية الا لتغطية معيشتهم وسفرياتهم ، فمثلا نجد أن أوزاكى لم يأخذ بنسا واحدا لنفسه ، وكان بالفعل مفلسا بعد أن ساعد الرجال الذين كانوا يعملون معه ٠**

واستطاع سورج بارساله هذ االقدر الهائل من المعلومات أن يوصل عن طريق عملة معلومات موثوق بها عن انتاج اليابانيين من الذخيرة والطائرات ووسائل النقل بالاضافة الى تقرير مفصل عن المصانع التى تقوم بصنعها ، وكذلك عن انتاج البلاد من الحديد والصلب ومن حين لآخر كان يحصل على أحدث الارقام ففى أغسطس سنة ١٩٤١ بعث الى موسكو مذكرة بموارد البترول اليابانية ، وهذا يعتبر سرا كبيرا بالغ الاهمية من ناحية تقدير أمكانية شن الحرب والمدى الذى يمكن أن تمتد اليه الحرب ، وبعث بتقرير يقول أنه يوجد مخزونا من البترول فى اليابان يكفى سنتين لاستعمال البحرية ونصف سنة للجيش ونصف سنة للشعب بصفة عامة ، وكانت مصادرة هى السفارة الالمانية ومياجى ٠

وبالطبع كانت سنة ١٩٤١ هى السنة الهامة وعقب تقريره العام بعث **سورج بتحذير يقول فيه ان وزارة الحرب فى الرايخ سوف تركز مابين ١٧٠ و ١٩٠ فرقة على الحدود السوفييتية وأنها سوف تقوم بهجوم فى يوم ٢٠ يونيو** على طول الحدود ، ولم يختلف الميعاد الذى حدده **الا فى يومين فقط** كما أثبتت الاحداث ذلك ٠

وفى أثناء تلك الايام الحرجة الذى أخذ العالم ابانها ينظر فى وجل وأنفاس متقطعة الى الهجوم الالمانى الكبير المخيف ضد روسيا ، أدرك سورج أن مهمته **الكبرى من أجل موسكو قد أصبحت قاصرة على الحصول على اجابة عن سؤال واحد وهو هل ستشن اليابان هجوما على الحدود السيبرية تجبرية روسيا على القتال فى جبهتين ؟** أما كل المشاكل الاخرى فقد كانت ثانوية بالنسبة

لهذه الاجابة • لانه بدون ايجاد حل لذلك لن تجرؤ روسيا على نقل جندى واحد من الشرق ، وكان من الحيوى لها أن تزج فى آتون الحرب بكل رجل وكل بندقية اذا أرادت أن توقف الجيوش الالمانية التى كانت تكتسح روسيا حينئذ •

لم يستطع سورج معرفة الاجابة فى الحال لان عصابة الحرب اليابانية لم تكن قد انتهت الى قرار بعد ، وقد عرف أن السفير أوت كان يحاول جهده اشراك حلفائه فى الشرق فى الحرب ، **ولكن حدث فى يوم ٢ يوليو عقب اجتماع المجلس الامبراطورى مباشرة أن ارسل برسالة سرية الى موسكو تحتوى على معلومات مؤداها أن الحكومة اليابانية قد قررت أن تندفع جنوبا تجاه الهند الصينية وتستولى على قواعد هامة** ، ومعنى هذا بالطبع بأن معاهدة الحياد مع روسيا لاتزال قائمة ، ولكن ازاء احتمال قيام حرب مع الاتحاد السوفييتى فلابد من الابقاء على التعبئة العامة ، وبعد ذلك فى الشهر نفسه بعث سورج بتقرير بأن قوات قليلة من مناطق طوكيو وأوساكا ، قد أرسلت الى الجنوب ، **ولكن لكى تستطيع اليابان الزحف على تايلاند والملايو فانها تحتاج الى ٣٠٠٠٠٠ مقاتل ولم يكن لديها فى ذلك الا ٤٠٠٠٠ مقاتل فقط فى الهند الصينية •**

أشارت تقديرات سورج فى أواخر يوليو وأوائل أغسطس أنه قد تم تجنيد مليون رجل جديد ، وأن غالبيتهم قد أرسلوا الى الصين أو الى الجنوب **ونسبة ضئيلة منهم كانت فى الطريق الى منشوريا ، واستطاع فى نهاية أغسطس أن يحيط موسكو علما بأن السفارة الالمانية قد فقدت الامل فى اقناع اليابان بالاشتراك مع المانيا فى حربها ضد روسيا فى تلك السنة ، وفى نفس الوقت اتضح من المعلومات التى جمعها مياجى أن جيش كوانتونج لم يكن على استعداد لمحاربة الجيش الاحمر سنة ١٩٤١** ، وحينئذ لاح احتمال تغيير الموقف اذا تعرضت روسيا لهزيمة ساحقة فى الغرب ، وظهر أن تقدم الجيوش الالمانية أبطأ مما يجب **وبشكل لايشجع الحكومة اليابانية التى وجهت اهتمامها فى ذلك الوقت الى المفاوضات مع أمريكا والى هجومها نحو الجنوب •**

وبحلول ١٥ من أكتوبر كان سورج قد بعث بالنتيجة النهائية التى توصل اليها : وهى انه **بعد أن قرر اليابانيون الزحف جنوبا فانه لم يعد**

هناك خطر جدي لحدوث هجوم من جانب جيش كوانتانج عبر الحدود السيبرية . ويمكننا الحكم على عدد الفرق وقيمتها بالنسبة لروسيا من الهزيمة الماحقة ، التي أنزلتها روسيا بالالمان في ستالينجراد بعد نقلها من الشرق ، أحس سورج حينذاك بأن مهمته قد انتهت ، وفكر في ارسال برقية يقترح فيها استدعائه الى الاتحاد السوفييتي ، فاقنعه كلاوزن بأن هذا الطلب قبل أوانه فلم ترسل الرسالة على الاطلاق وبعد ذلك بثلاثة أيام القى القبض على كل من سورج وكلاوزن ٠

وبسبب اليقظة والحذر الكامل من جانب الدكتور سورج سارت المنظمة دائما في يسر ونعومة كآلة مشحمة تشحيما جيدا ، الا أن أى حلقة للجاسوسية مهما بلغ حذق ومهارة وذكاء المسئولين عنها تكون معرضة دائما لطعنة قاتلة من ناحية غير متوقعة ، وهذا هو ما حدث بالضبط لسورج وزملائه الذين لم يكونوا مسئولين بالمرة عن الكارثة التى حلت بهم ٠

بدأت الخيانة في الحقيقة بالقبض على شيوعى يدعى ايتو ريت سين وهو اليوم زعيم له نفوذ بالغ في الحزب الشيوعي اليابانى ، داهم البوليس الدكتور سورج فوكليتش وكل عميل في الحلقة وزج بهم في السجن ، وهكذا تحطمت أعظم منظمة للجاسوسية في الجيش الاحمر وفي أى مكان في العالم ×

وكان القبض على سورج بالطبع صدمة كبيرة بالنسبة لاصدقائه السفير أوت والكولونيل جوزيف ميسنجر رئيس الجستابو ، وقد ظنوا في البداية أن اليابانيين قد أرتكبوا ضلالة من الضلالات المشهورين بها ، وحاولوا جاهدين اخراج صديقهم من السجن ، الا أن بوليس طوكيو أصر على أنهم قضوا على أخطر حلقة للتجسس أكتشفت في اليابان ، وهكذا تركه أوت وميسنجر وهما يتعجبان ، كيف يمكن أن يكون سورج ذلك النازى الطيب جاسوسا سوفييتيا ، وفي هذه الحالة ما موقف هذين الموظفين النازيين الكبيرين بعد أن وثقا فيه طوال هذه المدة ؟

وأخطرا برلين بالقبض على سورج وحاولا التهوين عن شأن علاقاتهما به بحيث اذا ادلهمت الامور وأثبت البوليس اليابانى أنه على حق لا تتأثر

× يختلف هذا عما جاء في كتاب «ذو الوجوه الثلاثة» الذى نشر ضمن هذه السلسلة من الكتب الخاصة بصناعة الجاسوسية ومحاربتها (المراجع) ٠

سمعتهما ، الا أن عميل ألمانى آخر يعمل بالمخابرات المضادة وسمع فى هربين عن معلومات آكيدة عن موضوع سورج من اتصالاته بطوكيو وبعث بتقرير الى برلين ·

وهنا أضطربت الحكومة الالمانية وطلب فون روبنتروب وزير الخارجية تفسيرا لذلك من أوت وفى النهاية أعفى أوت من منصبه وعين الدكتـور هنريش ستوهمر فى مكانه ، ومن سوء حظه أوت عاش مدة الحرب فى بكين لانه لم يستطع العودة الى ألمانيا ، وفى نفس الوقت استجابة لتحريات مسينجر فحص مركز قيادة الجستابو فى برلين ملف سورج منذ أيامه الاولى فى ألمانيا ، وكشف النقاب عن اتصالاته مع السـوفييت وسـلمه لليابانيين لينجو بجلده ·

وبالرغم من تليمحات رئيس الوزراء هيديتشى فقد سار البوليس فى أناة فى تحرياتهم ، وأراد عدد كبير من المسجونين أن يقول انه لا يوجد ما يحول دون الوصول الى صورة كاملة عن الموضوع · لان الآثار العميقة لحلقة الجاسوسية جعلتهم يهتمون ويحاولون معرفة الدوافع التى دفعت هؤلاء الخونة الى مساعدة الاتحاد السوفييتى ، فقد كان أوزاكى رجلهم بالفعل فى هذا السبيل لانه حتى بعد أن توقف عن اسداء المشورة الى الوزارة اليابانية وهي وظيفة وفرت له الاطلاع على الوثائق الهامة بالدولة فقـد ظلت قيمته لسورج لاتقدر بقيمة من ناحية تقـدير قيمة المعـلومات الذى أستطاع الحصول عليها من الاصدقاء الموجودين فى المراكز الرفيعة ·

وقال أوزاكى فى تبرير نشاطه فى الجاسوسية فى أثناء المحاكمة أنه كان يتوقع حلول نظام شيوعى جديد لايشمل اليابانيين والصينيين والروس فقط ، بل والكوريين والملاويين والمنغوليين وأهالى الفلبين وجزر الهند الهولندية والهند الصينية والهند كذلك ، وظن أنه يستطيع القيام بدور قيادى فى الدول الشيوعية الآسيوية ·

أما كلاوزن الذى أنقلب الى شاهد اثبات فقد حظى باحتقار سورج وحكم عليه بالسجن مدى الحياة بسبب اعترافه التلقائى وتحوله ، أما زوجته التي وقفت فى قفص الاتهام معه فقد حكم عليها بالسجن ثلاث سنوات لان المحكمة اعتبرتها امرأة عملت على غير ارادتها ، وكانت تنتظر زوجها عندما أطلق سراحه من سجن أوكيتا سنة ١٩٤٥ بموجب أمر من جيش الولايات المتحدة ·

وبعد القبض على سورج بخمسة شهور لم يكن عازفا عن مناقشة العمل الذى قام به من أجل روسيا ، ودافع عن نفسه بالاصرار على أن المعلومات التى حصل عليها من السفارة الالمانية قد أعطيت له طوعا ، ولا يمكن أن يسمى سوى القليل منها بأسرار الدولة ، وقال ولكى يمكن الحصول عليها لم يلتجىء الى أى استراتيجية يستحق من أجلها العقاب وأعلن « انه لم يستعمل الخداع ولا القوة على الاطلاق فقد طلب منه السفير أوت والقائد سكول أن يساعدهما فى كتابة التقارير وخصوصا سكول الذى أولانى الكثير من الثقة وطلب قراءة جميع تقاريره قبل أن يرسلها الى ألمانيا ، أما من ناحيتى فقد وضعت الكثير من الثقة فى هذه المعلومات لانها جمعت وقدرت بواسطة ملحقين عسكريين وبحريين أكفاء ولمنفعة هيئة أركان الحرب الالمانية وأعتقد أن الحكومة اليابانية كانت تزود السفارة الالمانية بمعلومات وهى تتوقع تسرب بعضها الى الخارج .

وصدر الحكم بالاعدام على كل من سورج ومساعدة أوزاكى ولم تقبل المحكمة العليا استئنافهما ، وقد يكون من الغريب أن نعلق على نوع القضاء المدنى اليابانى فقد لوحظ أنه فى خضم حرب ضروس ، قد توفر لاكبر جاسوسين جميع أسباب الحماية التى يفرضها القانون اليابانى ، وعلى الرغم من ثبوت التهمة على ما يقرب من عشرين رجلا وامرأة ، وعلى ذلك فانهم يستحقون الحكم بالاعدام فلم يصدر الحكم الا على اثنين فقط منهم بهذه العقوبة .

أخطر حكمدار السجن شيجيما أوساكا رسميا انه اذا رغب فى كتابة وصيته فان عليه أن يتركها مع كاهن المعبد البوذى وانصت أوزاكى فى هدوء ظاهرى وأدب وانحنى على الطريقة اليابانية .

وخلف الحكمدار والموظفين الآخرين سار أوزاكى هابطا من غرف المحكوم عليهم بالاعدام ، عبر الفناء الى المكان حيث توجد حجرة الاعدام المقامة من الخرسانة والتى تختفى وراء أسوار عالية ، وعندما سار الرجل المحكوم لميه بالاعدام عبر الباب الوحيد لهذا المبنى الرهيب وجد نفسه واقفا فى حجرة أمامية فى مواجهة مذبح جميل مضاء بصورة تمثال بوذا ، فقدم الكاهن الشاى والكعك لاوساكا وسأله عن الشخص الذى سيخطرونه بوفاته وعن الطريقة التى ستوزع بها ممتلكاته .

وحينئذ ركع أوزاكى أمام تمثال بوذا ، قرأ الكاهن الوعود الثلاثة من «كتاب سوترا» للحياة الابدية فأنصت أوزاكى فى هدوء وأغلق البخور عينيه وانحنى ، ثم تقدم بالشكر الى الموظفين الحاضرين لادبهم وعطفهم واشار الى استعداده لتنفيذ الحكم .

أقتيد أوزاكى حول جوانب المذبح وفى الحال أصبح فى حجرة كئيبة عارية لا نوافذ بها فيها مفصلة فى الوسط ، فسار عبر الحجرة ليقف تحت المقصلة ، ووضعت الحية فى مكانها ، ولم يكن هناك درجات يصعدها ولا رصيف ليقف عليه وكان الفخ فى الارض تحت قدميه مباشرة • بدأ أوزاكى يقرأ بعض الآيات البوذية وبعد أن قرأها مرتين فتح غطاء الفخ وبعد ذلك بثمانية عشر دقيقة أعلنت وفاة أوزاكى هوزيمى •

ولم يكد بنقل جثمانه من حجرة الاعدام حتى بدأ حكمدار السجن اشييما يقوم باستدعائه للدكتور ريتشارد سورج لآخر مرة من بين المحكوم عليهم بالاعدام فى سوجامو ، وبحكم العادة تأكد من اسم وسن الرجل الواقف أمامه قبل أن يخطره رسميا أنه طبقا لاوامر صادرة من وزير العدل بتنفيذ حكم الاعدام فى ذلك اليوم ، وأن المتوقع أن يموت فى هدوء ، وسأل الحكمدار سورج عما اذا كان بود اضافة أى شيء الى الوصية التى سبق له كتابتها والخاصة بنقل جثمانه وممتلكاته القليلة •

فأجاب سورج فى هدوء وقال «ان وصيتى هى كما كتبتها تماما» وهنا سأل الحكمدار «هل لديك أقوال أخرى تود الادلاء بها ؟» فقال سورج لا لاشيء غير ذلك وبعد تبادل الكلمات القصيرة هذه استدار نحو كاهن السجن وموظفى السجن الآخرين وقال «أشكركم لعطفكم الجم» ، وكانت هذه هى الكلمات الاخيرة التى تم تسجيلها للدكتور ريتشارد سورج •

وعندئذ غادر السجين وسجانه الزنزانة وساروا فى طريقهم عبر الفناء الواسع الى حجرة الاعدام •

وعلى خلاف أوزاكى الذى سبقه فى المسيرة الطويلة هذه قبل ذلك بوقت قصير ، فانه لم يقف أمام المذبح الذهبى ، فقد أقتيد سورج مباشرة الى حجرة الاعدام وسار فى ثبات ليقف فوق باب الفخ ، ووضع الحبل حول رقبته وبدون كلمة واحدة أو أى علامة من علامات الاضطراب ثم اعدامه •

وهكذا انتهت حياة ريتشارد سورج الالمانى الشيوعى والجاسوس الذى نجح نجاحا لايمكن تصديقه •

١٢

الزهـــرة الحمـــراء

الزهرة الحمراء

فى مستهل ربيع سنة ١٩٥٥ طار داج همرشولد من مبنى الامم المتحدة بنيويورك الى شو اين لاى رئيس وزراء الصـين الحمراء ليطلب منه وقف اطلاق النيران فى مضايق فرموزا ، وأعلن السير أنتونى ايدن ـ ووافقت كندا على وجهة نظره ـ بأن بريطانيا لا يمكن أن تخوض غمار حرب للدفاع عن جزيرة ماتسو أو كيموى الخاضعتين لسيطرة الماريشال تشانج كاى تشيك ، وطالب بعض المتطرفين من شيوخ الولايات المتحدة بالقيام باجراء حربى ضد الاراضى الصينية الاصلية للقضاء على الشيوعية بل واستعمال الاسلحة النووية اذا اقتضى الامر .

أما ونستون تشرشل العجوز والذى كان لا زال يتمتع بالحيوية فقد أعلن اعتزاله النهائى للعمل وقبل الرئيس أيزنهاور الطريق الوسط للبقاء بعيدا عن المتاعب فى أسية .

الا أن حرب الفكر استمرت فاشتدت المعـــارك السرية بين فيـــالق الجواسيس للجانبين ذالك لأنه بدا كما لو كانت المعركة الحاسمة النهائية بين ٦٠٠ مليون صينى تحت نير الشيوعية وجزيرة فورموزا الصغيرة تحت حكم تشانج كاى تشيك قد تنفجر فى أية لحظة .

وحدث أثناء هذه الازمة أن كتبت ايفا وو قصة حياتها فى الجاسوسية وعلى الرغم من أنها كانت مسرحية حقيقية صادقة فقد ظهرت مماثلة لفيلم سينمائى من أفلام الدرجة الثانية بهوليوود .

* * *

عاشت ايفا وو فى هونج كونج ، ومستعمرة التاج البريطانى والمدينة الصينية المجاورة كولون كانتا مراكز التجسس بالشرق الاقصى ، كمـا كانت برلين وستوكهولم وفيينا فى أوروبا ، ففى هونج كونج يتم تبادل

المعلومات بوساطة طرق ملتوية وتحاك المؤامرات ، ويختطف الناس ويقتلون كل يوم تقريبا تحت اسم التآمر الدولى ، ويعمل عملاء تشانج كاى تشيك وماوتسى تونج فى صمت دائم ، الا أن الصراع العنيف يدور هناك ويراقب العالم فى نفس الوقت عناوين أنباء الصحف ويتعجب ويخشى أن تنطلق شرارة من أسية تشعل حربا أخرى قد يكون فيها نهاية العالم ٠

ولايفا وو الراقصة الشرقية الساحرة التى نجت من فترة قصيرة من براثن الشيوعية قصة رائعة تستحق السرد ، فقد نجحت لمدة شهور طويلة وعلى الرغم من الرقابة الصارمة الدقيقة التى فرضها عليها الجواسيس الشيوعيون فى ارسال تقارير من الصين الحمراء ٠

ولكن لكى نبدأ القصة فى أولها ٠ يجب أن نعرف بأن ايفا الذى يمثل جسمها وسحرها الجمال الشرقى فى أعلى درجاته وقعت عقدا لعدة شهور للعمل فى ناد من النوادى الدولية فى هونج كونج وتوالت عليها الليالى وهى ترقص رقصة المعبد المشهورة لتسلية الرواد من جميع أنحاء العالم من الرجال والنساء ، ونظرا لنجاحها الهائل فقد عاشت عيشة مترفة هينة ٠

ثم نعود بعد ذلك الى الوراء الىشهر مايو سنة ١٩٥٤ عندما حدث وهى تهرول مسرعة فى طريقها الى خارج النادى بعد نهاية الحفل أن سمعت صوتا يناديها فى الظلام ٠

وسأل الصوت : « هل ترغبين فى خدمة بلادك ؟ »

شعرت الراقصة بالخوف ولكن استمر هذا للحظة واحدة ، لأن صوت هذا الرجل أوحى اليها بالثقة ، وعندما تعودت عيناها على الظلام شاهدت أنه رجل صينى يرتدى ملابس أوروبية ، وكان يعرج بوضوح ، فظننته « محاربا من المحاربين القدماء الجرحى » ، وشعرت بعطف عليه وأحست بمزيج من الثقة والفضول وبدون تردد اتجهت اليه وجلست الى جواره على مقعد منعزل قريب من ساحل البحر ٠

وكان صوته صوتا دافئا حنونا فيه لهجة شخص مثقف من أهالى كانتون ، وزال العجب من ذهن ايفا قبل أن يطول الوقت بها حول الثقة

التى ملأتها من ناحية هذا الغريب فلم تكن متكلفة الحشمة والوقار ، ولكنها فى نفس الوقت لم تكن فتاة سهلة المنال ، ولكن كانت هناك أوقات عصيبة فقد كانت هى الاخرى واحدة من مئات عديدة من اللاجئين الذين فقدوا أوطانهم • فوالدها ليو وو كان طبيبا بكانتون ورب أسرة مكونة من خمسة عشر طفلا ، وعلى الرغم من وطأة هذا الحمل فقد استطاع أن يوفر تعليما جامعيا لابنته ايفا وعندما قهر الشيوعيون البلاد جزءا جزءا ، ولخشية ليو وو من الشيوعيين فقد بعثر عائلته بقدر الامكان ، وأعطى ايفا أوقيات قليلة من الذهب استغلته فى شق طريقها عبر البلاد الى هونج كونج ، وكان هذا السؤال يتردد فى ذهنها دائما : « ماذا أستطيع أن أفعله للمساعدة ؟ »

ماذا أستطيع أن أفعله لتخليص البلاد من هذا الوباء ؟ وربما تصورت أن هذا الغريب الذى سمعت صوته فى الظلام سوف يخبرها بما تفعله • بل ربما كان من المحتمل أنه يحمل رسالة من اخوتها أو أخبارا من عائلتها

وبشكل ما لم تشعر ايفا بدهشة بل شعرت ببصيص من الامل عندما بدأ جليسها يحدثها عن نفسها ، فقد كان يعرف من أين جاءت وعن أسرتها فى كانتون ، وأين تسكن الآن ، فأخذ يتحدث فى يسر وهدوء ومن الواضح أنه كان يحاول أن يريها مدى صدق ما يعرفه عنها ، وفى النهاية استوقفته وذكرته قائلة : « لقد تحدثت عن خدمة قد أستطيع تأديتها فماذا تظن أننى أستطيع فعله ؟ »

اننى أعرف أنك تترددين بين الحين والحين على مدينة صينية لشراء حاجياتك ، وها هو خطاب أحب أن توصلينه الى مكان ما خارج مستعمرة التاج البريطانى لاننى لاأستطيع توصيله بنفسى لان المكان يعج بالجواسيس وأننى معروف جيدا •

فأجابت ايفا : « لا يبدو هذا بالامر الصعب العسير » •

فشرح الغريب الاعرج قائلا ان المأمورية قد تكون خطيرة ، ولكن الراقصة وافقت على الرغم من ذلك وبلا تردد ، وتم تدبير الامر بينهما ، واتفقا على أن يقوم هو باحضار الخطابات اليها ، فتقوم هى بتهريبها الى المدينة الصينية ، وعليها أن تحيطه علما فى كل مناسبة عما اذا كانت الامور تسير سيرا طبيعيا أو أنها تلاحظ شيئا يستحق أن تنبهه به ، واذا

سارت الامور سيرا مرضيا من ناحية مهمتها فعليها أن تعلق زهرة بيضاء في شعرها فى أثناء تأديتها لرقصاتها واذا اقتضى الامر تحذيره من الخطر فعليها أن تضع فى شعرها زهرة حمراء بدلا من ذلك ·

قامت ايفا بتنفيذ مهمتها الاولى فى اليوم التالى فأخفت الخطـاب فى شعرها الكث الذى كانت تجمعه فى ثنيات كبيرة منتظمة على شكل حروف الطباعة اليابانية القديمة ، ومرت رحلتها لشراء حاجياتهـا بدون حوادث وتم توصيل الخطابات الى صاحب الحانوت بسهولة ·

ومن تلك اللحظة فصاعدا استمرت فى تسلم الخطابات من القطاع الدولى وتوصيلها الى القطاع الصينى وعن طريق لقائهما المتكرر عرفت ايفا أن الرجل الاعرج كان ضابطا فى المخابرات السرية للصين الوطنية ، وانه يبعث بالمعلومات عن طريق الرسائل التى تحملها ولكنها لم تدرى أن رسائلها بعد ذلك كانت تسلم على أفلام صغيرة ولم يحدث أن قرأتها ايفا اطلاقا ولم تكن تدرى أى نوع من المعلومات تتضمنهـا ، وحـدث مرة أن أخذت أجزاء من جهاز ارسال من أجهزة الموجة القصيرة الى مخزن من مخازن بيع الحرير بالمدينة الصينية ·

ونجحت رحلات ايفا وو لشراء حاجياتها النسائية من المدينة الصينية مثل أدوات الزينة والحرائر والبروكار والعطور فى اخفاء أوامر صادرة من شانج كاى تشيك ، الى رجاله السريين وتقارير فى صورة ميكروفيلم ، عن تحركات الجنود السرية وعن وصول شحنات من الاسلحة السوفييتية ، وخطط غارات الفدائيين ضد أراضى الصين الوطنية ، وأصبحت ايفا وو الفاتنة حلقة هامة فى حرب الجاسوسية فى الصين والجاسوسية المضادة فأحاطت مركز القيادة بفرموزا بمناورة سفينة بولندية للسواحل الصينية بعد ابحارها بساعات قليلة ، وعن شحنات من الافيون مرسلة الى موانى أسيه ، وفى الواقع أصبحت ايفا أهم جاسوسة من جواسيس تشانج كاى تشيك فى تلك المنطقة تعمل فى الميناء وفى جهاز التجسس البحرى ، وكان كل انسان يشاهد أصابعها وعليها الخواتم الماسية أو بدنها وهى مرتدية رداء جديدا جميلا يصعب عليه أن يشك فى أن هذا الجمال النسوى الفاتن كان مطواة حادة فى الشبكة الحيوية للنشاط الشيوعى ·

سارت الامور على ما يرام لمدة ستة شهور ولم يحدث أن أحست ايفا بخوف أو اضطراب من ناحية اكتشاف أمرها فكل ما كانت تقوم به يبدو

لهافىمنتهى البساطة وبدون أى تكلف أو افتعال ، وظل رئيسها الجاسوس الاعرج الى جوارها عطوفا رقيقا ويحذرها دائما ويطالبها بالحيطة والحذر فشعرت باعجاب شديد نحوه مقرونا بعرفان الجميل عندما أخطرها بأن أخين من اخوتها فى سلام مع القوات الوطنية بفرموزا ، وأحست بشىء من الرضى عندما أيقنت هى الاخرى أنها منحته العون على الرغم من سهولة مهمتها ، وربما أحستبصعوبة الاعراب عن هذا الشعور ولكنه كان يهيمن عليها ويمتلك حواسها ٠

وكانت جاسوسة هامة فىعالم الجاسوسية المظلم وصعدت ايفا صاحبة اللون العاجى فى أضواء النادى الليلى الساطعة الى القمة ، وأصبحت أشهر راقصة فى هونج كونج كلها ، فأذهلت عشاقهـــا الذين يمثلون شعوبا كثيرة من شعوب العالم برقصاتها الشرقية ٠ وربما يكمن نجاحهـا فى قدرتها على مزج المواضيع الحقيقية للطقوس الدينية والرمزية بتفسيرتهـا الحديثة المفهومة ٠ فتستعرض التصوف فى رقصاتها فتأسر عشاق فنهـا وبشكل يفقدهم الوعى ٠ وكانت رقصة من رقصات التعـاويذ من أحب الرقصات للرواد وهى عبارة عن رقصة كهنوتية يقصد بها ابعاد الارواح الشريرة فتحمل فى احدى يديها خنجرا وفى اليد الاخرى اناء نحاسيـــا متلألئا وممتلئا بالماء ، وبحركات رصينة تكاد تكون كحركات التماثيـل تحمل بوضوح الانطباع بأنها كانت تطهر الرواد ونفسهـا وكل أراضى كونفشيوس من الرجس ، وكانت هناك أوقات يحس فيها الحاضرين عقب كل رقصة بأنهم سحروا بمغزى حركات الفتاة ، بحيث تمر بضع ثوان قبل أن يفيقوا من هذا السحر ويصفقوا لها ، وبالفعل كانت روعة فنها فى تحريك أصابعها الدقيقة بدرجة تجعل الناس ينظرون اليها وكأنهـا من طبقة أخرى غير طبقات البشر ٠

وهكذا سارت حياة ايفا فى هدوء وسلام فكانت تعيش فى نعيم وثراء بعيدة عن الاصدقاء فلا ترى الا لماما مع ابن عمها الرجل الاعرج ، ودرست الرقص واكتشفت ألحانا موسيقية جديدة لاستعمالها ، وكانت متحمسة فى بحثها عن التصميمات اليابانية فتقضى ساعات طويلة فى المعارض ولم يأخذ عملها فىالتجسس الا قدرا قليلا من وقتها لانه لم يكن يطلب توصيل أكثر من رسالتين فى الشهر الا نادرا فلم تكن تحس بالانفعال من تأديتها لمهامها فى الجاسوسية ٠

ولكن حدث فى يوم من أيام شهر فبراير سنة ١٩٥٥ فى أثناء رحلة ايفا الى المدينة الصينية القديمة أن استوقفهـا رجـلان يرتديان ملابس فاخرة قالا انهما من رجال الشرطة وأصرا على تفتيشها ، فرفضت ايفـا هذا الاقتراح رفضا قاطعا ومع ذلك فلم تبدر منها بادرة توحى بأنها تشك فى أنهما من الشيوعيين العاملين بحقل الجاسوسية المضادة ، فدفعهـا الرجال الذين لم يثبط رفضها هممهم الى سيارة كانت فى الانتظار وسارت بهم وهى تحتج الى مركز البوليس وهناك أجبرت علىخلع ملابسها بواسطة وصيفة من الشرطة وفتشت من الرأس الى أخمص القدم وجرى تفتيش دقيق لجميع ملابسها وحقيبة يدها ولـكن لم يتمخض التفتيش عن شىء يدينها بالتجريم .

فاحتجت فى شموخ وقالت : « اننى لم أفعل شىء أستحق عليه هذه المعاملة ، فأنا مجرد راقصة لا يستويهـا سوى الرقص والفن ولا تحب التدخل فى السياسة ، فلا حق لكم فى مثل هذا العمل واننى أطالبـكم باطلاق سراحى فورا » .

فزمجر الجواسيس الشيوعيون ولم يعجبهم هذا القول : « الرقص - الفن . وهذا الخنزير شيانج كاى تشيك فاثنان من اخوتك يعملون لحسابه ومن المحتمل أن تكونى أنت ذاتك جاسوسة فاشستية لقد ظللنا نراقبك لمدة أسابيع » .

فسألوها : ما سر شغفك بالفن اليابانى ؟

فأجابت بابتسامة باردة كالثلج : « أحب أن أنظر الى فن هوكوساى قبل أن أبتكر رقصة جديدة فرسومه تسير ضد الريح وهى الطريقـة التى أحب أن أتبعها فى رقصى ، ولكن لا يمكننى أن أتوقع منكما أن تفهمانى .

فتركوها وشأنها لكى يتجنبوا عملية اختطاف دولى فهم لم يعثروا على الرسالة التى كانت تحملها اذ كتبت على رأس صـغير لا يزيد على رأس الدبوس وهى عبارة عن شريحة صغيرة جدا من الميكروفيلم على ابرة واحدة بين خيوط من الحرير فوق حقيبة يدها ، ومرة ثانية استطاعت تسـليم تقريرها الحيوى ، كان التقرير يوضح الاوامر لمساعدة الفدائيين الوطنيين عند نزولهم فى اغارة قادمة ، كما يشتمل على نداء التعارف عند اقتراب اغارة الفدائيين فى المرة التالية .

وكانت ايفا المرحة الواثقة من نفساه هى التى خطت فوق المسرح فى تلك الليلة ولفت رداء المعبد بعناية فى ثنيات رشيقة حول قدميها فقد تملصت من العدو ، وبدأت تتمايل وترقص أشهر رقصاتها ويدها اليسرى على الخنجر الموضوع فى غمده الذهبى الموشى بالساتان ويدها اليمنى ترفع فى رشاقة الاناء النحاسى اللامع المحفور ، وفجأة سلطت عليها أضواء المسرح وأخذت ترسل آلاف من الومضات الضئيلة على ردائها الموشى بالجواهر ووجهها المقنع بدهان أبيض ، وعيناها المفتوحة التى بدت فى ضعف حجمها الطبيعى كانت كلها ساكنة عندما بدأت حركاتها البطيئة المنتظمة ٠

وثبتت قدماها فى نقطة وثنت جسمها نصف ثنية لتقدم اناء التطهير الى بعض الرواد ، وحدث فى تلك اللحظة أن عرفت أن بين الذين يواجهونها الرجلين والذين ألقيا عليها القبض قبل ذلك بساعات قليلة ، وفى الحال أدركت أنها فى خطر داهم ، فتملكها الخوف وتلاشت ثقتها بنفسها لدرجة أنها خشيت أن يسقط الاناء من يدها وحاولت أن تعيد الهدوء الى نفسها بأى ثمن اذا كانت لا تريد الافصاح عن سريرتها فصارعت فى سبيل استعادة اتزانها ودارت فى تؤدة وركعت نصف ركعة لتواجه الناحية الاخرى من الحجرة وهناك شاهدت صديقها وهو يجلس أمام منضدة صديقها الاعرج وكان مجرد وجوده يوحى بالخطر الماحق ، لقد وقعت فى المصيدة بين الصديق والعدو وشعرت بالعجز عن اعطاء اشارة الخطر وبخطوات قصيرة دارت وانحنت ومدت اناء المعبد وسحبته الى نفسها وهى تتحرك مع الاوركسترا وموسيقاه التى تزداد سرعة وعلى دقات طبول المعبد وعندما أسرعت دقات الموسيقى استجابة لحركاتها السريعة المثيرة حاولت ايفا أن تفكر فى مخرج وأدركت بالغريزة أنها فى خطر ولكنها اذا حاولت النجاة الآن فى الظلام فانها سوف تعرض نفسها لرصاصة فى ظهرها وببلاهة تجاهلت أحداث بعد الظهر والقبض عليها ولولا أنها لم تفعل ذلك لكان لزاما عليها لبس الزهرة الحمراء للتحذير بدلا من الوردة البيضاء فى شعرها ، وبذلك يفهم صديقها ٠ وتوقف الاوركسترا عن العزف الا أن ايفا كانت تتشبث بلحظات ثمينة استمرت تتحرك فوق المسرح فى خطوات دائرية ثم وقفت فى وسطه ، وبقيت طبول المعبد مستمرة فى دقاتها متتبعة وقع خطواتها ، فسحر الرواد بقدرتها وجلسوا فى ذهول بهذا الامتداد الجديد فى رقصتها ٠ فركعت فى بطء ووضعت ايفا الاناء فى رقة فوق الارض أمامها ورفعت رأسها كما لو كانت تتوسل

الى الألهة سحبت الخنجر من غمده ثم طأطأت رأسها وعمدا فى حركة تدل على التضحية قطعت شقا فى ذراعها اليسرى وأخذت تشاهد الدماء وهى تنساب منه كشريط أحمر على جلدها العاجي والتقطت الزهرة من شعرها ومررت أوراقها على الجرح كما لو كانت تغذى ببياضها النقى دماء الحياة فيها ٠ فتحولت الى اللون القرمزى رمز الخطر ،وهنا ولاول مرة فقد وجهها قناعه الشاحب وابتسمت ٠ أوحى الى النظارة بأن هذا هو ذروة التطهر ومدت ذراعها الدامى أمامها ورفعت الزهرة الحمراء عاليا بيدها اليمنى فوق رأسها ٠

استيقظ النظارة بعد سكوت كالموت علىضوء المكان وبعد ذلك صفقوا كالرعد وهمس البعض وهم يصفقون لبراعة ايفا فى خدعتها الاخيرة ٠

وكان الجمهور لايزال يصفق عندما دخلالجاسوس رئيسا حجرة ارتداء ملابسها وكان من السهل مشاهدة المحنة التى مرت به هو الآخر لأن يديه كانتا ترتعشان وهى يلفها بعباءة وأخذ يتمتم بصوت أجش « شـــجاعة وذكية » وعندما رأت الشرطيين الصينيين فى باب الخروج الرئيسى اتجهت والرجل الاعرج الى باب جانبى ووصلا الىالشارع وذهبا الى أقرب مستشفى

ولا زال الناس فى هونج كونج يتحدثون عن ايفا ويتذكرونها بآخر رقصة لها ـ رقصة التعاويذ ويقولون ان من أعظم رقصاتها تلك الرقصة التى استنزفتفيها دماءها فكانتأروعها وأكثر سحرا ، وأخذوا يستغربون لعدم ظهورها ثانية فى نوادى المدينة بعد ذلك فيقول البعض أنها ترقص فى سان فرنسيسكو ويقول البعض انها قتلت ويعلن رجل واحد أنه رآها فى فرموزا مع شخص مقعد ونحن لا ندرى ولكننا نعرف عن يقين أن آيفا لم ترقص فى هونج كونج بعد تلك الليلة ٠

١٣

مدرسة للتجميل فى شارع الملك جاد

كان الشيوعيون يزحفون نحو مشارف مدينة سيول ، المدينة الخربة وسط أنقاض كوريا ، وقد عاش فيه مليون شخص من قبل الا أن الضواحى بدت فى ذلك الحين كمجموعات ضخمة من القبور ٠

فلم يترك منزل واحد قائم فى أى مكان ، ولم يبق على ظهر الارض مبنى عام ، بل تجد هنا وهناك بقايا حائط لم تستطع القنابل أو دانات المدافع أن تدمره تدميرا كاملا ، وأمكن أحيانا أن نخمن من رؤيانا لهذه الهياكل الهزيلة الاهداف التى كانت تخدمها فى سابق الزمان ، ومن هم الذين سبق لهم أن عاشوا هناك ، ولماذا نشاهد تقويما قديما أو قصاصة من أوراق الحائط تتطاير ، وقد نقلب هذه أو تلك لتقص علينا قصتها ٠ وقصة الاحياء الذين عاشوا مرة هناك تحت راية السلام ، فان تدمير قرطاجنة وافناء ليديسى وقصف روتردام بالقنابل لا يمكن أن يقارن بهذه المأساة الاسيوية فتجد الاطفال يلعبون بين الاطلال أو يحفرون الركام على أمل العثور على كنز دفين × ٠

وجاءت المجاعة اثر الدمار فشح الارز وحدث نفس الشىء لكل أسباب الحياة ، وكان الشيوعيون يسوقون أمامهم الامريكان وقوات الامم المتحدة التى تقل عنهم عددا نحو البحر ، ولم يكن أحد يدرى اذا كان الجنرال ماك آرثر سيتمكن من وقف هذا الزحف أم لا ٠٠

فأخذ الامل يراود كيم سيوم أن يحقق الشيوعيون انتصارا ، وكانت كيم أشبه ما تكون ماتا هارى كوريا ، وهى أقوى جاسوسة ألقى القبض عليها فى كوريا ، كان قد تحدد يوم ٢٨ يونيو سنة ١٩٥٠ لتنفيذ حكم

× ليديسى مدينة فى تشيكوسلوفاكيا قرب براج دمرها النازيون سنة ١٩٤٢ بدأ اعادة بنائها فى سنة ١٩٤٦

الاعدام فيها ما لم يوقع الشيوعيون الهزيمة بقوات سينجمان ري وما لم يرغموا الجيش الامريكي على الجلاء عن جمهورية كوريا الجنوبية ·

لم تر الحرية ثانيا وتبخر أملها الاخير في انتصار الشيوعيون وتبخر معه آخر أمل في النجاة عندما أخبرها القسيس الذى صاحبها من سجن سيول الى مطار كيميو ، بالموقف على حقيقته وبين لها أنه لا توجد فرصة واحدة يتمكن بها الشيوعيون من الوصول في الوقت المناسب لتحريرها ·

ظلت كيم سيوم صامتة في أثناء رحلتها في عربة الجيب وكانت قد تلقت وعدا بالسماح لها برؤية والديها قبل اعدامها وأخذت تفكر مليا محزونة في الكيفية التى سيتم بها ذلك ·

وسألت القسيس

هل سأعدم ؟

الا أن القسيس لم يكن يعلم

هل سيطلقون النيران على ظهرى ؟

فاستمر القسيس في امساكه عن الاجابة ·

هل سيعصبون عينى ؟

فرد في رقة وعطف أعتقد أنهم سيفعلون ذلك وسوف أكون معك ، وأرجو أن تكونى رحيمة بوالديك ، ولن يتسنى لك المكوث معهم طويلا لقد حضروا من مكان بعيد ·

وارتدت كيم سيوم جلبابها الوطنى ولفت شعرها بشدة حول رأسها

وفى المطار الذى مزقته القنابل رأت في الحال جماعة من الرجال وأدركت أنهم فصيلة الاعدام ، والى جوارهم وقف أبوها سان وأمها ، وظهرت الدموع في عينى الام الذابلة الا أنها لم تنطق بكلمة واحدة الى ابنتها ، واكتفت بلف ذراعيها حول كتفى الابنة وربتت على شعرها وحاولت تقبيلها ·

ووقف والدها هناك كالتمثال وقد ارتدى خرقا بالية وحذاء قديما ، ولم يكن عمره يقل عن السبعين ، وأخذت التجاعيد الكثيرة تتحدث عن

المتاعب والاثقال ، والجوع الذى عاناه الرجل طويلا مثله مثل غيره من ملايين الكوريين ، فلم يتذوق فى حياته طعاما أدسم من كمية قليلة من الارز وربما لم يتناول اللحم أكثر من مرتين فى العام ، ولم يداعبه الامل فى وقت أفضل لان الامل قد صار ترفا لا طاقة له به ولم يحدث أن تذوقه من قبل ٠

وكانت الصورة التى ارتسمت فى ذهن القسيس لذلك الرجل هى أنه نموذج للتمثال الصغير للانسان ، الشرقى وبشكل جعله يتذكر هذا التمثال الذى كانت تضعه والدته على المنضدة وهو طفل ففيه نفس الوجه المجعد والاصابع الطويلة والرأس والذقن الملتصقة بالصدر ، ولكن دون انحناء فسحره المنظر على اعتبار أنه شيء فريد نادر ، والآن عندما شاهد القسيس مثيله الحى شعر بالفارق العظيم لأن التمثال المصنوع من الطين يمكن كسره ولكن لا يمكن ايذاء هذا التمثال الآدمى ٠

وقال العجوز للقسيس : « لست أعرف ماذا هو الدين ، ولكن كيم سيوم فتاة خيرة ، وقد ساعدتنا كلما استطاعت الى ذلك سبيلا فلم تنسانا أبدا عندما كانت مقيمة بالمدينة فهلا تستطيع مساعدتها يا رجل الله » ٠

فأحس القسيس أن هذا لا يدخل فى نطاق اختصاصه واذا كان الامريكيون قد صدقوا على حكم الاعدام فقد تكون هناك فرصة لتأجيل أو اعادة النظر فى الحكم لان الامريكيين قد يكونوا من الناحية العاطفية عازفين أو مترددين فى تنفيذ حكم من أحكام الاعدام ضد امرأة ، ولكن الذى حدث هو أن كيم قد حوكمت وأدينت أمام محكمة كورية ، ولا يمكن لمخلوق أن يتدخل ، وشكرا الى كيم سيوم فالشيوعيون الذين توقفوا ثانية خارج سيول قد أوشكوا فعلا على دخول وغزو المدينة ٠

وهز القسيس كتفيه فى حركة يائسة ٠

وعلى الرغم من شيخوخة وتعاسة الاب سان فقد أصبح فى هذه اللحظة لاول مرة فى حياته مضطربا وملحفا فى توسلاته ومحاولاته لانقاذ حياة ابنته ٠

وفى أثناء اصطفاف فصيلة الاعدام قال الاب سان : « لقد آمنت فى بدء حياتى بالارواح ولا زالت كيم سيوم تؤمن بها ولا يمكن للأرواح أن

تقدم مساعدة الآن فلم يعلمنا اليابانيون أن نؤمن فى Shinto وعلى ذلك لا يمكنني طلب المساعدة منه ولكنكم مسيحيون فهلا يستطيع الهكم مساعدتنا ؟ أنا لا أعرف أى شيء عنه » .

احتبست الكلمات في حنجرة القسيس وشعر بعجزه عن الاجابة وأحس باحساس غامض منّ أحاسيس الخلاص عندما جاء قائد فصيلة الاعدام الى السيارة الجيب ، فترنح الثلاثة الاب سان والام العجوز والقسيس الحزين وبكوا وأخذوا يراقبونه عند أخذ كيم وهى معصوبة العينين وقادها الى حائط معسكر الميناء الجوى ، فصلى القسيس ، وماتت كيم شجاعة اذ مزقت خمس رصاصات جسدها واحدة منها اتجهت الى قلبها ابذا انتهت قضية أعظم جاسوسة كورية .

* * *

وبعد ذلك بعام كامل قابلت نفس القسيس فى أثناء سفرى الى الاراضى المقدسة ، وبينما كانت السيارة منطلقة بنا عبر الصحراء القريب من بيت لحم قص على قصة اعدامها خارج مدينة سيول ، وكان يود معرفة ما أعلمه عن كيم سيوم لانني تحدثت عن عملها فى الجاسوسية فى عدد من المقالات فى المجلة ، فوعدته بالادلاء بجميع معلوماتى بشرط واحد .

ماهذا الشرط ؟ تساءل القسيس فى اصرار عنيد .

فقلت : « سبق أن كتبت قصص مئات الجواسيس ولكننى أحب أن أعرف السبب الذى تتصوره أنه صنع من كيم سيوم جاسوسة فانت كقسيس لابد وأن تعرف القلب الانسانى أكثر منا نحن واننى مهتم بدوافع الفتاة أكثر من اهتمامى بأعمالها » .

قد تكون معلوماتى أقل من معلوماتك عنها على الرغم من أننى قابلتها وقدتها الى حتفها ولم يكن لديها ما تقوله .

ولكنك تعرف الابوين ماذا قالا لك ؟

حسنا أخذناهما الى مقر بعثتنا وقدمنا لهما طعاما من اللحم والارز والسمك وأعطيناها طعاما ليأخذاه الى منزلهما الا أن حياتهما لم تكن مختلفة عن حياة الملايين من فقراء الفلاحين الكوريين الآخرين .

فقلت : استمر ·· هل يصنع الفقر جواسيسا ؟

وأجاب القسيس : لم لا ··

هل تصنع المجاعة جواسيسا ؟

وقال القسيس فى هدوء :

ـ لا فى أمريكا ولا فى بريطانيا ولكنه تتسبب فى ذلك فى آسيه ·

وعند هذا الحد بدأ القسيس يتحدث فى حرية ويدلى بكل ما يعرفه عن كيم سيوم ، وتم ذلك كما لو كان يتصور أننى من المحللين النفسانيين القادرين على ترجمة العمليات الذهنية للجاسوس ، لا سيما الاسباب التى دعت ابنة فلاح كورى الى خيانة بلدها ·

فقال : منذ نعومة أظفارها رأت كيم عائلتها تعانى الفقر المدقع فشاهدت أمها وهى تزرع الارز وهى عملية تقصم الظهر وتبعث فى النفس الملل ثم تعتنى بحقوله الموحلة وكان ايجار قطعة الارض المزروعة أرزا يدفع عينا من الارز نفسه ، وبعد دفع كل قسط شهرى لا يتبقى للعائلة الا قدر صغير من الارز تعيش عليه ، والمؤكد أنها لا تجد أى مال آخر لبقية مطالب الطعام فلم تجد فى أى وقت من الاوقات ما يقيم أودها ·

وكان هناك أطفال ستة فى العائلة وكانوا يقدمون مساعداتهم كذلك بجمع المخصبات الزراعية ، للارز قبل جمع المحصول من دورات مياه القرية ، وهذه مهمة لا يمكن أن تكون بمحض اختيار الاطفال · ومن العسير أن نتصور كيف استطاعت العائلة أن تظل على قيد الحياة ، ولا يمكن لغير الاستسلام الشرقى للبؤس أن يتحمل مثل هذه التعاسة ، وفى أثناء فصول الشتاء الباردة الطويلة بكوريا ينام أفراد العائلة على الارض فيتكومون جميعا تحت بطاطين بالية قليلة قذرة ، وكان الوقود الوحيد هو الخشب الذى تجمعه من فوق التلال الام سان والاطفال ·

وأصبحت الحياة أشد قسوة ابان الاحتلال اليابانى لان الاب سان أجبر على العمل أربعة أيام من أيام الاسبوع بدون أجر ·

أما فى الماضى فكان يستطيع الحصول على قدر قليل اضافى من عمله كعربة بشرية تنقل أى شىء وكل شىء للسكك الحديدية أو لحساب الذين يتحملون مثل هذه النفقات ٠

وبالطبع لا يعرف الكوريون من أمثال الاب سان الاطباء أو أطباء الاسنان ، ومن الواضح أنه مع وجود مثل هذا الفقر يفضل الناس الارز على الاسنان لا الاسنان بدون أرز ، ونشأت كيم فى هذه البيئة بيئة الوضاعة والفقر والقذارة والمرض والشقاء ، ومع ذلك فلهؤلاء الناس الفقراء التعساء أحلامهم ، وكل ما يحلمون به هو أنهم فى يوم ما سوف يشترون أن يرثون أو يجدون أو يسرقون ، أو يحصلون على أرض ، أرض أرض ، ومن الارض يحصلون على الارز ٠

فسألت : « هل أصبحت كيم سيوم جاسوسة للتخلص من الفقر ؟ » فأجاب القسيس : ربما ، ثم أدهشني عندما أضاف قائلا : « اننى أعجب بالديمقراطية وأحترمها ولكننى أعلم أن هؤلاء الكوريين لا يمكن أن يأكلوا الديمقراطية ؟ فهم يستطيعون تناول الارز ، ويطالبهم الروس بالسرقة والقتل للحصول على الارض ، وبذلك يحصلون على الارز ٠

وفى الواقع عرفت الكثير عن كيم سيوم ــ أكثر مما كنت أود معرفته ، فقد كانت عشيقة لمقدم أمريكى بمدينة سيول وقد تسببت صلته بها فى تقديمه الى مجلس عسكرى تقريبا ، واننى أعرف الحقائق الكاملة عنقضية الجاسوسية ولكننى لم أكن أعرف سوى القليل عن مأساتها الانسانية والبيئة التى تعيش فيها عائلتها ٠

وقد سجلت فى ملفات الجيش المغلفة بالاتربة أطلق عليها اسم ، « طبيبة الحب المغواة » ، كانت كيم فتاة شرقية جميلة ، وحتى عام ١٩٤٢ لم تكن السياسة تعنى شيئا بالنسبة لها ، فكل ما كانت ترغب فيه هو ألا تعود أبدا الى الفقر الذى يعيش فيه أبواها ولا الى جهلها وبؤسهما ، وفى سنة ١٩٤٢ قابلت شيوعيا لاول مرة فى أثناء اجتماع وطنى عقد بمدينة سيول ، وكان كورى وسيم يدعى لى كنج كوك ٠

وأغراها كوك بعد برهة وجيزة من مقابلتهما فهامت به ، وعندما وجد كوك الرغبة الجنسية متأججة فى عينيها استجاب لها ، وبالاضافة الى الحب وجد الرفيق كورك كيم قدرات أخرى فقرر أنها تستطيع أن تكون جاسوسة شيوعية رائعة ٠

قال لها : انك فتاة متعلمة ومدربة على يد رجال الكنيسة ولن يتطرق الشك الى أحد أنك جاسوسة شيوعية ، وكانت تعمل فى أثناء تلك الحقبة فى مدرسة طب الاسنان بكلية « سيفيرانس » والتحقت بتشجيع من لى بالفصول المسائية بمدرسة خاصة للجاسوسية لتخريج العملاء الشيوعيين وكان هذا المعهد يسمى هزلا « جامعة ماتا هارى الحمراء » ٠

وأخرجت « مدرسة السحر الحمراء » فيضا متدفقا متصلا من الجاسوسات النساء اللائى يعملن لحساب الحركات الشيوعية فى الصين واليابان والملايو وبورما وسيلان وكوريا وأندونيسيا ٠

وقامت المدرسة من الناحية الرسمية بالعمل كمنظمة سرية ضد اليابان ، فى الحرب العالمية الثانية ، الا أن العقول الكامنة وراء الخطة ، كانت تنوى استغلال هؤلاء العملاء من خريجى الجامعة فى الصراع من أجل السلطة فى نهاية الحرب عندما يصاب العالم الرأسمالى بالشلل ، أو الاضطراب فى فترة الانتقال بين الحرب والسلام ٠

وكان الستار المحبب لهذه المدرسة : « **انهاء الاستغلال** » **وانهاء الجوع** » **وآخر : « الحرب ضد القصور والسلام من أجل الأكواخ** » ٠٠ وقد ألهبت هذه الشعارات حماس عدد كبير من الطلبة الآسيويين الشبان

وكان من بين طلبة جامعة ماتا هارى الحمراء فى مدينة سيول طالبات مثل كيم قيل لهن انه يمكن عن طريق الجنس ايجاد فرصة للحصول على الاسرار من الرجال ، فتعلموا وشجعوا على « **الدعارة من أجل الهدف** » ٠

فتضمن البرنامج الذى يدرس للنساء على سبيل المثال :

١ ـ استعمال المخدرات ٠

٢ ـ قواعد الصحة العامة والعناية بالبدن ٠

٣ـ منع الامراض السرية ومنع الحمل ٠

٤ ـ كيفية دس السم للضحايا ٠

٥ ـ كيفية التخلص من المتسكعين وراءهن ٠

٦ ـ كيفية استعمال القطرات السائلة التى تؤدى الى الموت ٠

وتعلم النساء أنه لا بد لهن من اقتحام حجرات ضحاياهن والاطمئنان الى نومهم ثم تفتيش جيوبهم ومكاتبهم وحجراتهم ، وتعلم أشباه ماتا هارى بعيونهن العسلية فن التصوير واستعمال الميكروفيلم واستعمال آلات تصوير استخدام الراديو ذا الموجة القصيرة واستعمال الشفرة ٠

ونجد نموذجا من تعاليم كيم الجديدة في خطاب بعثت به الى لى بلغة سرية متفق عليها من قبل وجاء فيه مثلا أن :

- **محل شاى** : يعنى مكان الالتقاء لتسليم المعلومات ٠
- **ضوء الشمس** : يعنى أنه على الطريق الصحيح ٠
- **كلمة الكسب** : تعنى الحصول على أخبار هامة ٠
- **كنيسة سانت مارى** : تعنى بارجة العدو ٠

ولقد تعلمت كل ذلك فى المناهج السرية لاعداد جواسيس المستقبل بكوريا الجنوبية ٠

ومع ذلك فقد فشل معلموها فى تعليمها أن اثنين من كل ثلاثة جواسيس يلقون حتفهم على غير فراشهم ، وهذا درس تعلمته بنفسها ، ولكن بعد فوات الاوان ، واستمر التدريب فى يسر وكان الاجر الاضافى جيدا وبدا أن لدى الشيوعيين الكثير من المال لتوزيعه وجاء بعد ذلك أول مهمة من مهام كيم سيوم فى التجسس :

فتظاهرت بأنها تعمل فى التبشير ، وتحولت الى الدين حديثا وأخذت تحبى الامريكيين فى نهاية الحرب العالمية الثانية وهم يزحفون الى كوريا لتحرير البلاد من الاحتلال اليابانى ، فكانت عضوة بلجنة الترحيب بالمنقذين الامريكيين ، وكان تقف جانبها عدة اعتبارات ، **فهى مبشرة مدربة تتحدث الانجليزية جميلة ، دمثة** ، وقد جذبت هذه الصفات عددا كبيرا من الضباط الذين شعروا بالوحدة ، **وكان قد طلب منها ألا تضيع** كثيرا من الوقت مع **ضباط الصف** بل عليها أن تركز اهتمامها **بالضباط** فقط ، **وضباط أركان الحرب** اذا أمكن ٠

ولم تكن كيم سيوم معروفة فى الليل فقط بل بلغت مركزا أهلها لان تعمل فى وظيفة الاستقبال التليفونى فى مركز القيادة العسكرية للولايات المتحدة بكوريا ، الكائن بفندق مانتو المشهور ، وكانت أكثر من سعيدة عندما وجدت هذه الوظيفة الرائعة ، وبالمثل كان حبيبها لى وكذلك العاملين فى المخابرات السرية الصينية والروسية ، فأخذت كيم تستقبل كل زائر وتستمع الى كل محادثة تليفونية الى طوكيو أو الى واشنجطون ، وبذلك كان يتسنى لحبيبها الشيوعى أن يعرف الكثير فى خلال ساعات عما يدور فى داخل مركز القيادة ٠

وبعد ذلك هام مقدم فى مركز القيادة بها ، وهو موقف ظهر أنها تقبلته فى تواضع وبكل ما فى المرأة الشرقية من سحر ودلال ، وحاول حاميها والمحسن اليها أن يزودها دون قيد أو شرط بأغلب الحقائق الهامة ، وقامت كيم بدورها بنقلها الى السوفييت ، فنقلت اليهم الاختلافات فى السياسة بين الجنرال ماك آرثر والرئيس ترومان ، وأعظم كسب لها كانت المعلومات التى مؤادها أن الولايات المتحدة قد رفضت عبور نهر يالو وأنها ترغب فى الوقوف عند خط العرض ٣٨ ، وبقيت كيم فى مقر القيادة بسيول لفترة تقرب من العام ، وكانت أفضل جاسوسة يطمح اليها الروس ٠

وتطورت الامور الىأحسن بالنسبة لكيم ، لان الكولونيل المتلهف دائما على اسداء العون لها فى مقابل خدماتها الليلية وضعها فى أعلى درجة من حيث الاجر ، فقد نقلها الى مكتب البوليس الحربى داخل قسم المخابرات المضادة ، وهى وظيفة مكنتها من نقل صور التقارير بل وتصدير أهم الوثائق السرية ، ولم يتسنى الا للقليل من الجاسوسات الحصول على مثل هذه الوظيفة فى آسية ٠

وأخذت كيم سيوم مثل ماتا هارى الحقيقية بمعاونة عشيقها الامريكى فى الاحياء الراقية فى شارع الملك جاد وتسرى عن الضباط الامريكيين والكوريين واليابانين والصينيين وضباط الامم المتحدة فى سخاء ، وعلى الرغم من نشاطها فى عالم الحب ولمعانها الاجتماعى لم تتحرك عائلتها من منزلها التعس وعلى الرغم من النقود والاطعمة التى كانت ترسلها لهم ، وقد ساعد أصلها على دفع الشكوك عنها ، فلا يمكن أن تكون خطرة على الامن فكانت ترتدى أفخر الملابس ، ولكن بدون مظاهر التخمة المالية وأقنعت هذه الحقيقة بالاضافة الى حقائق أخرى ضباط مخابرات الولايات المتحدة

الامريكية ، بأن مخبرها لا يخالف مظهرها فهي بالنسبة لهم العشيقة المحببة لزميلهم المقدم الذى يقيم فى أرض أجنبية ، وقد نجحت فى اخفاء أن منزلها قد تحول الى مركز للتجسس لحساب الشيوعيين داخل مدينة سيول ، وبدون علم أى انسان تلقى عددا أكبر من الجواسيس تدريباتهم تحت سقفها ، وأرسلوا الى أماكن أخرى ، وبعد القاء القبض عليها وجدت معدات مختلفة للتجسس تبدأ من أوراق نقدية أمريكية الى نشرات اسبوعية، وأجزاء من أجهزة الارسال على الموجة القصيرة والشفرات ومعمل تصوير فى بدروم المنزل ٠

وأخيرا جاء اليوم الذى غادر فيه عشيق كيم الامريكى كوريا ، فظهر عليها الاسى والحزن ومع ذلك فقد أكثر نساء كوريا معرفة ونبوغا فى سيول وعلى ذلك صدرت اليها الاوامر من جانب الشيوعيين بالتجسس على حكومة سيجمان رى وعلى جيشه وعلى اتفاقاته السرية مع واشنجطون ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد قبض عليها بعد فترة قصيرة من رحيل عشيقها ، فقالت « اننى بريئة » فرد عليها الكوريون فى غلظة : « لقد كنا على علم بنشاطك منذ مدة طويلة الا أن بعض الاصدقاء الامريكيين من أصحاب المناصب والنفوذ قد فرضوا حمايتهم عليك وكان علينا أن نتجنب الفضيحة والآن رحل الامريكى وأصبحت لدينا حرية العمل ٠

وفى يوم ٨ من يونيو سنة ١٩٥٠ واجهت قضاتها وكانت أكبر التهم هى التجسس والسرقة والتآمر والخيانة ضد الولايات المتحدة ثم جاءت بعد ذلك فى عريضة الاتهام ستة وعشرين جريمة أصغر من ذلك ضد جمهورية كوريا ٠

وفى يوم ٢٨ من يونيو سنة ١٩٥٠ نفذ حكم الاعدام فى كيم سيوم ٠

١٤

خائنة ذات ضفيرة طويلة

ان الطريق الى الخيانة لا يستهوى المتخاذل لان له سحرا يسيطر على أصحاب العقول الرومانتيكية وخاصة الشباب والذين يمكن التأثير فيهم ، لقد شاهدت عددا كبيرا من الشابات الجميلات وقد وقعن فى مخاطر الجاسوسية الشيطانية فأسطورة ماتا هارى لا زالت حية فى الاذهان بسحرها أكثر منها بمآسيها وكلما القيت محاضرة يصبح من المؤكد أن تأتينى طالبة من طالبات الكلية بعد ذلك وتسألنى فى جدية عن كيفية الالتحاق للعمل فى المخابرات السرية كما لو كانت هذه الوظيفة تفضل جميع الوظائف الاخرى ٠

وهناك قضية من بين جميع القضايا التى عرفتها لم يلعب السحر فيها ولا الرغبة لركوب المصاعب المثيرة التى تعترض طريق الخائن أى دور من أدوار الاقناع ٠

ففى أحد الايام أثناء جلوسى فى قاعة محكمة من محاكم مدينة سان فرانسسكو أتابع محاكمة ايفا توجورى التى تبلغ الثالثة والثلاثين من العمر ظهر أننى فهمتها من نظرة واحدة ، اذ من الواضح أن الفتاة كانت خائنة لا لسبب سوى أن هذا هو كل ما كانت تستطيع القيام ، فالخيانة كانت بالنسبة لها مجرد وظيفة لا تدر عليها كثيرا من المال ولكنها تكفى لكسب قوتها ٠

ولم تكن هناك فكرة عميقة تكمن وراءها اذ عرض عليها انسان ما فى اليابان وظيفة فقبلتها ، وكانت الحرب مشتعلة وعجزت عن العودة الى أمريكا ، وشعرت بحاجة شديدة الى المال ولو أنها لم تقبل الوظيفة لوضعت فى معسكر من معسكرات الاعتقال كمواطنة من مواطنى الاعداء فبدأ الامور كلها مربكة لها فماذا تعرف هى من علوم السياسة ؟ لا شىء فقد كانت

شغوفة بالمسرح والانتاج الصوتى وكانت تحب دراستها في جامعة كالبفورنيا بمدينة لوس انجلوس فهى مواطنة أمريكية من سلالة يابانية قبل ذلك بجيل ٠

وفي سنة ١٩٤١ تلقت دعوة بالسفر الى اليابان لان عمتها المريضة وعمها يعيشان فى طوكيو وكانت ترغب فى مشاهدة اليابان ولم تكن أمريكا قد دخلت الحرب بعد على الرغم من أن وزارة الخارجية قد نصحت جميع الامريكيين بعدم السفر الى اليابان ، وكانت قد ذهبت الى حد عدم اصدار جوازات سفر للراغبين لذلك سافرت ايفا الشابة بدون جواز سفر ثم بعد ذلك وجدت نفسها فجأة تواجه الحقيقة المرة وهى أنها لا تستطيع العودة الى أمريكا ، لان الفرصة الاخيرة قد فاتتها بابحار آخر باخرة ٠

وفي الوقت الذى كانت تبحث فيه عن وسيلة للسفر الى أرض الوطن لوالديها اللذان كانا يديران متجرا للبقالة فى شيكاجو سقطت القنابل عن بيرل هاربر وبدأت الحرب ، وسار أبناء الشمس المشرقة طبقا لمبدأ آسية للآسيويين تحت سيطرة ديكتاتورية يابانية ٠

وقالت : « لم أستطع تصديق ما حدث وأصبت بذهول لبضعة أيام ثم ألقى على القبض بواسطة اليابانيين كمواطنة من مواطنات الاعداء على الرغم من اطلاق سراحى بعد ذلك » ٠

اشترت ايفا حريتها بالثمن ، وبثمن غال هو الخيانة وأصبحت طالبة الجامعة سابقا معروفة حينئذ لكل جندى فى المحيط الهادى بأنها وردة طوكيو ٠

وتسمت فى البداية باسم آن وهو اختصار كلمة مذيعة ثم غيرت اسمها بعد ذلك الى اليتيمة آنى زميلتك فى اللعب » وأخذت تفتتح اذاعاتها بالالفاظ الاستفزازية « مساء الخير ثانية للرجال المنسيين المحاربين الامريكيين ٠٠ » ثم تتخلل الدعاية اليابانية بعض الاغانى الراقصة والشعبية ٠

وكان أجرها فى البداية ضئيلا جدا فلا يزيد على ١٠٠ ين أى ٦ دولارات فى الاسبوع ٠٠٠ وهو مبلغ لا يكفى للمعيشة ثم رفع أجرها عقب ذلك الى ١٤٧ ين ٠

وتدعى ايفا أنها أجبرت على هذا العمل وقد قصت قصة حب كذلك لان الرجل الذى أجبرها على هذا الدعاية الخائنة كان مغرما بها للغاية ، وأنها لم تجرؤ على رده فكانت القصة القديمة البالية ٠٠ سارت ايفا فى أسهل الطرق التى رسمها القط أمامها ومثلما فعلت نسوة كثيرات فى حروب عديدة ٠

وقالت ايفا أنها كانت مجرد عاملة صغيرة عليها قراءة المخطوطات وادارة الاسطوانات ، أما ما عدا ذلك فقد كان يكتبه الكابتن تشايس كازنز الاسترالى الذى وقع فى الاسر بسنغافورة وكابتن آخر بجيش الولايات المتحدة يدعى اينس ٠

وفى باكورة حرب الباسفيك كانت اذاعات وردة طوكيو تلقى اقبالا هائلا ، وكانت جديدة بالنسبة للجنود الامريكيين الذين لم تستطع أجهزتهم التقاط المحطات الامريكية فكانت أفضل ما يمكن أن يسمعونه بعد محطاتهم وكانت هى واليابانيون يعرفون ذلك ٠

فالجنود كانوا متعطشين الى سماع الموسيقى الراقصة الامريكية ، فاعطتهم وردة طوكيو اياها ، فأخذت تتوالى دعايتها وأحاديثها المدمرة وقد أعدت اعدادا جيدا من جانب الذين يحفرون قبر الديمقراطية وفى مرة من المرات عندما كان رجال البحرية يعملون فى جد ونشاط فى مطار على جزيرة مارشال بدأت وردة طوكيو اذاعتها وذكرت الجزيرة وأخطرت الجنود بأنهم سيعرضون للقصف بالقنابل سريعا وقالت : « فى سركم يا رجال ان مكانكم معروف » وأنهت اذاعتها بضحكة خبيثة ٠

وفى يوم ١٤ من يونيو سنة ١٩٤٤ بدأت اذاعتها بلغتها الامريكية الدارجة وسمت نفسها « عدوتكم المحبوبة اليتيمة آنى » « مرحبا يا رجال ان صديقتكم القديمة تناديكم ، لقد أحضرت لكم بعض التسجيلات الجديدة، وقد وصلت لتوها من الولايات المتحدة ، والافضل أن تستمتعوا بها فى كل فرصة تواتيكم لأنكم ستهاجمون سيبان فى الغد الساعة ٦٠٠ ونحن على استعداد لمقابلتكم وعلى ذلك هنا اسمعوا وأنتم على قيد الحياة » ٠

وتبع ذلك اذاعات أخرى على نفس النهج وفى أثناء ساعة الصفر لنزول الامريكيين فى الباسفيك قالت « أنتم يا رجال الباسفيك اذا كنتم تتوقعون العودة الى الوطن فالافضل لكم أن تعودوا الآن ألم تسمعوا أن الاسطول قد أوشك على الضياع ؟ .

لست أدرى مع من خرجت زوجاتكم وحبيباتكم هذه الليلة ؟

لقد فقد الامريكيون جميع سفنهم فى خليج ليتى ولا يدرون كيف السبيل الى العودة الى الوطن .

ولابد وأن كان كل خائن وكل جاسوس على يقين من انتصار قوات المحور فعجزوا عن التفكير فى المستقبل .

وكانت ايفا متأكدة من عدم افتضاح أمرها على الاطلاق.

وقد كانت هناك نسوة أمريكيات وكنديات أخريات يؤدين هذه الاذاعات كذلك وكان اذاعتها واحدة من سبعة . وبعد يوم النصر عندما كانت جالسة فى قاعة طعام فندق بند الحديث بطوكيو كشف أمرها اليابانيون كما كشفها صوتها وحديثها المعسول ، فجلست بملابسها التى تشبه ملابس الفتيات الصغيرات المراهقات وعيونها الواسعة وابتساماتها الحائرة أمام الجنود الامريكيين الثلاثة الذين قبضوا عليها فقالت « اننى بريئة اننى لم أفعل شيئا » ، وأخذت تنظر وتتصرف تصرف بنات المدارس فقال جندى بعد ذلك « لو ظهرت على شاشة التليفزيون لما ظلت أسبوعا واحدا » انها لم تستطع أن تصدق أنها أتت فعلا خاطئا .

شهد كلارك لى وهو مراسل حربى سابق فى المحاكمة أنه عندما تقابل مع وردة طوكيو فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٥ سألها اذا كانت لم تشعر بخطئها باذاعتها دعاية للاعداء أجابت لم أكن أحس بأى احساس معين تجاه ذلك » ومن المحتمل أنها قالت الصدق عندما قالت للمراسل « كنت فى حاجة الى المائة ين الاضافية التى دفعوها لى » .

وقدمتها حكومة الولايات المتحدة للمحاكمة بتهمة الخيانة أثناء الحرب وكان من المحتمل أن يصدر عليها الحكم بالاعدام ، ومع ذلك فقد عجزت عن ادراك مدى أهميتها ، وقال شقيقها فريد « لم تكن تعرف شيئا عن كل ذلك حتى شاهدناه فى الصحف وعلى كل حال فهى مجرد طفلة » .

استمرت المحاكمة اثنى عشر أسبوعا وجمعت الحكومة ٢٠٠ مليون كلمة للاثبات ودفعت ٧٥٠٠ جنيها لنقل سبعة عشر شاهدا بالطائرة ، من اليابان ومنهم حتى كبار الضباط اليابانيين وكانت الادلة هائلة .

ومع ذلك أصرت ايفا على اعتبار نفسها بريئة وعلى أنها أجبرت على قبول الوظيفة ، وأنها لو كانت تريد أن تكون خائنــة لقبلت الجنسـية اليابانية ، فهى لم تحاول بالمرة اضعاف روح الجنود الامريكيين المعنوية ، كما أنها لم تذع روح الانهزام أو الاكاذيب أو الرسائل المرسلة بالشفرة السرية وفضلا عن ذلك فقد تزوجت من برتغالى فى سنة ١٩٤٥ وأنهـا أصبحت حينئذ مواطنة برتغالية وهى بصفتها أجنبية لا يمكن أن تكون مذنبة بجريمة الخيانة ضد الولايات المتحدة ، فكان دفاعا مضطربا كدفاع الطفلة الصغيرة التى دفعت الى الخيانة دون أن تعلم .

وعندئذ أعادت الحكومة ادارة تسجيلات اذاعاتها وقد أخذ الدفاع بهذا على حين غرة ، لانهم لم يكونوا يتوقعون ذلك وامتلات قاعة المحكمة بجو الحرب ، وبعد أن قالت الوردة أنها غير مذنبة وأنها لم تؤذ أى انسان بكلامها رددت التسجيلات كلماتها بحذافيرها القاسية « أيتام المحيط الهادى .. كيف ستعودون الى الوطن .. والآن بعد أن غرقت جميع سفنكم » ثم بعد ذلك الضحكة الفظة القاسية فى النهاية .

وأخذ تسجيل وراء تسجيل يثبت الجريمة الخيانة الحض على الثورة ، واثارة الاحقاد العنصرية ، وحاولت أن تغرى الزنوج بقولها أنه لم يجب عليهم أن يموتوا فى سبيل البيض ذلك الروتين الفاشستى القديم .

ومع ذلك فقد ظلت سمات البلاهة على وجه ايفا فأشارت المحكمة الى أنها لم تكن وحدها فى تلك اللعبة والى أن ست أخريات كن يساعدنها ،

وكانت هناك كذلك أكسيس سالى وميلرد اليزابيث جيلارز التى فعلت نفس الشيء فى ألمانيا النازية فهذه هى الخيانة ، وأن محاكمتها هى بسبب الخيانة ، وفى النهاية ترك الامر كله الى المحلفين ·

رفعت الجلسة للمداولة التى استمرت مدة طويلة ولم يعد لوردة طوكيو ضفيرة الشعر الطويلة ، وكانت ترتدى فستانا فاتح اللون وقميصا من أقمصة الرياضة ونظرت الى المحلفين متسائلة عندما عادوا الى قاعة المحاكمة هل سيحكمون عليها بالاعدام ؟ لا يمكنهم وحتى آخر دقيقة كانت متأكدة أنها ستنال حريتها لأنها أجبرت على قبول الوظيفة وزيادة على ذلك فان كلماتها على موجات الاثير لم تتسبب فى قتل أحد وأن الامر كله كان لعبا فى لعب ·

وصدر الحكم وكان صدمة لها وهو يقضى بحبسها عشرة سنوات وتغريمها ١٠٫٠٠٠ دولار ·

فصرخت « لا هذا مستحيل ·· لا أستطيع أن أصدق أنهم سيرسلوننى الى السجن ·

ولكنهم فعلوا ···

١٥
أعظم جواسيس العم سام

يطيب لى أن أقص قصة الرجل الذى أنقذ حياتى سنة ١٩٤٠ عندما استولى هتلر على باريس ٠

فلقد اندفع الناس فى كل مكان وانتابهم الخوف والفزع لانها كانت أياما مروعة ، ولم يكن أحد يدرى كيف تنتهى ولم أكن على يقين من أنى أنا أو عائلتى سوف نواجه أهوال معسسرات اعتقال هتلر ، فالموت كان يطبق على كل هؤلاء الرجال الذين كانوا يعتزون بالحرية ، وكانت زوجتى هيلدا قد لحقت بى فى السويد بعد أن أطلق سراحها من سجن نازى وأطلقت من صحبة السيدات الارستقراطيات اللاتى تم اعدامهن على اعتبار أنهن جاسوسيات بولنديات ٠

وكنت قد عملت كمراسل أجبنى بالعاصمة السويدية وعند نشوب الحرب لم أستطع الاحتفاظ بحيادى فى هذا الصراع بين الديكتاتوريين الطائشين والاحرار من الرجال وذلك الرغم من حبى للسويد ٠

فانغمست تماما فى النشاط السرى بالسويد وكان الالمان على علم بذلك وطلبوا من الحكومة السويدية اما ترحيلى الى ألمانيا النازية ٠ لقد تركت بلدى النمسا منذ كنت فى السادسة من عمرى ــ واما وضعى فى معسكر من معسكرات اللاجئين بالسويد طوال مدة الحرب ٠

وقد ألقى على القبض فى السويد ، وأدركت أننى فى خطر ماحق فحجرات النار بألمانيا فى انتظارى ولكن انقشعت الغيوم فجأة ولتدخل بعض الاصدقاء السويديين الرحماء استطعت مقابلة الرجل الذى انقذ حياتى وهو وليم وارويك كوكوران أول قنصل أمريكى عام يعين فى جوتنبرج وقد أطلق على كوكوران اسم الجاسوس الامريكى رقم ١ ٠

كان هذا الرجل الفذ هو الذى أنقذ مدينة لندن باكتشافه مواقع الصواريخ «٧» ومركزالقنابل المجنحة فى بنينومند على ساحل بحر البلطيق وكان هو الذى استطاع بضربة معلم اكتشاف مخبأ وزير خارجية النازى يواكيم فون روبنتروب والذى يعتبر مسئولا عن أعتقاله ٠

ولقد أصبح القنصل الذى كان يعالج موضوعات التأشيرات وحالات الزواج والمواريث صليبيا من أجل الحرية ، وواحدا من أفضل جواسيس العم سام وسوف يبقى دائما فارسا بالنسبة لى ، فارسا أمريكيا فى درع براق ٠

ولكن لنبدأ من البداية جاء بيلى كوكوران المحرر السابق لصحيفة الواشنطون بوست الى السويد سنة ١٩٣٦ ، وكان قنصلا روتينيا ودبلوماسيا خدم بلاده فى نصف أقطار العالم تقريبا ، فخدم فى كلكتا وبومباى ومدراس ووارسو والجزائر وجبل طارق وجاميكا واسبانيا ، وكان يعترض بشدة على تسميته بالجاسوس ، فهذا لم يكن أى شىء سوى شخصية دبلوماسية ولا يمكن أن تغير أية قصة صحفية تصنع منه أعظم ضابط من ضباط مخابرات أمريكا من فكرة القنصل كوكوران عن نفسه ٠

وسكان السويد ـ وهى دولة شاسعة فى مساحتها ـ ولو على الاقل من ناحية المستوبات الاوروبية لا يزيدون عن ستة ملايين ونصف المليون ، وقد سمع جميع الشخصيات العاملة والعامة عن بعضهم البعض ، وعلى ذلك فقد ألم بيلى كوركوران بكل ما كنت أفعله فى السويد ، وكان مشيبنا بالطبع من وجهة النظر النازية ، وعلى ذلك ليست هناك غرابة فيما كنت فيه من متاعب ٠

وكنت قد كتبت كتابا عن رئيس هيئـة أركان حرب القوات الجوية الالمانية هيرمان جورنج فطلب مارشال الجو من الحكومة السـويدية منع نشرة ، لاننى كشفت النقاب عن حقائق فىجلسات محكمة فى قضية عائلية اقتضت أن يذهب جورنج الى عيادة من عيادات الاعصاب بسبب ادمانه المخدرات ٠

وبعد ذلك امتلكت أسهما فى مطبعة فى ستوكهلم وكنا نقوم بطبع نشرات ترسل الى ألمانيا بالسفن لتوزع سرا واشتركت كذلك اشتراكا

ايجابيا في تحرير صحيفة موالية لبريطانيا ومناوئة لالمانيا تدعى Trots Allt ، وأخيرا انضممت الى بوليس السويد السرى حتى أستطيع حماية نفسى فى عملى مع المخابرات السرية البريطانية ٠

وكان السويديون والبريطانيون على علم بذلك وكان العمل جماعيا رائعا ، وقد عرف القنصل الامريكي كوركوران هو الآخر بذلك ، وعندما قابلته ابتسم ولم ينبث ببنث شفه وبالطبع لم أرى على الاطلاق تقارير ببلى عنى ٠

وفجأة ظهرت بين عشية وضحاها آلاف الكتب والنشرات المعادية للنازية في السويد ، وكانت ترسل بالبريد كل يوم سبت عقب انتصاف النهار بوقت وجيز ، فأخذت النشرات طريقها الى الضباط فى جيش السويد والى المدرسين وأعضاء الاتحاد وربات المنازل مطالبة اياهم بمقاطعة البضائع الالمانية ، وحملت بين ثناياها تحذيرا من نوايا هتلر الحقيقية ، وطلبت من السويد المحايدة أن تظل على حيادها والا تنضم الى أو تساعد النازيين ٠

وفى صباح يوم من أيام الاثنين ظهر مبعوث من مبعوثي السفارة الالمانية فى وزارة العدل السويدية وطلب مصادرة المطبوعات الصادرة من دار النشر للحرية والديمقراطية التيقامت بطبع النشرات والتى أعتبر نفسى مسئولا عنها ٠

وفى الحادية عشرة من صباح الاثنين اسبوعا تلو اسبوع كان البوليس السويدى يظهر بالمكتب ويصادر نشرات الاسبوع السابق التى كنا نحتفظ بخمسين نسخة منها لهم ، وبالطبع نكون قد أرسلنا عشرين ألف نسخة بالبريد يوم السبت وهذه لا يمكن العثور عليها ٠

هاجت ألمانيا ولم يحس السويديون بطعم الراحة على الرغم من أن الامور كانت تسير سيرا قانونيا تماما ، وفى النهاية لجأ النازيون الى الشدة وطلبوا اتخاذ اجراءات حاسمة ضدى وبالطبع أبلغت النبأ بواسطة أصدقائى داخل البوليس السياسى فى استكهولم ، وظل السويديون على تململهم وأخبرونى أنه اذا استمرت الحرب فى غير صالح الحلفاء فقد يتعذر عليهم حمايتى أكثر من ذلك ٠

فراديو كونجزبرج يذيع يوما بعد يوم بأننى من مروجى الحرب واننى أود الزج بالسويد فى آتون الحرب الى جانب الحلفاء وأنه لابد من ايقافى والا فسيجد الالمان وسيلة لوقفى .

ازداد الموقف حرجا وأطلق النازيون على اسم الجاسوس الفذ والعميل السرى والخائن وأدركت أن أيامى فى ظلال الحرية قد أصبحت معدودة فنصحنى أصدقائى فى الحكومة السويدية بالذهاب الى بريطانيا .

ولكن كيف ؟ فالسويد محاطة ببلاد محتلة وهى الدانمرك والنرويج وكانت البعثات الالمانية قد تواجدت فى فنلندا فعلا ثم أن روسيا مغلقة أمامى منذ قابلت تروتسكى فماذا أصنع ؟

ذهبت لمقابلة كوركوران الذى لم أكن أعرفه حينئذ ومن المؤكد أننى لم أكن قد كونت أية فكرة عما يقوم به بالاضافة الى عمله فى القنصلية ، الا أن المرحوم تورجنى سجرستيدت عميد الصحافة فى السويد أرسلنى الى بيلى على أساس أنه الملاذ الاخير .

وكان من الممكن أن أفعل أى شىء الا اسالة الدماء لاننى عرفت أن عددا لا يحصى من اللاجئين فى كل جزء من أجزاء أوروبا يحنون الى الامان على ساحل أمريكا دون أمل فى الحصول على تأشيرة فأردت الخروج من السويد والوصول الى بريطانيا عن طريق أمريكا .

قصصت قصتى على بيلى فلم يظهر مشاعره على الاطلاق ولم يفصح عن معرفته لموضوع النشرات المصادرة أو عن نشاطىء الآخر ، وعندما انتهيت من الكلام قال لى « سوف أساعدك ، لقد كنت فى اسبانيا وشاهدت قوات فرانكو تقبض على العشرات من الابرياء من الرجال والنساء والاطفال ، وانى أعلم ما هى الفاشستية ولهذا سوف تسافر الى أمريكا .

حدثت معجزة وانجز هذا الرجل بعينيه الحادتين وقامتـه المنتصبة وشعره الاشيب والذى بدا لى كامريكى مثل فطيرة التفاح فى ركن من أركان متجر أمريكى أنجز هذا الرجل وعده .

ونظرا لخروج بيلى كوركوران من الخدمة العاملة فى سنة ١٩٤٦ فانى أعتقد أن الممكن سرد قصته المذهلة أو جزء منها على الاقل .

ولد في واشنجطون العاصمة يوم ٥ من سبتمبر سنة ١٨٨٤ وكانت أمه الالمانية الاصل تدعى كاترين فون مير وربما يكون قد تعلم على يدها ولم ينسى أبدا أن العسكرية البروسية كانت تعنى دائما الكارثة بالنسبة لالمانيا وللعالم ٠

وكان محررا مكافحا فى واشنجطون من سنة ١٩٠٥ الى سنة ١٩١٦ وهنا لم يظهر تماسكا فى شخصيته فقط بل حماسة منقطعة النظير فى تصحيح الاعوجاج ، واتجه بجميع جوارحه الى نصرة صغار الرجال والمطلوبين على الرغم من أنه ينحدر من أسرة غنية محافظة بواشنجطون ، ومر عليه وقت كان يمتلك فيه ثروة ضخمة ، وكان جده يمتلك عقارات قيمة على الجانب الشرقى من أرض الكابيتول ٠

التحق كوركوران بالسلك السياسى ووراءه أعظم سند ممكن وذلك بعد تخرجه فى كلية الحقوق بجامعة جورج تاون ودرس كذلك بجامعة ليل بفرنسا ثم أنه يتحدث الفرنسية كفرنسى وهذه موهبة نادرةفىأى دبلوماسى أمريكى ٠

مات أبواه فى وقت مبكر للغاية ، فامتلك بيلى الثروة فجأة فأنفقها عن بذخ على هوايات مثل الخيول والسيارات والقوارب واليخوت وأصبح رجلا مرحا محبوبا فى المدينة ٠

وتأثرت حياته بصفة أساسية ثم تحولت بعد ذلك عندما تقابل مع راهبة كاثوليكية أصبحت فيما بعد أمه بالتبنى فيقول عنها تعلمت على ركبة أمى بالتبنى ــ رغم أننى أذكر أننى لم أكن كاثوليكيا ــ مجموعة بسيطة من القيم الاخلاقية حاولت بموجبها أن أعيش على هديها ولكننى فشلت مرات كثيرة ٠

تلاشى معظم ما ورثه عندما عرض عليه بيل سيرجيون المحرر الاسطورى فى صحيفة الواشنجطون بوست وظيفة كمخبر فى مقابل خمسة عشر دولارا فى الاسبوع وخمسة دولارات لمصاريفه اليومية فقبلها بسرور ، وكانت بمثابة دخول عالم جديد أو على الاحرى عالم مستور سرى ، عالم اللصوص والساسة من السفلة ، وكانت مهمة بيلى هى البحث عن دليل لوضعالاصابع علىالمتهمين فكانتمهمة مثيرة وخطيرة، فأصبحمكروها وموضع خوف من جانب الذين يعرض بهم ، الا أنه كان محترما ومعترفا به فيما عدا

ذلك ومن جانب كبار رجال الدولة والصحافة ، ومن بينهم وليم د· هاسيت السكرتير بالبيض الابيض لكل من الرئيس روزفلت والرئيس ترومان وكذلك دافيد لورنس الصحفي المشهور وقابل الرئيس ويلسون وفرانكلين روزفلت الابن عندما كان لا يزال وكيلا لوزارة البحرية ٠

ولم يستطع كوركوران أيضا أن يظل على الحياد عندما حدث الاصطدام بين العسكرية البروسية والديمقراطيات الغربية فى الحرب العالمية الاولى فترك وظيفته فى واشنجطون وانضم الى الفيلق الفرنسى الاجنبى وعندما دخلت أمريكا الحرب أصبح برتبة ملازم أول فى قوات الحملة الامريكية وفى سنة ١٩١٩ نجده فى كوبلنز محررا لصحيفة الجيش الامريكى آمروك بوز ثم تم الاستيلاء على كوبلنزر نسيتونج بعد ذلك وحولها كوركوران الى صحيفة يومية للجنود الامريكيين ، وفى نهاية الحرب عندما سرحت الجيوش تسلم كوركوران أوراق تسريحه وشهادة بأن مقدرته ٩٠٪ ٠

وكان قد منح صليب الحرب وفى سنة ١٩٢٠ أهداه الفرنسيون مدالية الشجاعة ومنح ذلك الوسام الاخير لانقاذه حياة طفل فرنسى عمره تسع سنوات وقع من فوق حاجز باخرة من عابرات بحر المانش ، وكان كوركوران نفسه يسافر عليها ، وكان يوما باردا ملء بالثلوج ولكنه فى خضم الاضطراب والارتباك قفز بملابسه الكاملة الى البحر الهائج وأمسك بالطفل ورفعه الى أعلى حتى ألقوا له حزاما من أحزمة الانقاذ ومرت ساعة تقريبا قبل أن يتسنى سحب المنقذ والمنقذ الى بر الامان ٠

وقد قال عن هذا : « اليوم وبعد أكثر من ثلاثين سنة أحس بأن أعظم ما يرضى النفس فى الحياة ليس فى القيام بأعمال تتسم بالشجاعة لمجرد الرغبة فى القيام بها ولا حتى لمجرد اطلاع الزملاء من الرجال على أن الاعمال الشجاعة هى خير فى حد ذاتها لان أعظم درجات الرضى النفس تأتى من محاولة مساعدة الغير ولا سيما عندما يكون أو تكون فى حاجة الى هذه المساعدة ، وفى ذلك الصباح من فصل الشتاء عندما اندفعت لمساعدة ذلك الصبى الغارق شعرت بما آمنت أنه أعظم شىء فى الوجود ، ولكن كان هذا الاحساس احساسا أنانيا احساسا بالتظاهر وتخلق النفس وسعدت بذلك بطريقتى لسنوات عديدة تالية ولكن عندما تقدمت بى السن مع وجودى بهذه الوظيفة فى أثناء الحرب بجوار آلاف من النساء الذين يجيئون لطلب

المساعدة ، شعرت أن قدرتى على اسداء العون لهم أسمى ما يمكن أن يحسه الانسان من الرضى وعندما انتقل الى المعاش سوف أحمل معى راحة للضمير تكفى للتكفير عن أية خطايا أكون قد ارتكبتها » .

ويعيش كوركوران فى التقاعـد الآن وهـو مثل الجد الذى يقص على إحفاده بعض انجازاته فى الحرب الاخيرة بدون أن يدرك حتى مدى ما كان فيها بطولات وما لها من أهمية ، فقد كان الرجل الذى لم ينقذ لندن فحسب بل أنقذ كذلك مئات الالوف من الارواح ، لانه لولا اكتشاف كوركوران لمركز القنابل الطائرة فى بينموند لتأجل غزو أوروبا أو تم فى مكان آخر وتحدث رجال مثل الجنرال ايزنهاور وقالوا ان اكتشاف كوركوران لمنطقة بينموند وفر على الحلفاء مدة ستة شـهور على الاقل ان لم يكن أكثر من ذلك .

كان كوركوران ذئبا فريدا وحيدا ويعتبر ما نظمه بالسويد أفضل عملية من عمليـات المخـابرات الفردية فى الحرب ، اذ كان دبلوماسـيا لا جاسوسا فكيف تسنى له الحصول على هذه المعلومات البالغة القيمة ؟

كان له عدد كبير من الاصدقاء وبصفة خاصة من بين أهالى السويد ، وبمساعدتهم استطاع أن يقابل سرا اسبوعا بعد اسبوع قبطانات السفن السويدية المحايدة الذى يجوبون بحر البلطيق بين ألمانيـا والسويد ، وهناك فى جوتبرج حصل القنصل كوركوران على صورة واضحة تماما لما كان يدور فى داخل بحر البلطيق وموانيه ، ثم حدث فى يوم من الايام أن سمعت المخابرات المضادة الالمانية بأمر هذه المقابلات السرية واحتجت لدى الحكومه السويدية وكان بيلى كوركوران أن يكون أكثر حذرا ، الا أن السويديين كانوا أكثر اهتماما بمعرفة نفس القصص المتعلقة بالاستعدادات الالمانية وبالملاحة ببحر البلطيق . فلم يتدخلوا فى أعمال كوركوران بأى شكل كان .

ولكنه غير الطاقم فتعرف على أصحاب السفن وجميع القبطانات وأصبح يسعى حينئذ الى معلومات من مصادر أخرى وعلى ذلك عقد اجتماعات مع اتحاد رجال البحر ورفاق السفن والمهندسين والطهاة والمشرفين على شحن وتفريغ السفن من أعضاء الاتحاد ، وفى بحر أشهر قليلة تمكن من رفع ركن من أركان الستار الذى يحجب الاسرار ، بدون أن يستطيع معرفة ما يختفى وراءها الا جميع من تحدث اليهم كانوا يرددون نفس القصص

التى عجز الكل عن تحليلها ، حتى ولا كوركوران نفسه ، وهى قصة آلاف القوارب الصغيرة التى تغادر ميناء ستتين الى مكان مجهول على بعد ستين ميلا فى اتجاه الشمال الشرقي ، وفكر كوركوران وأدرك أنه لا يوجد مكان على الخريطة يوحي بوجود أية مدينة هامة مجاورة ، الا أن كوركوران سبق له أن سمع قصة مدينة غامضة تسمى بينموند ، وطلب من بعض الاصدقاء تحديد مكانها بالضبط ، وعرف أنها محاطة بأسلاك شائكة وبمجرد دخول العمال فيها لا يسمح لاحدهم بالخروج كما لا يسمح باستقبال الزوار هناك، فهل تذهب تلك القوارب الصغيرة الى بينموند ؟

وبينما كان لا يزال يحاول اكتشاف ما وراء الستار انفجرت قنبلة على عتبة بابه ، وتحدثت الصحف السويدية علنا قائلة أن المخابرات السرية الالمانية تضع خطة لاختطاف كوركوران واغتياله ، اذا كانوا يلقبونه بأكثر جواسيس أمريكا خطورة ، ونشرت صحيفة برافدا فى نفس الوقت الذى تم فيه هذا الكشف المذهل مقالا بقلم مدام كالونتاى تصفه على أنه جاسوس العم سام رقم ١ ، ولكن لماذا ؟ ماذا فعل ؟ فلم يكن يدرك بعد معنى بينموند بالضبط بالنسبة للاستراتيجية الالمانية ، أو أنهتلر كان يؤمن بأن الأسلحة التى تصنع هناك سوف تنهى الحرب فى بحر أربع وعشرين ساعة ٠

ومع ذلك فلكوركوران آراؤه الخاصة ، فقد اختفت صور فواتير من داخل مكتب شركة النقل البحرى وهى فواتير عن أشياء كانت مرسلة الى ألمانيا النازية ٠

غضب الحلفاء غضبا شديدا وانهالت الاحتجاجات على السويد ووضعت. ترتيبات لتسليم الرمان بلى الى الغرب أيضا وجاء ستانتون جريفس مفاوض الولايات المتحدة لوقف تصدير الرمان بلى الى المانيا ٠

وصدر حكم على نرويجى وسويديين بالسجن ثلاث سنوات بسبب سرقة هذه الفواتير وتسرب أخبارها الى الغرب فاتهم الالمان كوركوران ، ولكنه أجاب على ذلك الى مخبر صحفى تقابل معه بما يلى : « كيف يمكن أن أفعل مثل هذا الامر فى دولة محايدة ؟ ولكن كيف استطاع ؟ ومن المؤكد أنه لم يسرق الفواتير ولكنه دبر تسهيل سرقتها للصوص ، وهذا هو ما افترضه السوفييت على الاقل فى مقال صحيفة برافدا ٠

ومع ذلك فلم تكن هذه سوى البداية ٠

رست السفن الهاربة من كويسلنج النرويج فى ميناء جوتنبرج خلف حلقة الحصار النازية ، وهى لكى تبحر لابد لها من الابتعاد عن حزام الغارات الجوية والبحرية ، وكانت عملية باهظة التكاليف الا أن كوركوران دبر حماية جوية لها من جانب الحلفاء عندما قام البحارة النرويجيون بمحاولتهم الجريئة على نمط الفايكنج للهرب تحت أنف الاسطول النازى ٠

كان كوركوران سعيدا عندما تركزت الانظار كلها على السفن النرويجية وعلى مسألة الرمان بلى وعلى أنه أتهم على أنه الرجل الذى يدفع نشاط الحلفاء من وراء ستار وكم كان تمويلها رائعا ، وقد سمح له هذا بالاستمرار فى جميع التحريات عن المدينة الغامضة بينموند ٠

والتمس من السلطات العسكرية للحلفاء منحه وقتا أطول فكانوا يطيرون حينئذ يوما بعد يوم وليلة فى آثر ليلة فوق بينموند فيلتقطون الصور مدعين دائما بأنهم خرجوا لالقاء القنابل على برلين وستتن وهو ما فعلوه فعلا ، وكان النازيون على يقين بعدم وجود من يعرف شيئا عن بينموند أو عن مغزاها ٠

فكانوا على درجة كافية من الذكاء بحيث يتجنبوا استعمال المدافع المضادة للطائرات هناك كيلا يوجهوا الانتباه اليها وكانت الغابة الكثيفة على طول ساحل البحر البلطيقى تشكل حماية ممتازة لمدينة بينموند ٠

التقطت صور كثيرة ، وقص البحارة مزيدا من القصص عن عمليات نسف كاملة فى بينموند ٠

ثم جاءت ليلة ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٣ عندما طارت ستمائة طائرة متحالفة من قاذفات القنابل الليلة ميممة شطر بينموند وتصور النازى مرة أخرى أن الهدف سوف يكون اما برلين أو ستتن ، الا أنهم كانوا على خطأ ففى هذه المرة لم تتجه الارمادا الجوية الى ألمانيا ولكنها قامت بدلا من ذلك بنسف هذه المدينة الغامضة فى أربعين دقيقة ، وتبدد أمل هتلر فى تدمير بريطانيا تدميرا كاملا شاملا وكان كوركوران قد بعث بتقرير شامل عن بينموند فى نهاية شهر يوليو ، وبعد ذلك بثلاثة أسابيع أبرقت السماء وأرعدت وتحولت بينموند الى آتون من النيران ، بحيث أصبحت الصور التى صورها دانتى للجحيم جنة بالمقارنة بهذه المحيطات العائية من ألسنة اللهب ، فتحول أربعون مصنعا من مصانع التجميع الى رماد ودمر كل معمل وأصيب خمسين مبنى بالخراب وقتل خمسة آلاف عالم وعامل

من بين سبعة آلاف ممن كانوا يشتغلون هناك ، ومنهم مدير البحوث ومدير المصانع الميجر جنرال وولفجانج فون شمبير جليرنكي والجنرال ييشونك رئيس هيئــة أركان حرب القوات الجوية والجنرال أودر أشــهر طيــارى ألمانيا ، وقد فقدت احدى وأربعون طائرة فى العودة ٠

وكانت هذه هى نقطة التحول في الحرب كما قال تشرشل اذ تم تدمير مركز القنابل الطائرة وهى لطمة لم تساعد على انقاذ مدينة لندن فحسب ، بل من المحتمل كذلك أنها أنقــذت الســاحل الشرقى للولايات المتحدة الامريكية من الضرب بواسطة الصواريخ الطائرة ٠

تلقى بيلى كوركوران جميع الاوسمة التى يستحقها على الرغم من أنه بعد كل هذا النصر الشخصي يرفض أن يزيح الستار عما حدث ، ولابد وأن تكون زوجته البريطانية الجميلة الطويلة الرشيقة اللطيفة أكثر نساء العالم فخرا فى ذلك اليوم ، ومع ذلك فلم تجرؤ على اظهار سرورها لأحد

وفى الوقت الذى أحس فيه معظم الناس بأن هذا الانتصار يبعث على الرضى التام بين معظم الناس على اعتبار أنه انجــاز رائع نجــد أن بيلى كوركوران غير قانع بذلك ، وكان ثانى انجازاته أمر يستحق التأمل لانه لولا تدخله الشــخصى لكان من المحتمل أن يظل وزير خارجيــة النــازى بواكيم فون ريبنتروب حيا يرزق حتى يومنــا هذا وربمــا فى مكان ما بالارجنتين ٠

فالقنصل بجهاز مخابراته المكون من رجل واحد هو نفسه دبر خطة مذهلة أظهرت منتهى الشجاعة وبعد النظر ، كانت عابرة المحيطات الفاخرة جريبشولم راســية فى مينــاء جوتنبرج ، وكانت تعرف في ذلك الوقت بســفينة الرحمة لانهــا كانت تســتعمل فى اعادة توطين المطرودين والدبلوماسيين وأسرى الحرب بالتعاون مع هيئة الصليب الاحمر ، وكانت فراو بنكى على ظهر السفينة ولم يكن أحد قد سمع عنها من قبل فهى من الوجهة الرسمية زوجة لدبلوماسي عادى ، هو المستشار التجارى فى أنقرة بالسفارة النازية ، وكان كوركوران الذى كان يحتفظ بقائمة بأسماء الدبلوماسيين النازيين العائدين الذين وصلوا الى البــاخرة جريبشــولم متأكدا بأنه من الجائز أن يكون الهريانكى واحدا من الرجال المكلفين بمراقبة السفير فون بابن ، الرجل الذى ساعد هتلر فى الوصول الى الحكم ثم تحول بعد ذلك الى توجيه النقد اليه ٠

وكان من المعروف كذلك أن فراويانكي هي شقيقة يواكيم فون ريبنتروب ووضعت بعد ذلك تحت مراقبة البوليس فى فندق فى جوتنبرج ، لم يكن القنصل كوركوران فى حاجة الى وقت طويل ليستقر على قرار ، ولما كان يتحدث الفرنسية بطلاقة فقد زار فراويانكى وأخبرها أنه هو الآخر لاجىء من فرنسا وأنه من أنصار لافال وبيتان ، وأنه يود السفر الى ألمانيا أو الى الارجنتين ، وقال ان له أصدقاء فى ألمانيا سيساعدونه على السفر الى أمريكا الجنوبية عاجلا أو آجلا ٠

وأحس كوركوران بأن فراويانكى تود اللحاق بأخيها فى مكانه السرى ، لتذهب معه الى أمريكا الجنوبية هى الاخرى ٠

وهنا سألت فراويانكى : « هل يمكن أن تساعدنى على السفر الى ألمانيا ؟ » ٠

فوعد كوركوران بذلك ٠

وأخبرته فراويانكى بأنه فى الماضى عندما كان روبنتروب يعمل كبائع للشمبانيا كان له صديق يعمل بتجارة الخمور فى مدينة هامبورج ، فاذا استطاعت فراويانكى مقابلة تاجر الخمور يصبح من المؤكد أن تجد أخيها ، ولابد أن نتذكر هنا أن العالم كله كان يبحث عن روبنتروب المختص ليدفع ثمن جرائمه ٠

دبر بعض الاصدقاء من السويد أمر ترحيل فراويانكى الك هامبورج ، فغمرها السرور عندما حصلت على تصريح بمغادرة السويد ودخول منطقة الاحتلال البريطانية فى ألمانيا ، ووصلت فى الميعاد وفى الحال ذهبت الى تاجر الخمور ، الذى تحدثت عنه ٠ ومن هناك حيث احتست الخمر وتناولت طعام الغذاء ، ذهبت وقلبها يدق لترى شقيقها الذى كان يقطن فى غرفة داخلية قريبة ، وبعد ذلك بدقيقتين ألقى عملاء الحلفاء القبض على يواكيم فون ريبنتروب وحوكم عقب ذلك أمام محكمة نورمبرج ثم أعدم ٠

كانت مسألة بينموند وتحرياته عن ريبنتروب من بين أعظم انجازات كوركوران فى ميدان التبليغ والتحرى ولكن كانت تقاريره عن السفن

النازية المارة بمضايق اسكاجارك وكتجارت التى انتهت باغراق عدد كبير منها لا تقل روعة وأهمية ، فكان قنصل نرويجى معروف عنه رسميا أنه كويسلنج نرويجي يعمل لحساب كوركوران وساعد على تحديد أماكن ترسانات الاسلحة النازية وتحركات السفن وجميع المنشئات ومصانع الماء الثقيل .

وبعد تدمير بينموند بعث رجال البحر من عملاء كوركوران تقريرا عن منشئات النازى البترولية التى تبعد أكثر من ثلاثين ميلا عن بينموند المجاورة لمدينة ستتن على نهر الادور ، فدمرت هى كذلك وأصبحت ركاما. فمنح كوركوران مزيدا من الميداليات ، وقام رجال البوليس السويدى بحراسة مكاتبه وفرضوا عليه الحراسة ليلا ونهارا لعلمهم بأن النازيين قد أصدروا أمرا باغتياله .

والميداليات التى منحت للقنصل كوركوران وهى كثيرة بحيث لا يمكن حصرها ، لقيت الترحيب بالتأكيد لانها شرف عظيم الا أن تمثاله الحقيقى ووسامه الفعلى هما اليوم فى قلوب خمسة آلاف من الناس جميعهم من اللاجئين وقد يسر لهم كوركوران سبل التجارة .

فلم يحدث أن أوصد بابه أمام لاجىء جاء يسعى لمعاونة كوركوران ، وبالفعل حصل الجميع كلما كان من الممكن والمعقول تقديم العون على اذن وتأشيرة لدخول الولايات المتحدة الامريكية .

وقالت صحيفة Gothenburg Handels och Sjöfartstidning فى عددها الصادر يوم ٢٥ من فبراير سنة ١٩٤٧ ما يلى فى حديثها عن أمريكى عظيم :

ان انجازات القنصلية عديدة وأكثرها أهمية عملها فى خدمة اللاجئين فى أثناء السنوات القليلة الماضية ، وهذا العمل حاليا عبارة عن رعاية الناس الذين ظلوا على قيد الحياة من معسكرات الاعتقال والارهاب فى أوروبا ، ونقلهم عبر الاطلنطى الى الآقارب والاصدقاء .


Bibliotheca Alexandrina
04083391